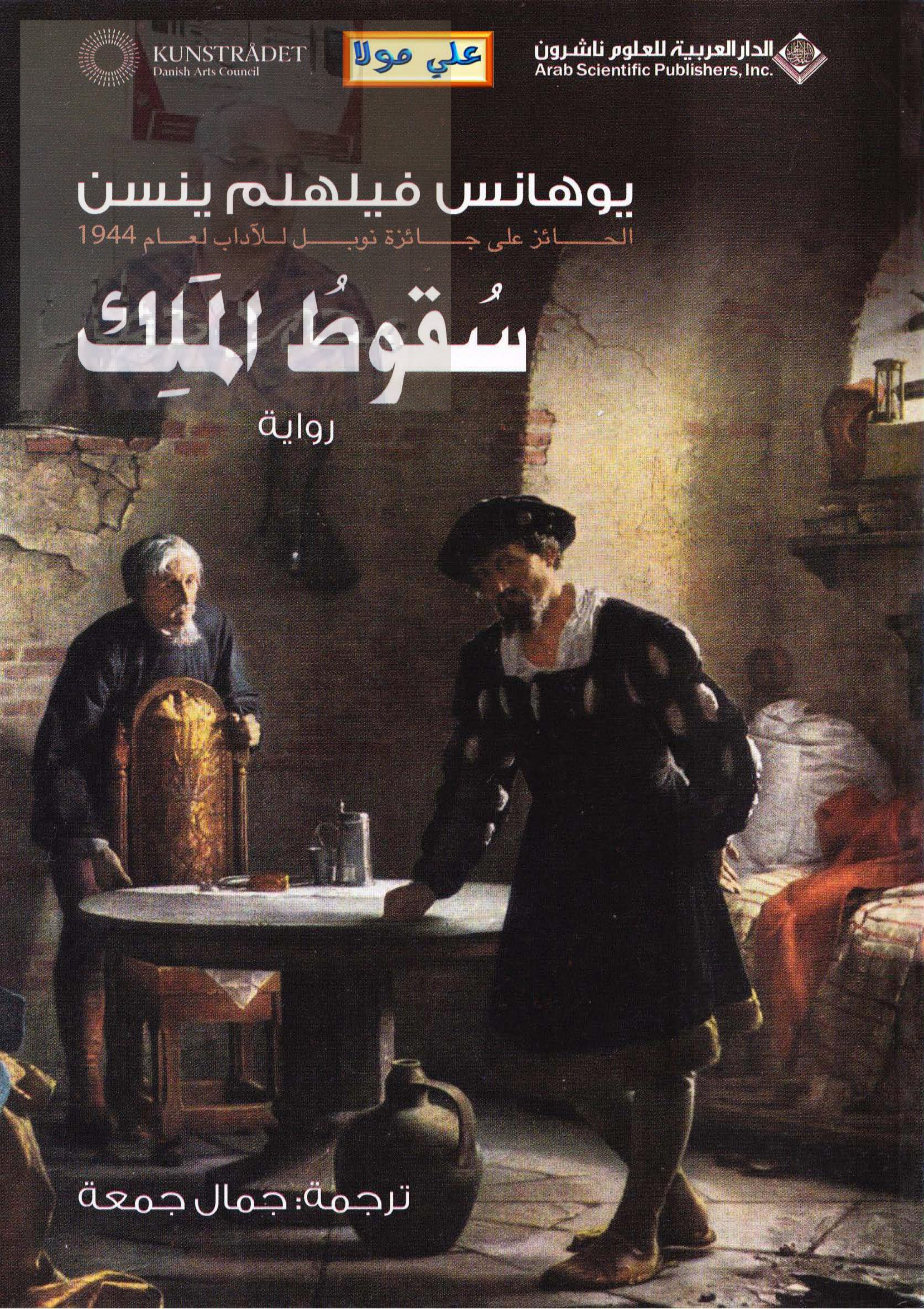

KUNSTRÅDET
Danish Arts Council
علي مولا
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
يوهانس فيلهلم ينسن
الحائز على جائزة نوبل للآداب لعام 1944
سُقوطُ المَلِك
رواية
ترجمة: جمال جمعة

رسالة مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

عزيزي القارئ:

في عصر يتسم بالمعرفة والمعلوماتية والانفتاح على الآخر، تنظر مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم إلى الترجمة على أنها الوسيلة المثلى لاستيعاب المعارف العالمية، فهي من أهم أدوات النهضة المنشودة، وتؤمن المؤسسة بأن إحياء حركة الترجمة، وجعلها محركاً فاعلاً من محركات التنمية واقتصاد المعرفة في الوطن العربي، مشروع بالغ الأهمية ولا ينبغي الإمعان في تأخيره.

فمتوسط ما تترجمه المؤسسات الثقافية ودور النشر العربية مجتمعة، في العام الواحد، لا يتعدى كتاباً واحداً لكل مليون شخص، بينما تترجم دول منفردة في العالم أضعاف ما تترجمه الدول العربية جميعها.

أطلقت المؤسسة برنامج «ترجم» بهدف إثراء المكتبة العربية بأفضل ما قدّمه الفكر العالمي من معارف وعلوم، عبر نقلها إلى العربية، والعمل على إظهار الوجه الحضاري للأمة عن طريق ترجمة الإبداعات العربية إلى لغات العالم.

ومن التباشير الأولى لهذا البرنامج إطلاق خطة لترجمة ألف كتاب من اللغات العالمية إلى اللغة العربية خلال ثلاث سنوات، أي بمعدل كتاب في اليوم الواحد.

وتأمل مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم في أن يكون هذا البرنامج الاستراتيجي تجسيداً عملياً لرسالة المؤسسة المتمثلة في تمكين الأجيال القادمة من ابتكار وتطوير حلول مستدامة لمواجهة التحديات، عن طريق نشر المعرفة، ورعاية الأفكار الخلاقة التي تقود إلى إبداعات حقيقية، إضافة إلى بناء جسور الحوار بين الشعوب والحضارات.

للمزيد من المعلومات عن برنامج «ترجم»، والبرامج الأخرى المنضوية تحت قطاع إنتاج المعرفة، يمكن زيارة موقع المؤسسة www.mbrfoundation.ae

عن المؤسسة

انطلقت مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم بمبادرة كريمة من صاحب السمو الشيخ محمد بن راشد آل مكتوم نائب رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة رئيس مجلس الوزراء حاكم دبي، وقد أعلن صاحب السمو عن تأسيسها، لأول مرة، في كلمته أمام المنتدى الاقتصادي العالمي في البحر الميت - الأردن في أيار/ مايو 2007. وتحظى هذه المؤسسة باهتمام ودعم كبيرين من سموه، وقد قام بتخصيص وقفٍ لها قدره 37 مليار درهم (10 مليارات دولار).

وتسعى مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم، كما أراد لها مؤسسها، إلى تمكين الأجيال الشابة في الوطن العربي من امتلاك المعرفة وتوظيفها بأفضل وجه ممكن لمواجهة تحديات التنمية، وابتكار حلول مستدامة مستمدة من الواقع، للتعامل مع التحديات التي تواجه مجتمعاتهم.


محمد خطاب



سُقوطُ المَلِك

Kongens Fald

روايـة

يوهانس فيلهلم ينسن

الحـائز على جـائزة نوبـل لـلآداب لعـام 1944

Johannes V. Jensen

ترجمة: جمال جمعة

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة





بسم الله الرحمن الرحيم

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الدنماركي

Kongens Fald

Oversat af Jamal Jumá

Supported by Danish Arts Agency - Literature Centre

الطبعة الأولى

1431 هـ - 2010 م

ردمك 978-9953-87-865-2



tarjem@mbrfoundation.ae
www.mbrfoundation.ae



عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم

هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1-961+)

ص.ب: 5574-13 شوران – بيروت 1102-2050 – لبنان

فاكس: 786230 (1-961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1-961+)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1-961+)

المحتويات

موت الربيع

الصيف العظيم

الشتـاء



موت الربيع


محمد خطاب

مايكل

ينعطف الطريق يساراً فوق أحد الجسور، ويمرّ عبر مدينة «سريتسليو». تمتدّ قنوات الماء مغطّاة بعشب داكن وزهور صفراء صغيرة، فوق الحقول تستريح هنا وهناك قطرات ندى بيضاء تلتمع تحت الغسق. غربت الشمس، والهواء كان بارداً وصافياً، لا غيوم هناك لكن لا نجوم أيضاً.

ثمّة عربة محملة بالقشّ قدمت من الريف باتجاه مدينة «سريتسليو»، ببطء وترنح على امتداد الطريق الوعر. كانت تدبّ في الغسق عبر الطريق القرويّ الضيّق مثل حيوان أشعث كبير، قصير القوائم، يتهادى مستغرقاً في التفكير وهو يشمشم التراب.

توقّفت العربة خارج خان «سريتسليو»، وأدارت الأحصنة المتعرّقة رؤوسها جانباً، وهي تعضّ شكيمة الرَّسَن. كانت سعيدة بالتوقف وإن لفترة قصيرة. إستند الحوذيّ على وَتَدَي العربة، ثم تدلّى على الأرض، وقام بتثبيت اللُّجُم بإحكام، بعدها استدار نحو مدخل الخان، ورفع صوته باتجاهه، وهو يضغط على أنفه بإبهامه لتنظيفه:

«أما من أحد هنا!؟».

توهّجت النوافذ في الحال؛ هل قاموا بإشعال الفوانيس في الداخل؟ سرعان ما ظهرت فتاة عند المدخل. كان الحوذيّ يرغب في ترطيب حنجرته بكوب من المشروب الفرنسي، وفيما كان بانتظار شرابه، حدثت حركة في كومة القش المحمّل على العربة. إمتدت ساقان طويلتان بحذر

إلى الأسفل، لتتلمسا وتدي العربة بينما كان صاحبهما مستلقياً على بطنه وهو ينخر بتثاقل كالحيوان. إستطاع النزول إلى الأرض، ثمّ انتصب وهو يهزّ جسده، كان طويلاً ناتئ العظام وثمّة قَلَنْسُوَة تغطّي رأسه.

«صحّة!»، قال له. عبّ الحوذيّ الشراب في جوفه، وسعل بصوت مسموع. لعلّ الحوذيّ يرغب في البقاء قليلاً؟ كان بإمكانهما دائماً بالتأكيد الدخول إلى الخان، وتناول كوب إضافيّ خلال الرفقة.

لكن حينما دخلا دائرة الضوء تجمّد الحوذي لوهلةٍ، وظلّ واقفاً عند عتبة الباب وقد أخذته الرهبة، كما شعر رفيقه الآخر بالاضطراب أيضاً. في وسط الصالة، كان يجلس عند الطاولة أربعة محاربين أنيقين من الحرس الساكسونيّ الذين وصلوا توّاً إلى كوبنهاغن. كانوا متألّقين في ملابسهم المزركشة، أكمامهم الحمراء المشطّبة، أرياشهم، ولحاهم التي تخطف البصر مثل الألعاب الناريّة. على أطراف الطاولة والمقاعد كانت تستند سيوف ورماح، أسلحة فاخرة. كان بإمكان أيّ واحد ملاحظة أن تدلّي الأحزمة الجلدية يفصح عن براعة في الاستخدام. أدار الأربعة أجمعهم رؤوسهم، لكنهم سرعان ما أعادوها لينظروا إلى بعضهم من جديد مواصلين الحديث.

أحضرت الفتاة إبريقين من شراب الشعير، ووضعت شمعة على الطاولة الصغيرة التي كانت هناك. وما إن عادت إلى مكانها حتى نهض أحد الجنود عن مقعده في وسط الصالة، وانفجر بقهقهة صاخبة.

«أنظروا الآن إلى ذلك الذي هناك، صاحب القلنسوة. عسى الأمور تسير بصورة طيّبة!»، كان يتحدّث الألمانية.

إستدار الآخرون مجاملةً له، لكنهم لم يستطيعوا منع أنفسهم من الضحك. ظلّ الطويلُ يواصل الشرب، كان واقفاً هناك وركبتاه مقوّستان فيما كان أنفه الكبير بارزا من تحت قلنسوته التي تغطي كوب شراب

الشعير، مشكلاً صورة كوميدية لا يمكن إنكارها. بعد أن انتهى من الشرب، جلس بهدوء على المقعد. سقط الضوء على عينيه حين نظر شزراً بازدراء نحو الطاولة، شبه مُهانٍ، شبه حانقٍ كما لو أنه كان رجلاً ذا نزعةٍ فلسفيّة.

بعدها نهض أحد الجنود، خطا بضع خطوات عبر الصالة، وبدأ يتحدّث بشكل مهذّب بالألمانيّة:

«لم نكن نقصد بضحكنا أيّ شيء، هلاّ شرّفتنا باحتساء كوب من الشراب الفرنسي معنا؟».

«شكراً»، أجاب الطويل بالألمانية، وتوجّه نحو الطاولة وانحنى عدة إنحناءات، وقبل أن يتوقف أمام الكرسي، ويجلس عليه، إنحنى إنحناءة خاصّة لكلّ واحد منهم على التوالي مقدماً نفسه: «مايكل ثوجرسن، طالب جامعي»، بعد ذلك قام بتمرير أصابعه عبر شعره، وفرك راحتيه على خديه الخشنين. تناهت إلى مسامعه أربعة أسماء تمّ ذكرها، أحدها كان يبدو دنماركيّاً، ثم شاهد أكواب الشراب الفرنسي القاني تتوهّج أمامه. بعدها ارتفعت الأنخاب «صحة، صحّة!».

«نخب صحتكم أيها السادة المهذّبون»، قالها مايكل ثوجرسن بالألمانية، واحتسى كأسه بوقارٍ متحفّظٍ، ثمّ عدّل وضعية قوامه الهزيل حالما انساب الشراب الفرنسي في جوفه. ألقى نظرة سريعة عبر الطاولة، فلمح أحد الجنود، أصغرهم سنّاً الذي كان يجلس مسنداً رأسه على إحدى يديه، والتي كانت بلا عروق أو مفاصل عظميّة بارزة للعيان. كانت أصابعه مدفونة في شعره البنّي الفاتح اللون. تعابير وجهه كانت تنطق بالحزن مما دفع مايكل فجأة إلى التفكير في بهلوان الحبال الذي رآه ذات مرة في إحدى الأسواق. كان البهلوان الشاب جالساً بمفرده آنذاك في إحدى الزوايا من دون أن يفعل شيئاً، لعلّه كان مريضاً. تذكر

مايـكل الآن الوجـه الحزيـن لذلك الشـاب. يمتلك هذا الشـخص الذي يجلس بمواجهتـه تماماً نفس تلـك العينين، وعلاوة على ذلـك فقد تهيّأ لمايـكل أنه رأى هذا الشـخص من قبل. من هو يا تـرى؟ أين كان؟ فهو يبدو كأحد النبلاء.

مُلئـت الأكـواب مـرة أخرى بمـا في ذلـك الكـوب أمـام مايكل ثوجرسن. شـرب على مهل في كياسةٍ بالغةٍ، منشغلاً في محاولة التذكّر ومشوّشـاً بمشـهد الإنسـان الذي كان يجلس قبالته إلـى الجانب الآخر للطاولـة. كان شـيء مـا يبدو غامضاً بشـأن ذلـك الشـخص ذي الوجه البرونـزي، وها هـو الآن قد اسـتدار ليكون أمامـه وجهاً لوجـه. كانت ذراعاه مسـتقرّتين بمسـافة إسـتثنائية عـن بعضهمـا بعضـاً وذا بِنْيَةٍ ذات تكوين غير عـادي. لِمَ هو حزين إذن؟ فالمظهر الذي هو فيه لا تناسـبه سوى البهجة.

تواصـل الحديث، فالجنـود الألمان الأربعة كرّمـوا مايكل وعاملوه باللطف، كما شـعر مايكل بثقة مطلقة بهؤلاء الألمـان، الذين بالرغم من كلّ هـذا لـن يمكنهم معرفـة أنه كان يسـمّى «اللقلـق» فـي المدينة. كان مايكل يتحدّث متحمّساً بألمانيّة ركيكة، لكنه بين الفينة والفينة كان يشعر بالإرتباك لأنه لم يستطع التوقف عن التفكير في لقبه... ومن ناحية أخرى لم يكن الألمان على درايـة أنّ مايكل كان معروفاً ضمن دائرة خاصّة أنه مؤلف أناشـيد وشـعر باللغة اللاتينيّة... لماذا لا يتفوّه ذلك الشاب الذي هناك بشيء؟

أوتـا إيفرسـن! ذلك هـو اسـمه. إذن فقـد كان هو علـى أي حال. سـرعان ما مرّت بخاطر مايكل صورة بوّابة رمادية متهدّمة، جدار، وبرج عند بيته في جزيرة «يولاند». شـعر بنفسه وكأنّه واقف في الخارج ضئيلاً وبائسـاً هناك. لقد كان هناك عـدة مرّات قبل مدة طويلـة، إلاّ أنّه رآه مرّة

واحـدة فقـط... إذن هذا هـو أوتا إيفرسـن بعينـه، الإبن الصغيـر لمالك العزبـة. كان يحتفظ في ذهنه بصـورة له وهو في فناء الـدار صبيّاً نحيفاً، وظلـت هذه الصورة منطبعة في رأسـه منذ ذلك الحيـن. كان يقف هناك وسط قطيع من الكلاب حاملاً صقراً منفوش الريش فوق إبهامه. وها هو والآن يجلس هنا، فتى بالغاً وممشوقاً مثل فتاة.

ضحـك الجنود. إسـتجمع مايـكل ثوجرسـن أفكاره، وشـرب من جديد.

ظهر الحوذيّ عند ممرّ الباب. «أنا مغادرٌ الآن»، قال ذلك ثمّ وضع كيسـاً وسـلّة صغيرة من القشّ مليئـة بالبيض على الأرضيّـة في الداخل، أغلق البـاب خلفه. كانت تلك أشـياء مايـكل، غنيمة رحلتـه في الريف. كان خزيه رابضاً هناك، عارياً عند الباب، فأدار ظهره بخجل إليه.

لكنّ الجنود الألمان ضحكوا وتوصّلوا إلى فكرة أنّ لا شيء معيب فـي البيض علـى الإطلاق! بعدهـا قام مايـكل، سـعيداً ومخزيّـاً، بتمرير البيـض على الجميع مـن واحد إلى آخر. أوتا إيفرسـن لم يكـن يريد أيّاً منه، وهو لا يزال لا يريد أن يقول شيئاً.

بعدها جلس مايكل ثوجرسن على المقعد، متحمّساً، نزقاً وودوداً، فالشـراب الفرنسـي المدهش أزاح الغمّ عن صدره، ومـع ذلك فقد كان مثبط العزيمة تماماً. تعلّق قلبه بهؤلاء الجنود المبتهجين، لكنه في الوقت نفسه كان خائفاً من السقوط تحت سيطرتهم، ثم أخذت روحه بالتأرجح على إيقاع المد والجزر لمشـاعره المضطرمة. إختلـس نظرة خاطفة إلى أوتا إيفرسـن، محبّـاً، مرتابـاً، متـودّداً... هل مـن الممكـن ألاّ يكون قد تعرّف عليه؟ كلاّ، من الأفضل ألاّ يكون قد فعل ذلك.

كان أحد المرتزقة الألمان يحمل شقّاً على شفته العليا، بالكاد كان شـاربه يغطّيه. لم يكن يسـتطيع التكلّـم بوضوح، وكان مايكل ثوجرسـن

يصغـي إلى حديثه المشـتَّتْ مسـتمتعاً بذلـك، فقد كان متحمسـاً لكلّ ما يراه أو يسـمعه. لكن بالرغم من أنّ الشراب الفرنسي والحالة الطيبة التي هـو فيها قد جعـلاه أكثر مرحـاً إلاّ أنّه كان فـي قرارة نفسـه ينتكس. ثمّة قشـعريرة باردة تدبّ في أوصاله، لكنّه اسـتطاع قهرها ليسيطر على زمام نفسه من جديد.

إندفـع ثلاثة مـن الألمان بشـكل جماعـي ناحية المشـرب، تاركين مايكل ثوجرسـن وأوتا إيفرسـن بمفردهما علـى الطاولة. لـم يتفوه أحد منهما بشـيء، فانصرف مايكل إلى نفسـه. حدّق إلى البقعـة المعتمة بين الطاولة والكرسـي في الأسـفل، وشـعر بوحدة مريرة، وحـاول بعدها أن ينتزع نفسه عن هواجسـها، فتأوّه، وسحب ساقيه المتخشّبتين إلى أسفله، وجفّف عرقه من على جبهته ليلمّ شـتات نفسه. كان أوتا إيفرسن جالساً وهو يدير كوبه بيده، ويبدو كما لو أنه كان مريضاً.

حيـن عـاد الجنـود إلـى أماكنهـم باكتشـافات لأنـواع جديـدة مـن المشروبات، كان مايكل قد أضحى أكثر هدوءاً ورباطة جأش، فشاركهم الشـرب بلياقة ومن دون أيّ اضطراب. أسرف الجميع في الشراب حتى لم يعودوا يفكّرون في شـيء آخر. كان أوتا إيفرسن يفرغ كوبه في جوفه حالما يراه مملوءاً من دون أن يغير من حاله شيئاً. أمّا كلاس، ذلك الذي يحمل شـقّاً على شـفته العليا، فقد أحيا الجلسـة بأغنية أقلّ ما يقال عنها إنها كانت بذيئة.

إلتقط مايكل ثوجرسن أحد السيوف الكبيرة ذات المقبضين، وشرع فـي تجربته بيده، فأرشـدوه إلى طرق الإمسـاك بـه. وفي كلّ مـرّة كانت ضربـات السـنّ توجّه نحوه يشـعر بوخزة تشـبه رياح جليديـة في عموده الفقريّ مما أثار استغرابه، فلم يكن عادة ليخاف من هذه الأشياء.

ثمّ شرع كلاس يغنّي بالألمانيّة:

في البدءِ أرعدَ المَيدانْ
تلتها التماعَةُ السِّنانْ
وبعدها خرَّ على التراب،
قُلْ ليَ ما سمعتَ في الميدانْ.
ألم يرَ من قبل أنْ يصولْ
جَحْفَلنا يقرعُ والطبولْ
قُلْ ليَ ما سمعتَ في الميدانْ.

كانت نصف كلمات الأغنية تتسرّب عبر لحيته. بعد ذلك تحولوا إلى رواية القصص عن الحرب، عن المبارزات هنا وهناك... تشك، شاك! عن الانتصارات والمخاطر المميتة و...

«هينريش، هل تذكر تلك الشقراء لينورا؟» صاح كلاس بصوت عالٍ. نعم، هينريش يتذكّر لينورا، وسرعان ما انسابت القصة على لسانه، فيما كان كلاس وصموئيل يتلوّيان من الضحك.

أمّا مايكل ثوجرسن فقد ظلّ صامتاً ومنكمشاً تحت طوفان الفجور المنبثق من الأفواه المفتوحة. رمق أوتا إيفرسن بنظرة خاطفة، كان الوحيد الذي يمكن رؤية إبتسامة لا غير تلوح على وجهه المتغطرس الفتيّ. ثمّة انحناءة غير ملحوظة على شفتيه، وكأنّه شمّ رائحة مثيرة للإشمئزاز.

كان مايكل يتنفّس بصعوبة، ويمرّر يديه على وجهه بين الحين والآخر.

لكن هينريش ظلّ مستمرّاً في رواية القصّة. إستدار أوتا إيفرسن في مكانه عند الطاولة، ووضع ساقاً على ساقٍ. وحين وصلت القصة إلى نهايتها حلّ صمت مميت بين الجميع وكأنهم قد انتبهوا إلى الكآبة التي هو فيها. ربما يكون أوتا إيفرسن قد شعر أنّه سبب هذا الصمت،

فاستدار مجدداً باتجاه الطاولة، وكأنّه يدعم وجهة نظره ويتطلع إلى عينيّ الراوي.

كان هينريش يبدو وكأنه في حيرة من أمره، لكن صموئيل بادر بقصة أخرى. ولأنه لم يكن شاباً فلم تك تلك القصة التي يرويها تدور عن الحبّ، وإنّما عن قصّابٍ مجنون عمل معه ذات مرّة، حيث كانوا يخرجون أحشاء الناس بكعوب جزماتهم ويخنقونهم ببرازهم الشخصيّ. جعلت هذا الحكاية من هواء الصالة أكثر نقاءً للتنفّس، وتحمّس كلاس على طرح سؤال عن مكان تواجد هذا الخبير. شعر مايكل ثوجرسن فجأة بالمرح عند الإصغاء لهذه الحكاية الغريبة المبالغة، فشمخ بأنفه مقهقهاً غرو، غرو!. عندها تطلع أوتا إيفرسن بفتور ولوى شفتيه بتهكّم وكأنه مكره على الأمر، لكنه في النهاية اضطر لرفع حنجرته إلى الأعلى مقهقهاً، إلاّ أنّ قهقهته كانت أشبه بصلصلة صاخبة تفجّرت بعنف، عاد بعدها ليجلس في مكانه منطوياً كما كان من قبل.

بعد ذلك بقليل خرج الجميع قاصدين العودة إلى كوبنهاغن قبل إغلاق بوّاباتها. وحينما أصبحوا خارجاً أحسّ مايكل ثورغسن بمسافة تفصل بينه وبين الجنود من جديد. تخلّف قليلاً عنهم ثمّ ما لبث أن غادرهم، حالما دخلوا بوابة «نوربورت». واصل المرتزقة سيرهم باتجاه مركز المدينة، أمّا مايكل فقد بقي لبرهة قصيرة واقفاً يتابعهم بنظراته قبل أن ينعطف يساراً ويمضي إلى البيت.

كوبنهاغن في الليل

يقطن مايكل ثوجرسن في بيت يقع تماماً عند السياج الخارجي المطلّ على «بوتسرفيج»، حيث كان يتقاسم غرفة علويّة مع تلميذ آخر يدعى أوفا غابريل. حين قدم مايكل إلى الغرفة كان أوفا لا يزال مستيقظاً وهو يذاكر على ضوء شمعة كعادته، نظر صوبه من فوق الأوراق، ثمّ سرعان ما عاد لمواصلة مذاكرته.

ألقى مايكل بنفسه على الطرف الآخر من الطاولة، وراكم بعضاً من دفاتره التي كانت أمامه. لقد كان المشهد ذاته مثلما تركه حينما غادر في الصباح، فلا شيء قد تغيّر منذ ذاك الحين.

تنفّس مايكل بصعوبة، حينها نظر غابريل إليه وببطء لوّح براحته التي جعلها على هيأة كوب أمام وجهه.

«لقد كنتَ تشرب»، قال له. كان يريد فقط تقديم ملاحظة مفادها: أن مايكل كان مخموراً، وإنه كان يستطيع أن يواصل التحديق به بعينين واسعتين، واعظيتين من دون أن يطرف لهما جفن أو أن تدمعا.

لقد تحمّل مايكل ثوجرسن هذا الوجه الصارم، والجدير بالثناء، أمامه طيلة ثلاث سنوات، حيث كان الصمت البليغ لأوفا غابريل قد نصّب نفسه قاضياً عليه في كل لحظة. الآن ستشرع عينا أوفا غابريل البريئتان بمطاردته ووخزه في استهجانٍ، بالخبث المشروع، إلى أن يذوي في كرسيّه. بعد هنيهة نبّهه أوفا غابريل بملاحظة «تذكّر الآن، فهذه شمعتي التي نذاكر على ضوئها».

تسلّق مايكل ثوجرسن، وفتح طاقة السقف. كان طويلاً بما فيه الكفاية إلى الحد الذي جعل جذعه يخرج من الطاقة. كانت هذه وسيلته للهروب من نظرات أوفا غابريل المتفحّصة.

كان الهواء منعشاً والنجوم تتألق عالياً فوق رأسه! على الجانبين كانت السقوف المصنوعة من القش تقوّس ظهورها مثل حيوانات تنام مخفيةً رؤوسها.

أسفل الشارع كان الحارس يقوم بجولته، مضيئاً بمصباحه الأبواب المغلقة صعوداً ونزولاً. لكن على الجانب الآخر من السياج كان الماء يتلألأ والنجوم تنعكس بين سيقان الخيزران في الخندق المائيّ. كان الريف يقبع صامتاً في ظلام أخضر بلون الطحالب، وبعيداً من جهة البحيرات كانت تنبعث موسيقى ملحاحة، بلهاء من نقيق الضفادع. كانت البلدة غارقة في سباتها. الماء يرتطم بلطف على دعائم الخندق. وعلى سقف، في مكان ما، كانت ثمّة قطّة عاشقة تموء.

استدار مايكل ثوجرسن في مسافة ضيّقة وحدّق، وهو يحني ظهره بقوّة إلى الخلف، إلى المدخنة والنجوم. أحسّ بالدوار، وشعر كما لو أنه كان ينزلق بقدمين حافيتين على شفرات سكاكين. لكن ذلك لم يكن يشكّل لديه أيّ فرق، فهو لم يعد يستطيع تحمّل عذابه أكثر. ربما سيكون من الأفضل له أن يتأرجح مشنوقاً بحبل يتدلى من منتصف السماء. لعلّ ذلك سيكون مناسباً أكثر للداور الذي يعتور قلبه. استدار مايكل مسنداً ذراعه إلى السقف البارد.

سوزانا! فكّر في سوزانا. ثمّ شعر بدفقة حنان جعلت كلّ الأشياء والجمادات المحيطة به تبدو وكأن الروح قد بعثت فيها، وأضحت لها قلوب تنبض. البيوت الصمّاء لا تزال على حالها صامتة إلاّ أنّها تشع بالطيبة، النجوم تومض بعاطفة. الصمت الناعم النابض وسطح الخليج

كانا يتعكـران بالريح بين الفينـة والأخرى. الهواء القاتـم كان يبدو وكأنه كائن أوقظته أسراره وقدره.

لكن، فقط لأن مايكل قد لفظ اسـمها بسرّية، فقد شعر بالخواء في روحه، ثم غمره إحساس بسوء الطوية. قوّم جسده متذمّراً.

أَصْغِ! ثمّـة أصـوات تتناهـى مـن البلـدة فـي الأسـفل. صرخـات مصحوبة بمشهد غرف تُضاء وأشياء تحدث.

خفّض مايكل ثوجرسـن نفسـه إلى الأسـفل منسـحباً نحو الحجرة من جديد. كان أوفا غابريل واقفاً عارياً على أرضيّة الغرفة وعلى وشـك الذهاب إلى السـرير، كانـت عيناه تنطقـان بالكمال وجسـده يضيء مثل قطعة شمع تحترق باطمئنان.

«إنّـك نحيل إلى حدٍّ ما، عجيـب أنّ روحك لا تـزال عالقة فيك»، قـال له مايكل وهو يضحك بشـكل مسـتفِزّ. عاين بنظره صعـوداً ونزولاً جسد أوفا غابريل الذي كان متعلّقاً ببعضه مثل جثّة بقرة هزيلة متفسّخة. دسّ أوفـا غابريل جسـده تحت دثـارٍ من الفـرو وحين اسـتقرّ تحته فتح راحتيه، وترنّـم بمقطوعة شـعرية مـن تأليف زميله في الغرفـة، ثمّ أضاف بخُيَلاء: «*Et nunc extingue lucem!*».

أَطفِئِ الشـمعة، أطفِئِ الشـمعة! فكّـر مايكل. لن يكلّـف ذلك أكثر من نفخة. انحنى فوقها، ونفخ على الفتيل، بعدها أمسـك بعصاه المدبّبة وتلمّـس طريقـه إلى أسـفل السـلّم. كان باسـتطاعته سـماع صـوت أوفا غابريل المغرور وهو ينبعث من الأعلى مرتّلاً.

لم يكن الوقت مناسـباً للتجوال في الشـارع، لكن مايكل ثوجرسن خـرج على أي حـال. انعطـف تماماً إلـى اليمين ثـمّ هبط باتجاه شـارع «بيلستغيذه»، وبعد أن قطع مسـافة قصيرة بدأ بالتلكؤ، وفي النهاية توقّف بهـدوء. لم يكن هنالـك أحد يمكن رؤيتـه، كل البيـوت غارقة في ظلام

دامس، والأشـجار التي في الحدائق كانت تقف متلاصقة، مريحة أعاليها المورقـة علـى بعضها بعضـاً. كان يفـوح عبيـر أوراق الأشـجار من كل الجهات، دافئاً ولاذعاً مثلما يكون في الفترة التي تعقب المطر.

مضـى مايكل ببطء، وحين اجتاز الزاوية سـمعهم ينشـدون في دير «سـانت كلارا»، وبالرغم من أن الأصوات كانت مكتومة بالجدران لكن كان من الممكن سماعها بسهولة، متضرّعة وكأنها صادرة من سجناء في قبو تحت الأرض، وكان بإمكان مايكل أن يتخيّل شـعار النصارى الديني مرتسماً هناك، أحمر وأزرق تحت عتمة الظلام الجزئيّ.

وقـف مايكل خـارج إحـدى الحدائـق التي كانـت تتوسـط منزلين شـاهقين مسـيّجين بالأوتاد من الجهة المطلّة على الشارع، وهناك توقّف بضع دقائـق. بين الفينة والفينة كانت الأوراق تخشـخش بهـدوء، وكأنها تتسـاقط على أكوام، فيما كان الجملون المغطّـى بالندى يتلألأ في ضوء النجوم... بعدها واصل حركته في تردّد.

عند الطريـق الممتدة حول الميدان الرئيسـيّ كانت ثمة حياة تنبض وأضواء. لقد كان المرتزقة الغرباء هناك، حيث لم يكن بمقدروهم البقاء فـي أحيائهم. كان بينهـم أيضاً العديد من السـكان المحليين. أراد مايكل ثوجرسـن أن يسـتدير باتجاه شـارع «كوبماير» ويذهب إلـى البيت، لكنه هرول نحو مجموعة الجنود الذين أحاطوا به وهم في مزاج رائق.

«يـا للمفاجـأة، إنه صاحبنـا المثقّـف مجـدداً!» صـاح أحدهـم، لم تكن لَعْثَمتـه تحتمل الإلتباس، فقـد كانوا الأربعة الذيـن التقى بهم هناك في ضاحية «سريتسـليو» برفقـة آخرين غيرهم. أخـذه كلاس بالأحضان، وحثّه على الذهاب معهم، فلم يكن باسـتطاعة مايكل أن يرفض. فتسكع الجميع خارجين من حانوت إلى آخر، متناولين كوباً في كل واحدٍ منها. ودّ مايـكل أن يطلـق العنان لنفسـه كما يفعـل الآخرون لكنه لم يسـتطع

ذلك لأنه رأى ذلك الأوفا إيفرسن لا يزال كئيباً ومنقبضاً، كما كان يعي بالتأكيد أنّ الرجال إنّما أرادوه في صحبتهم لأنهم وجدوا فيه شخصاً مسلّياً.

إجتازوا في سيرهم عبر ساحة «هويبرو» ثم ارتبطوا برفيق لهم، نحيف أصفر البنطال، أسرَّ لهم شيئاً بدا وكأنه قد أثّر تأثيراً كبيراً فيهم. عجّلوا بسيرهم عبر الشارع، ثمّ ما لبثت المجموعة كلها أن انعطفت حول الزاوية متوجهة إلى شارع «هايسكن». توقف مايكل ثوجرسن، منسيّاً من الجميع، لبرهة وهو يتلفّت حوله. كانت القلعة مظلمة وباردة، الشيء الوحيد الذي كان يتحرك هو مركب شراعيّ يترنَّحُ في مياه الخندق عند الجسر. بدا البرج من هذه المسافة ممتدّاً بلا عناء نحو الأعلى، محدّقاً عبر كوّاته الشبيهة بعيون متغضّنه صغيرة. هَمْهَمَ مايكل لنفسه بضعة أبيات من شعر فيرجيل، كانت تدور عن أحد الساهرين في ليلةٍ سرمديّة.

أينبغي عليه الذهاب الآن إلى البيت ليضطجع مستمعاً لشخير أوفا غابريل؟ كلاّ، أحنى مايكل رأسه، ثمّ هرول يتبع الآخرين، فتركهم له واقفاً هناك لم يكن يعني بالضرورة أنهم ما عادوا راغبين في مواصلة صحبته لهم.

في مواضع عديدة، وعلى امتداد شارع «هايسكن»، كانت ثمّة أضواء. انسلّ مايكل مجتازاً البوابة المغلقة، ملاحظاً رائحة الشذى الغريب الذي تذكّره في هذا المكان، رائحة لحاء وجوز الطِّيْب جلبت إلى ذهنه صوراً غامضة لقوافل من الهند، رَوث جِمالٍ، وتصحّر.

كانت الأصوات تُسمع من حانوت كونراد فينسن والباب بقي مفتوحاً. تحرّك مايكل ثوجرسن باحتراس، ونظر نحو الداخل. كان الرجال أجمعهم واقفين ومصطفّين في حلقة داخل الصالة. كان من

الواضح أنّ شيئاً غير اعتيادي يحدث. لم يستطع مايكل أن يخترق حلقة الرجال المتحلّقين أمامه، لكنه انسلّ إلى حيث يمكنه التطلّع من دون أن يلفت انتباه أحد. لاحظ بعد ذلك شخصاً يقف قرب ميزان ضخم. إستطاع أن يميّز ذلك النبيل الشاب. فقد كان كريستيان، إبن الملك الشاب ذا الستة عشر ربيعاً. جفل مايكل، واحتقن وجهه، خطى بسرعة بضع خطوات إلى الوراء مرتبكاً وقلقاً. ظلّت صورة الأمير كريستيان في اللحظة التي شاهده فيها منطبعة في ذهنه ولم تفارقه إلى الأبد. كان واقفاً وساقاه منفرجتان جزئيّاً عن بعضهما، لابساً بنطالاً أبيض ضارباً إلى الخضرة وحذاء أحمر، وكان وجهه شبه مستدير باتجاه مايكل، وثمّة سلسلة ذهبيّة علّقت على كتفيه وامتدّت على صدره. كان يمسك في يده اليسرى عنقوداً من العنب الباهض الثمن وبين الفينة والأخرى يقطف حبّة منه بيده اليمين ويأكلها. كان بإمكان مايكل أن يلمح بوضوح وجهه الناعم اللطيف والظلال الخفيفة التي تلوح حول خدّه، والتي لم تكن سوى مجرّد بداية للحية سوداء. لكن أكثر ما أثار دهشة مايكل كانت عيناه، فقد كانتا ضيّقتين ومنحرفتين إلى الأعلى باتجاه الصدغ، وكانتا تشعان بالذكاء. الجزء الخلفي من رأس الأمير كان ضخماً وحنجرته ممتلئة ومدوّرة. الآن استدار برأسه مومئاً به إلى ذلك المسرور المتزلّف، كونراد فينسن، محيّياً. كان شعره كثيفاً وأحمر قاتم اللون.

آه، لكنني أيضاً أحمر الشعر، فكّر مايكل.

يا للجديّة المرتسمة على وجه هذا الفتى اليافع! كلاّ، ها هو يضحك الآن وعيناه تشعّان بالبهجة. يا لها من رباطة جأش! شيء مدهش! هكذا ينبغي على الإنسان الحقّ أن يبدو. حدّق مايكل حتى دمعت عيناه. تحسّر بعفوية بصوت عال وهو يسلّم نفسه لهذا الإعجاب. ثمّ لاحظ باهتمام ما كان يجري الآن. كلّ الرجال المحيطين بالأمير تحركوا وفق

مشية رشيقة ثمّ توقفوا في وضع أنيق. تقدّم واحد منهم ودفع بتأنّق قبّعته المريّشه إلى الوراء على الأرضية، ثم انبرى واحد غيره وتحدّث مبتسماً إبتسامة واسعة ثمّ انحنى. الكؤوس ارتفعت بشكل رسميّ نخب صحّة الأمير الذي كان يومئ برأسه محيّياً كلّ فرد منهم بنفس الطريقة وذقنه متجه إلى صدره. كان كونراد فينسن يخطو على مقربة منه في حماسٍ متّقد وهالة من المجد تكلّل رأسه.

لكن كان هنالك واحد يتنقّل في المكان على هواه، قزم أحدب في ملابس مبهرجة. كلّما كان يتحدث إليه أحد يقوم بهزّ إحدى ساقيه ويردّ عليه بلباقة مثل فقمة تستند على قدميها الخلفيتين وهي تعوي. كان بإمكان مايكل أن يرى أنه كان دائماً يدفع خدّه اليمين بلسانه حينما يكون قد قال شيئاً. في إحدى المرات ضحك الجميع - حتى الأمير كشف عن أسنانه - حينما بعج القزم بعنف خده الأيمن إلى الخارج. عندها ضحك مايكل أيضاً، فقد كان بإمكانه تقدير ذلك أيضاً. كم كانت الأصوات ها هنا في الداخل مهذبة ومكتومة. ثمّة شمعتان كبيرتان من العنبر تتقدان، وفي الجانب الأقصى من الحانوت أبصر أوتا غيفرسن واقفاً لوحده، ويبدو جلياً أنه كان في مزاج طيب. ومع ذلك، فلم يشعر مايكل بفضول نحوه هذه المرة بالذات.

إستغرق وقوف مايكل ثوجرسن وقتاً طويلاً، وتشبعت عيناه بما فيه الكفاية بالألوان في الحانوت وصور الرجال المبتهجين. أحسّ بأن نوبة الحماس والتأييد لامسته هو أيضاً. حين شرع الرجال بالتحرك إستعداداً للخروج إنسحب مايكل إلى الوراء بسرعة. راقب المجموعة بأكملها تندفع بابتهاج خارجاً إلى الشارع، ومن ثمّ مباشرة باتجاه متجر الثريّ مارتن جالزس، وهنا أمكن لمايكل أن يلاحظ طريقة الأمير كريستيان في المشي.

تسكّع مايكل في المدينة بضع ساعات إضافية، وبعد منتصف الليل بكثير لمح أصحابه الألمان مرة أخرى، ويبدو أنهم كانوا في طريقهم للأنعطاف نحو الزقاق الخلفيّ المشبوه عند الشاطئ دون أن يلاحظوا مايكل، وكان بالإمكان الإستنتاج من أصواتهم أنهم أوغلوا كثيراً في الابتعاد عن المكان. ولم يكن أوتا إيفرسن بصحبتهم.

في اليوم التالي أبصر أهالي كوبنهاغن عربة تنتصب بجميع عجلاتها الأربع عرضاً فوق سقف أحد البيوت العالية المواجهة للميدان. ففي الليل قام أحد ما بتفكيكها قطعة قطعة، سحب الأجزاء إلى السقف ثم أعاد تركيبها هناك. قبيل الظهيرة عرفت المدينة كلّها أن الأمير كريستيان كان هو العقل المدبّر لهذا الأمر.

الحالم

كان الوقت متأخراً حينما استيقظ مايكل ثوجرسن. ظلّ مستلقياً بعض الوقت على سريره قبل أن يفيق تماماً، فقد حلم ليلة أمس حلماً غريباً لكنه لا يستطيع أن يتذكر شيئاً منه الآن.

سقط الضوء من كوّة السقف مباشرة على الغرفة البائسة. وبالرغم من أنّ أوفا غابريل قد مضى إلى محاضراته منذ مدّة ليست بقصيرة فقد كان بإمكان مايكل أنّ يشم رائحته، فضغط على أنفه بقرف.

أيمكن أن يحدث شيء هذا اليوم؟ هل كان الأمر يستحق أن ينهض من فراشه ويعرّض نفسه لقدره مع الآخرين في المدينة؟ تأمّل مايكل مليّاً. في الواقع لا شيء حاسمٌ قد حدث أمس، ومع ذلك فقد كان يشعر بعنف التجربة التي مرّ بها أمس. فقد تركت أثراً عميقاً في دواخله بطريقة أو بأخرى. أضحت القيم كلّها الآن أشدّ انحطاطاً. شعر مايكل بأنه لم يعد بإمكانه تحمّل الوضع الذي هو فيه بعد الآن.

أسند مايكل ظهره على الجدار وظلّ يفكّر. كانت عيناه مثبّتتين نحو الأمام مباشرة. بعد قليل أخذ يفكّر في سوزانا، أرخى رأسه إلى الوراء وأغمض عينيه. لكنّه سرعان ما شعر بعد ذلك بجوع كبير يقرض بطنه، فنهض من مكانه مادّاً يده نحو ملابسه.

لم يكن مايكل ليملك شيئاً، كان يعيش كالعصافير، يحصل على رزق يومه من بركات الآلهة والبشر. وفيما هو يحاول الولوج في بنطاله الجلديّ الأحمر الذي كان يمقته أخذ يفكّر في المكان الذي ينبغي عليه

أن يتسـوّل فيه هذا اليوم، فقرر أن يجرّب حظه فـي الريف، حيث الطلبة ورُعاع المدينة لم يستغلّوا الناس هناك كثيراً.

كان نهـاراً رائعـاً من نهارات مايـس. مضى مايكل مفعمـاً بالحيوية عبر شـارع «نوربورت»، وما أن انبسـطت الحقول أمام ناظريه حتى شعر بالذهول مـن روعة المكان، وبحيـاءٍ إلى حدّ ما تطلّع نحو السـماء. كان الجـاودار الأخضر نامياً بكثافة والأرض أطلقت شـذاها. بماذا سـيذكره هذا الآن؟ لقد كان دِفئاً مباركاً من الشمس.

خطا مايكل على امتداد الطريق، متطلعاً فيما حوله على كل الجوانب. كان ذلك اليوم يوم سعده بالتأكيد، وكان يشعر بالمرح والطمأنينة.

بلـى، إنّه يوم سَـعْده ولم يضع مايـكل وقتاً في الاسـتفادة منه. بعد برهةٍ كان يجلس مستريحاً عند مزرعة تقع على ضفاف البحيرات، مكان مبهـج، قدّموا لـه فيه طعامـاً شـهيّاً دون أيّ سفاسـف أو إذلال. سـكب الفلاحون له شراب شـعير مرغي في قدح كبير إبتهاجاً بزيارته. ربما كان النـاس المتعلّمون لا يأتون هذا الطريق كلّ يوم وهـم يلقون تحيّاتهم في خشـوع. دوّن مايكل تلك الملاحظة في ذهنه. بعد أن أكل وشـرب على نحـوٍ مَلَكيّ بما يكفي لهذا اليوم عاد مايكل ماشـياً إلـى المدينة وهو في سلام مع نفسه. مصمصَ أسـنانه ورمى ببصره نحو السحاب متابعاً طائراً بنظراته وترنّم باللاتينية مناجياً روحه السرمديّة.

فجـأة توقـف مايكل مفكّـراً، لربمـا هذا هـو اليوم المناسـب لفعل ذلك، الأمر الذي كان قد خطّط له منذ مدة طويلة: هل سنحاول مع ينس أندرسـن؟ كان مايـكل يعتمد فـي نجاحه هنـا على كون هـذا الأكاديمي العظيـم قد جـاء مـن ذات المنطقة التي انحـدر هو منها. نعـم، يجب أن يكون ذلك اليوم، فالآن عليه أن يجرّب حظه في ذلك الأمر.

لكن مـا أن قرر مايـكل ذلك وضغط على نفسـه لفعـل ذلك حتى

تدلّى رأسه وفقد رغبته. كانت الهواجس تثقل عليه وهو في طريقه إلى الشارع الذي يعرف أن ينس أندرسن كان يقيم فيه، وما أن توقف خارج الباب حتى تبخّرت كلّ شجاعته، لكنّه الآن في الطريق إلى هناك ويجب أن يعرف ماذا سيحدث إلى النهاية.

دخل مايكل ثوجرسن إلى صالة كبيرة حيث لمحت عيناه ملفّات مُسنَدة على الجدران... ومن هناك نهض ينس أندرسن من خلفِ الطاولة وقدم مسرعاً باتجاهه. كان ينس أندرسن رجلاً قصيراً، بديناً، ذا جبهة ضخمة ويرتدي معطفاً من الجلد. تطلّع مايكل إلى ذقنه الحليق حالما بدأ ينس أندرسن بالتحدّث إليه. كان صوته منخفضاً وفاتراً، فأحسّ مايكل بأنه يتحدّث بنبرة أوطأ لأنّه كان يتحدّث مع فرد من طبقته. ما هي غايته؟ ما هو إسمه؟ فلم يكن لينس أندرسن من الوقت من يكفيه.

عرض له مايكل ما كان يجول في خاطره، وعما إذا كان يستطيع أن يحصل على بعض النصح بشأن ذلك، فهو يودّ أن يسافر إلى خارج البلاد للدراسة... لكن، كما كان دائماً، أصبح ذاهلاً وشعر بالدوار من الأشياء التي تحيط به. أبصر قضيباً طويلاً ورفيعاً من الحديد الأملس معلقاً على الجدار ولم يمنع نفسه من التفكير فيما إذا كان ينس أندرسن يستعمله لربط كلابه عليه في بعض الأحيان. علاوة على ذلك، فقد كان معتاداً على مشاهدة الآخرين يصابون بالدهشة قليلاً حينما يلتقون به، «اللقلق»، لكن ينس أندرسن لم يكن يفعل ذلك، فقد كان صنفاً مميّزاً من الرجال. إلاّ أنّ مايكل في تلك اللحظة ودّ أن يحصل على ردّ الفعل إيّاه، رغم أنّه يعتقد عادة بكونه أمراً مؤلماً جدّاً بالنسبة إليه. وفيما كان يتحدّث عن السفر خارج البلاد تلعثم في كلامه بصورة بائسة، داخَ حينما شرع بالتفكير في روما وكل الأشياء القاصية في الجنوب. لقد كان، رغم كلّ شيء، إبناً لحدّاد من أعالي «ليمفورد»... فقد كانت جذوره من هناك.

همم! خبط ينس أندرسن على الأرضيّة، كان رأسه مائلاً على جانبه. بدا لبقاً ومهذّباً مثل بائع متجوّل. تطلّع مايكل إليه عابساً فلمح عنقاً غليظاً مثل عنق ثورٍ وشعراً مقصوصاً يكاد يصل إلى رقبته. عاد ينس أندرسن يثقبه من جديد بعينيه الكامدتين. كانت نظرته مؤدّبة وغير مبالية ألاّ أنّها ذات قوّة مروِّعة. حاول مايكل الإفلات منها فخفض عينيه نحو حنك الرجل الضخم الحليق. كان جلده أملس ولا لون له، خالياً من أيّ تجاعيد، أسود الأسنان... كان من السهولة ملاحظة أنه كان من جزيرة «يولاند». لم يعد بإمكان مايكل تحمّل تفحّصاته أكثر. وكمثل السحر نظر إلى ناحية رفوف الكتب فرآها تسبح أمام عينيه.

بعد ربع ساعة كان مايكل متوقفاً عند ناصية الشارع. والآن، كيف كانت نهاية الأمر؟ أوه، نعم، فلقد تنحنح ينس أندرسن بلديناك وتلعثم ثم تنقّل بحديثه من موضوع إلى آخر وفي الختام منح مايكل بسماحةٍ فرصة «إمتحان»! فقدّم مايكل جوابه وكأنّه كان يحلم، لكنه استطاع بطريقة أو بأخرى النجاح في استعراض معارفه، ومع ذلك فقد قام بتقطيع عروضي لأبيات من هوراس بشكل خاطئ، فقام ينس أندرسن بالتقطيع في الهواء بيده المشعرة منغّماً: «هكذا: دا دا دا دا!».

إنسلّ مايكل ثوجرسن ثانية خارجاً من الغرفة، مثبطاً وذليلاً مثل كلب مطرود.

وحين تجرّأ ثانية أن يزيح قلنسوته عن منقاره المخزي لكي يستطيع التطلع لما حوله، وجد نفسه أسفل ساحة «هايبرو». وكالعادة، كان الهرج والمرج يعمّان ذلك المكان. وقف مايكل عند زاوية البوابة، كان وجهه مقطّباً وكأنه كان مشاركاً في تداولات خطيرة الشأن. كان في الحقيقة واقفاً شبه غائب عن الوعي، العار والخيبة تجثمان ثقيلاً على صدره، وكبرياؤه الداخلية العظيمة تضطرب مثل حيوانٍ خَطِرٍ. ورغم الأفكار

التي تزدحم في خاطره والتي جعلته يبدو هادئاً مثل فأر، فقد كان يراقب كلّ شـيء يدور حوله. في الواقع، كانت الألوان الكثيفة تتفجر في بصره بسطوع جارح. ثمة عجوز شمطاء تصيح منادية لبيع السمك. كان مايكل يقف هناك مسلوخ الجلد، مسـلوخاً ومرتعداً مثل لحم ذبيحة طازجة في الهواء الفاسد.

أنصِـتْ! ثمّة أصوات أبواق تنبعث من أعلى القلعة تجعل من فروة الرأس تقشعرّ!

نفـض مايـكل نفسـه وواصـل سـيره محطّمـاً تمامـاً. كان الجسـر المتحـرّك منخفضاً من جهـة بوابة القلعة ثم سـرعان ما بـرزت فرقة من الخيّالـة تهدر خارجة فوق الألـواح. كان جميع الرجال مـن رتب عالية. إتجهوا بجعجعتهم نحو الشـارع لينعطفوا بعدها عند الزاوية نحو سـاحة «هايبرو» في خطى سريعة. كانت الخيول وفرسانها تميل أثناء دورانها. يا لعنفوانهم الجذل وهم على سـروجهم! كليك، كليك، السـيوف تتراقص بجنون في أحزمتهم، وعباءاتهم الملونة تلوّح بنشوة في الهواء.

مضـى مايـكل باتجـاه المدينـة. الجنود وضجيـج الخيـول في كل مكان. قدم الفارس سـلينتز شـخصيّاً على صهوة حصان عبر الجادة وهو في كامل درعه. أدار الرجل الحديدي المهيب خوذته إلى اليمين واليسار بأُبّهـة إمبراطور. كانـت مقدمة الخوذة مرفوعة وشـارباه المرعبان يأتلقان تحت ضوء الشـمس. صهل الحصان منتشـياً في بَردعته المزركشـة، فلم يكن كمثل أيّ حصان.

تجوّل مايكل في المدينة صاعداً من شارع وهابطاً من آخر، مستعيداً رباطة جأشـه. عاجلاً أو آجلاً ستنتهي حدود الشـوارع عند الخندق. لقد كان سـجيناً في هذه المدينة الحقيرة البائسة، الموسخة بلزوجة الأسماك وقشور السردين، والمدنّسـة بالمتسـكعين والخنازير عند كل زقاق. رفع

بصره إلى الأعلى متوخياً الحرية في رحاب السماء الفسيحة. كان الهواء رطباً والسحب تجري مع الرياح نحو الأقاصي. إنتقل مايكل بأفكاره نحو البحر المفتوح فعاد هابطاً باتجاه الساحل من جديد.

كانت الرياح نشطة والأمواج تجري بحدّة وتتلاطم. في أعماق البحر الأزرق المضطرب ثمة مركب شراعيّ قلق، كان يشقّ طريقه جاهداً ومنتصباً بلا كلل.

وفجأة، وكأنما انقشع الضباب عن عينيه، تذكّر مايكل حلمه. رأى وكأنه كان مبحراً في أعالي البحار، ثم لمح مشهداً في غاية الغرابة. فبعيداً في الأفق كانت تسطع دعامة بيضاء متألقة، لم يكن حجمها ليزيد عن حجم الإصبع، إلاّ أنه اعتقد بأنّ ارتفاعها كان شاهقاً بمكان لأنها كانت بعيدة عنه بشكل لا يُصدَّق. كانت تنتصب مشرقة باتجاه السماء مثل برج فضّي ناصع البياض. وعلى مسافة رُبْع سماءٍ من مرمى البصر ثمة قبّة منخفضة من زجاج أزرق، لعلّها كانت تمتد لأميال عديدة إذا اقترب المرء منها، وفيما كان مايكل يتفرّس في هذه الرؤيا من على سطح بحر هائج خاوٍ، تهيّأ له أن نهراً عظيماً ينبغي أن يمتد من البحر إلى المدينة، فقد كانت ثمّة مدينة تقع على الجانب الآخر من الأرض.

عاد مايكل ثوجرسن أدراجه إلى البيت. كان متعباً من الحياة، في هذا اليوم على الأقل. لم يأخذ طريقه المعتاد عبر شارع «بيلستغيذه»، فلم يكن يرغب أن يجتاز سياج الأوتاد ليسترق النظر إلى سوزانا اليوم.

ما إن وصل إلى البيت حتى اضطجع على سريره. لم يكن أوفا غابريل هناك. ربما كان خارج البيت يغنّي على درجات السلالم وهو يدحرج عينيه البريئتين في محاجرها. إنطرح مايكل على ظهره بضع ساعات، كانت أفكاره تتلاطم. عند المساء عاد أوفا غابريل إلى البيت بكيس مملوء. نهض مايكل من السرير وخرج من الغرفة دون أن ينبس ببنت شفة.

حين هبط الظلام وجد مايكل نفسه على طريق خارجي يقع خلف بوابة «فيستربورت». تناهى إلى سمعه صوت فارس يخبّ بجواده إلى خارج المدينة بملء سرعته. وما كاد يستدير ليرى من هو حتى كان هذا الفارس قد وصل إليه. لقد كان أوتا إيفرسن. مرق بسرعة خاطفة منحنياً إلى أمام على السرج ومندفعاً باتجاه الريف. تابعه مايكل بنظراته متفرّساً، ومن خطم الحصان إستطاع أن يسمع الأصوات الثقيلة لذلك الركوب الجنونيّ. التراب والحصى كانا يتطايران من حوافره.

من جميع الجهات كانت تضوع رائحة القمح الغضّ والمساء يبدو هادئاً تماماً. كانت الضفادع تغني وتغني في أحلامها السرمديّة.

بعد مضي ساعة كان مايكل يتمشى عائداً باتجاه بوابة «نوربورت»، سمع وقع حوافر خلفه ثانية فتوقّف ليشاهد أوتا إيفرسن يهدر عابراً مرة ثانية، مندفعاً باتجاه المدينة.

بعد مضي بضعة أيام تسلّم مايكل ثوجرسن، المعروف كذلك بإسم «اللقلق»، فجأة وبدون إنذار تبليغاً بطرده من جامعة كوبنهاغن. لم يأت ذلك كمفاجأة له، فهو على أي حال أهمل مواظبته على حضور القدّاس منذ زمن طويل. في نفس اليوم كان أوفا غابريل ينظر إلى مايكل كما لو كان رجلاً آخر من الشارع لا غير.

لكن رغم المقاساة المكتومة التي كان يعانيها ضميره، فقد شعر مايكل بالإنعتاق. كان أوّل شيء يفعله بعد ذلك هو إطلاق لحيته. ألاّ أنّه في الأيام التالية، مسحوقاً تحت وطأة التعاسة، الحاجة، الوهم والخوف، سمح لنفسه فعلاً بتربية شاربين أحمرين بلون فراء الثعالب أيضاً، زوجان كثّان كانا يغطيان فمه وطرف كل واحد منهما يمتدّ على زاوية منه نامياً بعناد نحو الأسفل.

آلام الربيع

كلّ ما يعرفه مايكل عن سوزانا هو أنها كانت أحد سكان بيت يعود لرجل يهوديّ عجوز يدعى مندل سباير، ربّما كانت إبنته. كان يعرف إسمها منذ مدّة طويلة قبل أن تلمحها عيناه في الحديقة هناك. مرّات عديدة ظهرت هناك كتابة بالطباشير على زاوية البيت ترافقها رسوم غير مهذّبة. الإسم والرسوم عادة ما كاد يتمّ محوها حتى تظهر من جديد ليعاد محوها بسرعة مرة أخرى. ذات يوم أبصر مايكل اليهوديَّ العجوز قادماً، وقبل أن يلج من الباب ترك بصره يسرح صوب زاوية البيت، لكن في ذلك الوقت لم يكن هنالك شيء.

كان اسمها سوزانا، وكان مايكل قد رآها بوضوح مرّتين، ومنذ ذلك الحين لم يجرؤ أن يتسكّع بعدها خارج البيت. كان معتاداً أن يخرج إلى ناصية الشارع مثل أيّ شخص في طريقه لإنجاز عمل ما، وبعد ذلك، حين يكون قرب السور يرنو بنظره إلى الداخل كما لو أن الأمر قد حدث عَرَضاً. في بعض الأحيان أمكنه أن يلقي نظرة خاطفة ويلمح سوزانا التي عادة ما تكون خارجاً تتمشّى في الممر المكسو بالأعشاب وقت الظهيرة وعند المساء.

كانت الحديقة مغطاةً بالأعشاب، المقدونس الفارع، والفجل البرّي. أشجار التفاح العتيقة كانت تميل بجذوعها يَمنةً ويَسرة. في الزاوية البعيدة المطلّة على الشارع ثمّة شجرة بيلسان ضخمة وكثيفة تصل إلى السقف. كان لدى مايكل شعور بأنّها تشكّل عريشة على جانب الحديقة

وأن سوزانا تجلس هناك في بعض الأحيان. تناهت إلى سمعه خشخشة تصدر من وراء الأوراق. ربما كانت سوزانا تجلس هناك مختبئة وتنظر إلى الخارج. لم يكن مايكل يحبّ تلك الشجرة إلى حدّ ما، ومع ذلك فهو يشعر بأنه منجذب إليها لأنه يتصور أن سوزانا ربما كانت هناك.

في المساء، حين رجع مايكل مارّاً من هناك لمح بصيصاً من الضوء في النافذة التي في أعلى الجملون المطلّ على الحديقة. في الليل كان الضوء قد اختفى حينما اجتاز مايكل من هناك وتطلع إلى فوق.

على الجانب الآخر من بيت مندل سباير، وبعد مسافة قصيرة يقع دير سانت كلارا، وكانت هناك زاوية معتمة يحبّ مايكل أن يقف فيها ساكناً في المساء وعند منتصف الليل. فقد كان يبصر النافذة من هناك.

وقف هناك في ساعة متأخرة من مساء أحد أيام عيد العَنْصَرة بعد أن حلّ الهدوء على المدينة، فما أن أشرقت الشمس حتى ابتدأ المهرجان. إحتفلت المدينة كلّها بالعيد عبر الموسيقى، الرقص، الشرب والضجيج. وفي الخارج، في الحدائق التي تقع شمال المدينة كانت سواري النوّار، التي يرقص حولها المحتفلون، كثيفة مثل غابة. كلّ الأرواح مباركة سعت أسراباً إلى هناك، حيث الطعام والشراب الوفير. أطلق الجنود الألمان حبلهم على الغارب في هذه المتع الإستثنائية، ربما لشحذ معنوياتهم البهيميّة قبيل الذهاب إلى الحرب.

تجاسر مايكل ثوجرسن على الإلتحاق بهذا الحشد المبتهج، لكن سرعان ما تناهت إليه صيحات شماتة مصحوبة بقهقهات. كان الفتيان يعرفونه، وعلاوة على ذلك فقد كان قد خلع عنه عباءته الجامعية وقلنسوته فكانت ساقاه الحمراوان باديتين بكل طولهما الخرافيّ للعيان. جعل منه الفتيان رمزاً دينيّاً حقيقيّاً وهم يرقصون حوله منشدين أغاني الشكر. هرب مايكل منهم متعثّراً وخبّأ نفسه في مقبرة كنيسة سانت

نيكولاس. هنالك إضطجع طوال النهار في زاوية وارفة بين القبور مكسوّة بالأعشاب، تاركاً للشمس أن تسطع عليه. هنا كان المكان هادئاً، الطيور تزقزق والذباب يطنّ هنا وهناك. ثمّة حدأة ظهرت من ثقب في أعلى البرج وطارت باتجاه الريف. إضطجع مايكل مضطرباً على ظهره، غاطساً في عمق الحشائش والأعشاب. كسر بعضاً من سيقان النباتات التي كانت نامية عند رأسه فلحظ عصارة صفراء تنبثق منها، وضع نبتات غضّة في فمه وأخذ يلوكها، بعدها شرع بلفّ وريقات الأعشاب على بعضها بأصابعه لقتل الوقت. كانت المدينة حيّة وضاجّة من حوله وبين حين وآخر كانت تصل إلى سمعه صيحات الإبتهاج قادمة من البعيد.

ومع هبوط الظلام إنسلّ مايكل باتجاه المدينة واحتال لنفسه كي ينالَ وجبة طعام في مزرعة متواضعة. كلّ لقمة إبتلعها كانت تذكره بخداعه، فهو لم يعد تلميذاً بعد الآن.

والآن ها هو يقف هنا في ليلة هادئة وباردة. المدينة غطّت في النوم، لكنّ مايكل بقي مستيقظاً مثل طنين عميق يظلّ معلقاً في الآذان بعد أن تصمت جميع الأصوات. كان الليل مفعماً بالشّذى المنبعث من الحدائق المندّاة وكان الضوء ساطعاً جداً، فالقمر كان صاعداً ويسطع من جهة الشرق فوق الحديقة.

بدا وكأنّ أحداً قدم من أعلى الشارع، سمع مايكل الخطى تخبط مقتربة، إعتقد في البدء أنها كانت للحارس الليليّ، لكنه إستطاع تمييز إيقاعها عن خطاه. لم يكن مايكل يودّ أن يشاهده أحد بهذا القرب من منزل مندل، لذلك خطا إلى خارج الظلال ثمّ سار الهوينى إلى أسفل الشارع. وما أن اقترب من شارع «أوسترجاذه» حتى شعر بأنّ الشخص الذي خلفه كان يتابع خطاه. فجأة أصبحت الخطى أسرع ثمّ أحسّ مايكل بربتةٍ على كتفه. إستدار وتطلع إليه بدهشة، فقد كان أوتا إيفرسن.

إذن فقد تعرّف عليه رغم كلّ شيء، لكن ماذا بعد الآن؟

«مساء الخير»، قال له أوتا إيفرسن برقّة وبنبرة حميمة. «ألستَ مايكل ثوجرسن؟».

«نعم، أنا هو».

«لقد كنا خارجين معاً منذ وقت قريب في «سريتسليو»، كما التقيتُ بك بعد ذلك أيضاً. أراك تتنزه هذا المساء، ألست كذلك؟ يا له من طقس رائع! لا أدري فيما إذا...».

كان أجشّ الصوت ودمثاً بشكل غريب، وكأنه كان وحيداً لمدة طويلة. كان واقفاً بهدوء ورأسه منحن جزئيّاً في إرتباك. وقد لامس الضوء الليلي الواهن رأس خنجره.

«نعم، فالطقس الآن أروع من أن نقضيه في النوم»، قال مايكل.

«هل تسمح، مادمت تتنزّه الآن، أن أرافقك في المشوار؟».

لم يكن لدي مايكل إعتراض على ذلك، فمضيا سائرين على امتداد شارع «أوسترجاذه» إلى داخل المدينة.

«لست أعرف أحداً آخر في هذه المدينة»، واصل أوتا إيفرسن حديثه، «أعني من الدنماركيين».

«أوه، لا!»، فكّر مايكل في أن ذلك لأمر قابل للتصديق إلى حدّ بعيد، فصمت. ثم مشيا على طوال الطريق صاعدين باتجاه كنيسة «سيدتنا» دون أن يقولا شيئاً.

«أحم»، تنحنج أوتا غيفرسن لتصفية حنجرته. «أتحبّ أن تعود معي إلى مأواي وتتناول قدحاً من الشراب الفرنسي؟». صار يتحدث الآن بنغمة أخرى، فاترة، وتبدو كئيبة.

لم يجد مايكل بداً من الموافقة، فذهبا إلى مكان عند شارع «فيسترجاذه» حيث الحي الذي يقيم فيه أوتا إيفرسن. كان منزله قريباً.

«لا يمكننا الدخول إلى البيت من دون إيقاظ الآخرين لفتح الباب»، تمتم أوتا إيفرسن لنفسه، «لكنّ لدي إبريق من الخمر في المكان الذي يوجد فيه حصاني».

مضيا سوية عبر الفناء الذي تغمره أشعة القمر ووصلا إلى كوخ كبير نصف مسقوف. دفع أوتا إيفرسن الباب ليفتحه. «إنّه أنا، أوقد لنا شمعةً»، قال ذلك حين وثب غلام الإصطبل من سرير القش الذي كان ينام عليه.

حين أضاء الشمعة رنا الغلام إلى مايكل بطرف عينه. كان إصطبلاً كبيراً إلاّ أنه لم يكن هناك غير حصان واحد فقط، كان واقفاً في إحدى الزوايا هناك. سار أوتا إيفرسن نحو حصانه وربّت عليه وشغل نفسه به لبعض الوقت.

«من الأفضل أن تعود إلى الفراش»، قال ذلك لغلام الإصطبل. مضى إلى الزاوية وتناول كوزاً خشبيّاً، فتح غطاءه، ونظر فيه.

«بالمناسبة، أنا أقضي معظم وقتي هنا مع حصاني... أيمكننا الجلوس على جُرن المعلَف؟ ما تزال هناك جرعة في القاع الواسعة للكوز، وهي كلّ ما تبقى لنا، تفضل!».

شرب مايكل، وكان طعم المِيد القويّ المستخلص من العسل لذيذاً بشكل كبير. ما أن انساب في داخله حتى شعر بالدفء يدب في أوصاله بسرعة. شرب أوتا إيفرسن بعده جرعة كبيرة ثم جلسا جنباً إلى جنب على الجرن. كان غلام الإصطبل، الذي عاد وألقى بنفسه على القشّ، غارقاً في نوم عميق. الحصان يقضم من المعلفة ويلوك بطمأنينة. قطعة الشمعة تحترق في ممسكتها على الجدار، وثمة هدوء مميت في أنحاء المكان. كان الفناء يرقد أبيض مثل ثلج حديث العهد تحت ضوء القمر. لقد تجاوز الوقت منتصف الليل.

إختلس مايكل النظر نحو أوتا إيفرسن. إنه يشعر بمزيد ومزيد من الغرابة في جوده، لكن لا شيء كان يبدو ظاهراً على قسماته غير إستغراق كئيب. كان يضغط بشفتيه على بعضهما بعضاً ويحملق في الأرض.

أخيراً قفز أوتا إيفرسن من مكانه وهو يقول «خانق هذا المكان، ألا نذهب ونعود إلى الخارج؟ لكن دعنا ننهي شرابنا أوّلاً».

أفرغا الكوز ومضيا خارجاً. دفع أوتا غيفرسن الباب ثانية لإغلاقه. بعد دقائق قليلة كانا في الخارج قريباً من سور المدينة. إنعطفا إلى الميمنة وتمشيا بمحاذاة السور لبرهة من الوقت دون أن يقولا شيئاً.

لكن أوتا إيفرسن لم يعد يمكنه مواصلة الصمت. «آه، نعم!»، نطق فجأة بنبرة ممازحة. تطلع مايكل إليه فرآه يرفع وجهه المبتسم نحو ضوء القمر. «ها نحن هنا، متنزّهين نمشي في هذا الطقس الجميل من شهر مايس. ربما بعد أربعة عشر يوماً سيكون كلّ شيء قد انتهى، ضوء القمر والمساء».

مندهشاً، تطلع مايكل نحو الجندي الشاب، الذي توقف قليلاً وكأن القشعريرة قد حلّت عليه.

«هل تعتقد بأنني خائف من الحرب التي نحارب فيها الآن؟»، سأله [illegible]ا إيفرسن وهو يعاود سيره من جديد. «بالتأكيد لا أظنك تعتقد ذلك. لكن قل لي... حسناً، هل أنت متزوج؟ أو ربّما أنت خطيب لإحداهنَّ؟».

«آه، كلا»، ردّ مايكل هازّاً برأسه وهو شبه مرعوب.

«هل يمكن أن تتخيّل نفسك خطيباً وعليك أن تذهب إلى الحرب؟ أنا خطيب. لقد غادرت فتاتي، وقبل أن أغادرها وعدتني بأنها ستكون في انتظاري وكأنّ الأمر لن يطول».

لم يتجرأ مايكل على القيام بحركة، فقد أصبح متكدراً بسبب ذلك الإحراج والتوتّر اللذين كان أوتا إيفرسن، بلا شك، يقاسي منهما.

«كان إسمها آنا ميتا»، قال أوتا إيفرسن ذلك بهدوء بعد برهة صمت قصيرة.

إنحدرا في الصمت، لكن أوتا إيفرسن تكلّم من جديد، كان صوته دافئاً وواهناً. كان ذلك بسبب ذكره لاسمها قبل قليل.

«أنا في الأصل من أعالي «يولاند»، من عِزبة صغيرة على ضفاف «ليمفيورد»، سعل مضطرباً وانتظر إلى أن عاد صوته إلى ثباته مرة أخرى. توفي والدي منذ سنين عديدة فامتلكت أمي العزبة بعد ذلك». تردّد قليلاً، مفكّراً بعمق فيما إذا كان عليه مواصلة الحديث.

شعر مايكل بأنّ عليه أن يبوح له بأنّه يعرفه. لكن أينبغي عليه ذلك حقّاً؟ لقد تجنب إرباك أوتا إيفرسن في الماضي بعدم فعل ذلك. بقي صامتاً.

إجتازا بوابة «نوربوت». توقّف الحارس، الذي كان يتخبتر جيئة وذهاباً حاملاً مِطرَده[1] على ذراعه، وتفحّص بريبة هذين الساريين.

«لقد عرفت... عرفنا بعضنا منذ أكثر من خمس سنين»، قال أوتا إيفرسن «منذ أن كنت صبيّاً. لم تكن أمي تعرف شيئاً عن ذلك. لقد حدث ذلك بشكل غريب جداً. لقد كنت أعشق الإبحار في الخليج على متن قارب صغير كنت أمتلكه، وبهذه الطريقة كنت أستطيع الوصول حتى أسفل الساحل. كانت تقطن هناك في منزل يقع في أسفل المضيق البحريّ وكان أبوها سمّاكاً. هناك لمحتها أوّل مرّة. كانت في الرابعة عشرة من العمر وناضجة تقريباً. بعد ذلك الحين رأيتها مرات عديدة. بعد ذلك حدث أن كنا نصطاد السمك عند فم الخليج ذات مرّة، حيث

(1) المطرد: سلاح قديم مؤلف من رمح وفأس حرب. (المترجم)

استطعت أن آخذها معي في نزهة بالقارب حينما كنت هناك».

صمت أوتا إيفرسن برهة ليستعيد أنفاسه. كان مايكل يعرف ذلك السمّاك جيداً، لقد كان ينس سيفرستن بالتأكيد. أما آنا ميتا فقد كان يراها تقريباً كل يوم، لكن حينما كانت فتاة صغيرة. كانت ذات شعر أشقر ولون أحمر وأبيض مثل الأطفال الصغار. لكن... لكن ما مغزى هذا كله؟

«ثم فجأة، حينما كنا نتطلع فيما حولنا، إنتبهنا إلى أننا قد انجرفنا بعيداً عن اليابسة»، قال أوتا إيفرسن مواصلاً حديثه في انفعال كبير. «لقد لاحظت أننا كنّا في العمق حين كنا مضطجعين في القارب نحدّق في الماء، لكنني لم أفكّر فيه. ساقنا التيار بعيداً عن الساحل. إختطفتُ مُرديّاً[1] أكان في المركب ودفعته في الماء لتحريك القارب لكنه لم يصل إلى القاع!».

هزّ أوتا ايفرسن رأسه بتوتر.

«كانت الرياح تهبّ من جهة الساحل ولم يكن بمستطاعنا رؤية أحد. ينس سيفرستن، السمّاك، يقطن بعيداً عن الساحل، كما أنه لم يكن في البيت آنذاك. ماذا كان علينا أن نفعل؟ في البدء كنا خائفين لدرجة أننا لم نكن نستطيع التفوه بكلمة واحدة، ولا حتى صيحة واحدة لكي نطلب النجدة. لكنني، حينما رأيت القارب يواصل الإنجراف بعيداً عن اليابسة، صرخت بكل ما استطعت من قوّة، بعدها انهرنا نحن الإثنين وانفجرنا في نوبة عارمة من البكاء. كان القارب يتمايل ويهتزّ، فقد كنّا نتقافز في داخله من فرط اليأس. لقد كانت إعجوبة أن القارب لم ينقلب بنا في الماء، فلم أكن أحسن السباحة آنذاك. والدي توفّي وأنا صغير، لذا فقد كنت متأخّراً في تعلّم كل شيء. حسناً، في النهاية أصابنا التعب من الصراخ بصوت مبحوح. حقيقة أننا لم نكن على درجة من الذكاء في

(1) المرديّ: عصا طويلة يدفع بها الزورق وهي غير المجذاف.

تلك الحقبة من العمر. جلس كل واحد منا على مقعد التجديف وظللنا ننتحب وننتحب، ومن وقت لآخر نتطلع إلى ما حولنا ونرى الشاطئ يصغر ويصغر مبتعداً عنّا، فواصلنا الصراخ من جديد إلى أن تقطعت أنفاسنا وأدركنا الإعياء. لقد كان ضياعاً مروعاً. كان ينتابنا النعاس بين الفينة والفينة لأنّنا بكينا كثيراً. على أي حال واصلنا الإنجراف إلى البعيد، وفي النهاية وصلنا بطريقة أو بأخرى إلى شبه جزيرة «سالنج» التي تقع على الناحية الأخرى من الخليج».

زفر أوتا إيفرسن بعمق.

«في نفس اليوم أعادنا أحد السمّاكين إلى مكاننا من جديد. ثم مرّت أربع سنين علينا قبل أن نستطيع عقد خطبتنا. كان ذلك في الربيع الفائت، إلاّ أننّا نضجنا كثيراً منذ ذلك الحين».

صمت قليلاً وواصلا سيرهما إلى مكان مفتوح يغمره ضوء القمر عند السور. أشار أوتا إيفرسن إلى أحد الأحجار «هل يمكننا الجلوس قليلاً؟».

جلسا معاً. كان لدى أوتا إيفرسن الكثير ليقوله، فجلس مفكراً. لم يكن مايكل يعرف ماذا عليه أن يقول، كان يرى كم يجلس السيد أوتا مضطرباً وهو يتحسّس أحد الفتوق على ركبته. ليس هناك فرق بينه وبيني، فكّر مايكل، نحن في نفس الحال، صنوان في كل شيء.

«لكن يجب ألاّ أحصل عليها»، قال أوتا بعد ذلك بصوت كسير، شارد، مكابر. «وقفت أمّي ضد الخطوبة لأنّ آنا ميتا كانت أدنى مرتبة مني. سوف لن أحصل على العِزبة إذا ما واصلت الأمر، بعد ذلك سمعت أن الملك يستعد للحرب، فإذا تحتّم عليّ البدء من الأسفل فإنّ في ذلك مخرَجاً».

إنتهى الآن أوتا إيفرسن من قول كل ما أمكنه قوله، أما بقية الأمور،

كالتوق الذي يتآكله شوقاً للفتاة التي بالكاد يستطيع لفظ اسمها بفمه، فقر الدمّ الذي يعاني منه، فقد أدركها مايكل بتعاطفه الوجدانيّ.

«من يعرف مـاذا يخبّئه الحظّ للإنسـان؟»، قالها أوتا إيفرسـن بنبرة متعَبة. أحنى نفسه إلى الأمام جامعاً يديه بين ركبتيه.

«العزبة عتيقة ومتهدمة»، واصل بصوت أجشّ. «لا شيء يسير وفق نظام»، أطبق شدقيه ثنم تثائب بصوت عال. «دعنا نذهب!».

مضيـا. كان القمـر شـاحباً فـي السـماء، فالشـمس توّاقـة للقدوم، وثمـة ضباب شـفيف، ورديّ أخذ بالإنتشـار حـول المدينة قبيـل الفجر. شـعر مايكل بأنّ أوتا إيفرسـن قد نـدم على بوحه له، فمـا لبث أن ودعه وانصرف.

لـم يكـن لمايكل مـكان يذهـب إليـه، فمضى إلـى مقبرة الكنيسـة واضطجـع في زاوية منهـا، كان الضوء كافياً. ما أن بزغت الشـمس على المدينة حتى غطّ مايكل في نومه هناك.

مايكل ينتكس

عند الظهيرة، حين جاء الدفّان إلى المقبرة وأبصر الجسد الطويل مستلقياً هناك بلا حراك على الأعشاب، توجّه صوبه معتقداً أنه أحد الموتى، لكن الرجل كان نائماً فقط وجفناه يختلجان تحت أشعة الشمس.

حلم مايكل أنه كان يتسلّق جبلاً عظيماً شديد الإنحدار، متخبّطاً لوحده في أعماق الثلج الهشّ. لكنه حين استطاع الوصول إلى القمّة تقريباً جلس ليستريح حيث لم يعد بإمكانه مواصلة الصعود. عالياً فوق رأسه كان المرتقى ينحدر صوب اليسار، ولكي يتسلق مسافة قليلة فقط إلى الأعلى كان عليه أن يدور في طريق طويل يلتفّ حول الجبل. صرف فكره عن الأمر وجلس زارعاً ساقيه في الثلج، فلقد انتهى كل شيء. بدت مرقاة الجبل وكأنها تشتعل من أعلاها بسبب عاصفة الثلج، كلّ ندف الثلج البلورية التي على الجبل كانت تندفع إلى هناك صاعدة من القاع. أسفل المرتقى كان ثمّة طابور طويل من الصبايا في معاطف سود، وفيما كنّ يكافحن لشق طريقهن بمرح شرس عبر عاصفة الثلج المحتدمة كانت معاطفهن تتطاير جانباً بين حين وآخر، كانت أجسادهن ناصعة وحمراء اللون إلى حدّ ما من شدّة البرد. كنّ يواصلن النزول في طابور لا نهائيّ طويل، بعضهن كان يبتسم والبعض الآخر يضحك. جميعهن يشبهن سوزانا رغم أنها لم تكن واحدة منهن.

حينما استيقظ مايكل بعد الظهيرة كان مضطرباً. يتذكّر الحلم

بوضـوح. أحسَّ أنه لن يرى سـوزانا ثانية، رغم شـعوره بأنهـا كانت هي قَدَره. سـتنقلب الأشياء ضدّي، فكّر مسـتطيراً، مليئاً في أعماقه بالخوف. خيّمت التعاسـة على قلبه، فرغم أنه توقع لنفسـه سـعادةً أكبر من سعادة الآخرين إنهار فجأة كلّ شـيء على رأسـه مثل رؤيا قاتمة، كئيبة يشـاهد فيها أنه سيلقي حتفه على يديه.

ليس بعيداً عن الرابية التي تقع خارج بوابة «فيستربورت» تقع حفرة القصّـاب. وفي هذا الوقت من الصيف تكـون مغطّاة بالضباب في أغلب الأحيان، حتى لا يمكن رؤية الجِيَف التي في أسـفلها. على الحافة، التي تقـع قريبة من الطريق، نصب القصّاب سـارية وضع فـي أعلاها جمجمة حصان ليحذّر السـابلة مـن الوقوع في الحفـرة. كان مايـكل كثير العبور مـن هـذا المـكان، فلقد فضّـل أن يقيـم في مقبـرة الكنيسـة التـي كانت مكاناً مناسـباً ليعيش بسلام بعيداً عن الآخرين. شـيئاً فشيئاً أحسّ مايكل بحميمية غريبة تجاه هذا الرأس المنصوب على السـارية. لقد شعر، كما تراءى له، بشـيء مشـترك يربطه بعظمة الرأس الميّتة، العـزلاء هذه. كان شدقا الجمجمة مفتوحين وكأنهما كانا في صهيلٍ متواصل، لا صوت له، قادم من جهنم. محجراها تحدّقان، أسنانها المكشوفة كانت تستحضر نار الشـيطان الأبديّة. حتى خطمهـا، كان يبدو وكأنها متلهّفـة للطعن بعظمته الشريرة. ومع ذلك، فقد كان مايكل صديقاً سرّياً لهذه الجمجمة.

ذات مسـاء صادف مايكل القصّاب مشـغولاً بسلخ إحدى الأفراس التي ماتت بشـكل طبيعي. بدأ يتحـدث معه، لكن جيرك لـم يكن ليعيره أدنى اهتمام منذ زمن بعيد، فقد كان جيرك رجلاً صموتاً. على بعد مسافة قصيـرة من المـكان كان يقع كوخـة. على أيّ حـال، فقد تنـاول مايكل، ذلك المسـاء، لحم حصان على مائدة القصّاب، ومنذ ذلك الوقت إنضمّ إليه بضع مرات لمساعدته في شـغله، فلقد برهن هذا الرجل الليليّ على

أنه يمتلك شيئاً من الحكمة في طبيعته الصامتة، فبدأ مايكل ينظر إليه كصديق.

ذات مرّة، حين كانوا يسلخون جلد أحد الخيول، بقي مايكل جالساً طويلاً، سكّينه في يده وغارقاً في تفكيره.

تذكّر عندما مرض حصان أندرس جرو وأخذ بالاحتضار، يوم كان في منزله قديماً. رغب أندرس جرو أن يتخلّص من حصانه فأطلق نحوه على الفور سهماً من نشّابه أصابه بين عينيه، فيما كان يعضّ على الثلج في نفس اللحظة. إلتقطت الأرض رأسه أولاً، ثم انهار الجسد بعد ذلك حالما فتر التوتّر في عرقوبيه. نعم... نعم، فالأرض تعرف كلّ شيء رغم ما يعتقد أنها تظلّ صامتة. لدى كلّ منا طريقه الخاص لبرهة من الزمن، وكلما كنا سعداء رقصنا عليها. لكن كل الكائنات خُلقت ضد الطبيعة، على الرغم من قانون الجذب. بل وحتى أن الإنسان سار منتصباً على الأرض خادعاً الجاذبيّة بزوج ساقين. لقد سمّن الربّ الكائنات الحيّة لكي تسقط بصورة أقسى على الأرض، لأنّ الموت والحياة وجهان لعملةٍ واحدة، أمّا الأرض...

لمح مايكل طفلاً رضيعاً، لا حول له ولا قوّة، منطرحاً عند قدميه على الأرض، كان المشهد في ذهنه واضحاً. كان منطرحاً على ظهره كالجنين، أطرافه مثنيّة، إلاّ أنها كانت تنمو بسرعة أمام ناظريه، لدرجة أنه لم يكن يستطيع متابعتها كلها في الوقت نفسه. الآن ثمّة عينان مفتوحتان على وسعيهما وتتطلعان إليه. الذراعان ممتدتان بيضاوين وناعمتين على جنبيه، أُنظُر إلى الطول الذي بلغته ساقاه! ظلال من الحزن تطفو على قسمات وجهه الآن، وثمّة إبتسامة تحلّق على ملامحه، ثمّ حيرة عذبة، خوف، إرتباك. اليدان أصبحتا الآن كبيرتين وسمراوين. حين ينظر إليه من أخمص أصابعه حتى رأسه، تتأرجح اللحية مثل سحابة سوداء تحت

الحنك، الجبهة مقوّسة من الألم. ها هو الآن رجلاً ناضجاً، يقف صامتاً مشغولاً بدواخله، وها هو قد صار شيخاً منذ الآن. لحيته أضحت رماديّة، شعره تلاشى، ركبتاه تطعنان الهواء. كلّ شيء تغضّن، اللحم يذبل تحت الجلد، وفجأة يبرز الإطار الأسود محيطاً بعمر يدعو للرثاء، لمحة لساق شاحبة، وغطاء التابوت يُطبقُ تحت مطر من تراب.

نعم، الأرض تستدعي أهلها، تطرحهم أرضاً وتمدّدهم على أديمها. نلْ ثقباً واحداً فقط في أيّ مكان فيك وستطقطق أضلاعك على الأرض، ستتذوق التراب مثل جذع ذبلت جذوره في مكانه.

... بعد أن صوّب أندرس جرو على الحصان استدعى القصّاب ليعالج الأمر. قام بجزّ رقبة الحصان وقطّعه إرْباً إرباً فوق الثلج في الخارج، فيما كان مايكل واقفاً يراقب ذلك.

حدث ذلك مبكراً ذات فجر صقيعيّ ما زال يغمره ضوء القمر. كان الثلج يمتدّ لأميال تحت ضوءٍ شمعيٍّ باهت، قمريٍّ من جهة الغرب، ثمّ يمتدّ مدثّراً المروج بلون ضارب إلى الزرقة ويتقوّس فوق التلال ببياض باهت. لم يكن باستطاعة أحد التمييز بين الضوء الشاحب وبين الأرض المدّثرة بالثلوج. كان البرد قارساً لدرجة أن الثلج كان يقرقع متكسراً بصوت مسموع تحت الأقدام، والأصابع متنمّلة وكأنّ حامض الأسيد قد قُطِّرَ عليها. لكن عبر المرج المتجلّد، حدّ الموت، كان ثمّة جدول ينساب، مفتوحاً وأسود، حيّاً بما لا يمكن بَرؤه.

قلب القصّاب حصان أندرس جرو على ظهره وشرع بشقّه. كان الدم يتدفّق مشكّلاً بِركة صغيرة، قهوائيّة اللون، تتسرّب ذائبة إلى داخل الثلج، ثمّ سرعان ما تستحيل رغوتها القرنفليّة إلى جليد. مع كلّ حزّة سكين كان اللون يتدفّق من جثة الحصان التي يتصاعد منها البخار. كان اللحم ينفلق بألوانٍ مدهشة من الأزرق والأحمر. كانت الشرائح تواصل

الانتفاض، متشنّجة وهي ترتعد في الهواء المتجمّد. العضلات المقطّعة تتلوى كما تتلوى الديدان من لسع النار. القصبة الهوائية الطويلة كانت مطروحة للعيان. أسنان الفكّين برزت مرئية مثل أربعة سطور غامضة الحروف. بدا الغشاء الأرجواني الرهيف، مشكّلاً مع أوردةٍ زرق لا تحصى، مثل أرض غزيرة الأنهار نتطلّع إليها من الأعالي. حين تمّ شقّ الصدر بان وكأنه كهف، غشاء أبيض مزرقّ معلّق هناك، وثمّة دم بنّي، أحمر داكن يتدفّق من ثقوب صغيرة في الجدارن المُعرَّقة. الشحم الذهبيّ كان ممتدّاً من السقف حتى الأرضيّة في عناقيد مستطيلة مقطِّرة. الكبد كان أكثر بُنّيةً من كل ما هو بُنّيّ في العالم. ثم ظهر الطِّحال، أزرق ومبرقشاً، كأنّه الليل ودرب التبّانة. وكانت هناك العديد من الألوان المتألقة، الأمعاء الزرق والخضر، الشرائح القرميديّة الإحمرار والصفار الترابيّ.

كلّ ألوان الشرق الخصبة، المبهرجة، الذهبيّة مثل رمال مصر، اللازورديّة كالسماء المنبسطة فوق الفرات والنيل. كلّ ألوان الهند والشرق الغزيرة كانت تتفتّح هناك فوق الثلج تحت سكّين القصّاب.

سقطة أوتا إيفرسن

أخـذت كوبنهاغن تكتظّ بالناس أكثر فأكثـر، بكلّ ما يمكن للطقس الدافئ أن يجلب على جناحه. قدم النبلاءُ برفقة خدمهم وأناخوا الركاب في كل ناحية. الفلاحون الذي تمّ اسـتدعاؤهم إلى المدينة كانوا يقدمون جماعات كل يوم. كانت المدينة تتعرّق اسـتعداداً للحرب. هكذا تحدث الأشـياء إعتباطـاً وبـدون تحضيـرات مسـبقة، كلّ صيـف يأخـذ السـوق بالهيجان ويصطخب باسـتعدادات الجيوش. في الميعـاد الذي تتفتح فيه أزهار الجاودار، يجلس الفلاحون على مساطب كوبنهاغن حشوداً، وكل واحد منهم يربض بارتياب عند صرّة طعامه. كعكات الدقيق الكبيرة التي تمّ جلبها من المناطق المحيطة بمدينة «رينجستيذ» أو من «هيملبيرجت»، كانت مشوّهة من طول التخزين. السمك المملّح من سواحل «بلوفاندس هـوك» التهمته تلك المجاميع مع اللحم المقـدّد المجلوب من المراعي. الخيّالـة، الألمان، النبلاء الشـباب، الجميع كانوا ينتشـرون في الشـوارع من الصباح حتى المسـاء. إنه شـهر يوليو، الوقت الذي تكون فيه حشود الرجال والسـفن على أهبة الاسـتعداد، ففي هذا الوقت من كل عام كان الملك يقوم باجتياح السويد.

في المساء الذي سبق مغادرة الجيش إنحنى مايكل لإلتقاط شريحة مقدّدة من لحم الخنزير كان ملقية علـى الطريق، ثمّ على مقربة منها عثر على جِلدة نقانق. كان في طريقه للذهاب إلى المدينة لغاية معينة، حاملاً على صدره نقشاً كان قد كتبه هذا الصباح.

فيما كان مايكل يسير مجتازاً إحدى السلالم العالية شعر بعصا هوت على رقبته. كان ثمّة رجل أنيق الملبس يقف عند عتبة بابه لاستنشاق هواء المساء، إقترب مايكل منه جدّاً، تلت ذلك بضع كلمات غضبى. إرتعش مايكل، فقد أصابت الضربة الجزء الموجِع من عموده الفقريّ. تقدّم بضع خطوات، منذراً ربّما بما يضمر في سريرته، ثم فجأة استدار على عقبيه واختطف الرجل، الذي كان فوق، من قدميه ثم سحبه إلى الأسفل بعنف فظلّ معلّقاً وهو منفرج الساقين على أحد أعمدة الدرابزين. أطلق الرجل صرخة عالية وأُغمي عليه، فهرع مايكل نحو الزاوية ليختبيء.

أوه، أنظروا هناك إليه! كانت الأصوات تصل إلى مسامعه من الجهة الثانية من الشارع. «إلحَقوه!»، كان الصراخ عالياً. طورد مايكل بضراوة لكنه ظلّ يعدو ويعدو ولم يتوقف قبل أن يقفز، بوثبة واحدة عبر السور، ويصل إلى داخل المقبرة، ليختبيء هناك لاهثاً بين القبور.

ما زالت الظلمة لم تحلّ حتى الآن، كان مايكل آنذاك لا يفكّر سوى في جِلدة النقانق التي عثر عليها. أخرجها وتذوّقها. لم يحدث لمايكل إن كان في المقبرة عند حلول الظلام من قبل، فقد كان ينام هناك عند الظهيرة فقط. ظلّ مستيقظاً حينما حلّ الليل، متلفتاً حوله وآخذاً بالإرتجاف من التوتر. فجأة إستلقى على ظهره مخبّئاً رأسه بين الحشائش العالية.

بعد أن اضطجع قليلاً سمع صوت طقطقة. لعلّ ذلك كان هو الشيطان واقفاً ينحني فوقه وهو يقهقه. تطلّع مايكل مذعوراً، لم يكن هنالك من شيء.

تبدو البناية للعيان سوداء ونذير شؤم يمتدّ نحو السماء، مبهمة كانت مثل كتلة ظلام كثيفة. جلس مايكل وهو يرتجف من الرعب وأخذ، مُرغَماً، يتلو إبتهالاً للأرواح الشريرة ثمّ أخذ يطلق اللعنات

بغضب باسم جهنم! القبور والشواهد كانت رابضةً هناك وهي تضحك باستهجان في الظلام. كل الأرواح الخبيثة اللامرئيّة، المبتهجة بكونها لا تُرى، كانت تحوّم قربه هازئة منه. كان يرتعد، يحملق بشراسة ويتمتم، في غمرة الحمّى، باللعنات.

أرغم مايكل عينيه على التحديق في اتجاه واحد بذاته فترة طويلة، متحرّراً من خوف الموت الذي كان يخشى أن يتجلى له ويفتح له أبواب الجحيم من خلفه. حينما استدار كان ثمّة قرد دميم قد إنبثق بلا صوت من باطن الأرض. تلفّت حول نفسه في رعب مميت، لكن لم يكن هنالك من شيء. كانت الأسنان تصطك في فمه. لكن إذا حدث وأن جاء إليه فسيلقى نفسه تحت أقدام ذلك الحيوان طالباً منه المغفرة. ليس هنالك من تفسير، ولا حتى كلمة، لكن الحيوان رفع راحته فوق رأس مايكل، أبعد إصبعيه عن بعضهما وأشار مصوباً. كان لدى مايكل متسع من الوقت للتفكير فيما إذا كانت هنالك من طريقة لصدّ هذه القوى الحقودة، الإصبعين المنفرجين، المصوّبين نحو عينيه! آه، كلاّ! آه! ثانية كان مايكل جاثياً بعجز على ركبتيه متتصب الرأس! لقد غرز الشيطان إصبعيه في عينيه.

كان مايكل منذ مدة طويلة يتحدّى القوى الخسيسة، هيّا تقدّمي! وكان أكثر ذعراً من العصفور الحائر الذي يريد الدفاع عن فراخه أمام فكّ الكلب. إلاّ أنّ الشرّ الذي يحيط به كان يرغب بأن يكتم أنفاسه بصمته. كانت شواهد القبور تنتصب بسكون بليد كرأسمال للرعب واللعنات، مؤشرة على الأرباح وأرباح الأرباح، حتى الهواء المعتم كان يجثم عليه بتهكمه المسموم. إقترب الظلام من خلفه ووخزه من الوراء. لا شيء يكشف عن نفسه، فهذا الصمت الشرّير لا يريد أن يطلق عليه رصاصة الرحمة.

نعـم نعم، بحـقِّ جهنم، طـرح مايكل جسـده أرضاً وهو يقسـم أن يدع السـلام يحلّ على نفسـه. تلمّس صدره ليتأكد من أن النقش ما زال موجوداً في مكانه. لكنه على أيّ حال كان قد اسـتولى عليه الشكّ. كان مايكل في جوهره وثنيّاً. ففي الحقيقة، لأزمان طويلة لم يكن له ولأقاربه صلة بالدِّين سوى عند أداء الأقسام. لكن هل يعني ذلك كله شيئاً؟

لكنه خائفـاً كان، مرتعداً مـن الرعب. إضطجع في السـاعات التي سـبقت منتصف الليـل وهو محموم مـن الرهبة. كان يرشـح عَرَقـاً بارداً والقطرات تسـيل من شـعرة إلى شـعرة فوق صدره. ظلّ الرعب يضرب أحشـاءه إلـى أن أُجبـر علـى الإستسـلام لمتطلبـات الطبيعـة فـي ذلـك المكان.

وزحـف الوقت، صـارت الظلمة حالكـة. الهدوء صـار أعمق. كلّ شـيء تغيّر على نحو غير ملحوظ ولا يمكن إسترجاعه كما يبدو لإنسان على وشـك المـوت. الهواء يتجمّد عنـد أدنى صوت. الرعـب معلق في الهواء وقد أبرز وجهه المتحجّر الفاغر الفم.

حين دقّت، أخيراً، الساعة التي في أعلى البرج، دقّتها الثانية عشرة، كان مايكل سـقيماً، غيـر قادر على أن ينهض بجسـده. تخلّـى تماماً عن فكرته. هذا مسـتحيل، شـيء غير عقلانيّ. لكنه سـيفعله علـى كل حال، رغـم أنـه لم يكـن يؤمن بذلك مـن أمـدٍ طويل. تسـلّل مايـكل إلى باب الكنيسـة وهو يمسك بيده جذاذةَ البرشـمان التي كتب فيها عهده. إنحنى نحو ثقب القفل، ثمّ سـرعان ما سحب نفسـه للوراء ملسوعاً بتيار الهواء الـذي ضربـه تحت عينـه. لكنه سـارع بالنفـث عبـر فتحة القفـل وطرق ببُرجُمته ثـلاث مرّات على الباب، فيما كان يتمتم بكلّ أسـماء الشـيطان وألقابه.

لكنّ الشيطان كان قابعاً في مكان ما، ولـم يأتِ.

زفر مايكل زفرةً عميقة، مفعمةً بالخزي، ثمّ استدار على عقبيه.

حدث في ظهيرة اليوم ذاته أن أوتا إيفرسن كان يسير مجتازاً شارع «بيلستغيذه» فلمح إبنة مندل سباير. كان مستغرقاً في التفكير باليوم التالي الذي عليه أن يرحل فيه. آنا ميتا، كيف ستكون حياتها يا ترى، آنا ميتا ذات الشعر الذهبيّ الرائع؟ حينها شاهد سوزانا، لكنه واصل سيره دون أن تثير انتباهه.

عند المساء كان أوتا إيفرسن جالساً في الاصطبل قرب حصانه. كل معدّاته كانت جاهزة وكما يجب. بماذا عليه أن يشغل نفسه الآن، قلبه معلّق في حنجرته، مضطرباً من التوق والحنين إلى البيت، على كل حال فقد فات الأوان، لكنّ دمه لا يريد أن يهدأ.

مضى متسكعاً في الشوارع، سائراً عبر شارع «بيلستغيذه» ومجتازاً الحديقة، حيث لمح ذات مرة صبيّة بشعر فاحم. وبفظاظة خلع لوحين من خشب السياج وأفسح لنفسه مكاناً للولوج، واندفع مثل وعلٍ طائش عبر الأجمة ومن ثمّ إلى الممر. ثمّة صرخة ارتفعت من جهة يساره، ثم تناهت إلى سمعه حركة شخص يهرب، حفيف ثوب يخشخش، عندها وثب فوق الحشائش والأعشاب، مخمّناً أكثر مما هو يرى، إلتفّ حول شجرة وأمسك بالفتاة.

سرعان ما ترك الفتاة تفلت ثانية وأنزل ذراعيه. كانا يقفان مواجهين بعضهما قليلاً. لم يكن بإمكانه رؤيتها بوضوح لكنه كان يسمع لهاثها المتسارع. طفر غصن، كان قد تقوّس، عائداً إلى مكانه منزلقاً على خدّ أوتا بأوراق باردة ملساء.

فجأة قامت الفتاة بحركة سريعة وكأنها تريد الهروب.

«كلا!» تلعثم أوتا بتوسّل مؤلم، ثم مدّ ذارعيه بسرعة، واحدة على كل جانب منها.

«مـاذا، ماذا...؟»، همسـت بصوت مبحوح، ثم ارتعشـت وماسـت نحـو الأمام. نظر أوتـا إليها وهو غير قـادر أن يتبين ملامحهـا في العتمة تحت الشـجرة. وضع بعدها يده اليمنى في شعرها، كان ملمسه بارداً من الندى. تحسّر بلهفة ثمّ سحب يده وسألها بنعومة:

«ما اسمُكِ؟».

«سـوزانا»، ردّت عليه بهمـسٍ مقطوعةَ الأنفـاس. ثمّ قفـزت فوراً جانبـاً، مهرولة باتجاه الشـجرة، اسـتدارت حولها، ثم مضت. هسهسـت الأجمـة بشـدّة قبـل أن تنطبق خلفهـا وظلّت ترتعـشُ بعـض الوقت، ثم سكن بعدها كل شيء.

حدّق أوتا إيفرسـن إلى الاعلى. كانت سـماء الصيف متقوّسة فوق الحديقة، ونجومها العتيقة تتألّق. مثلّثات الجملونات المعتمة كانت معلقة على الجانبين. لقد ابتعدت! سـار أوتا إيفرسن ببطء، وثمّة ثقل خانق في قلبه، باتجاه الجادة من جديد. في كلّ مرة يحرّك فيها الأعشـاب العميقة بقدمه كان يستشـعر تلك الرائحة المنعشـة للأعشـاب والبقـول والتراب تنبعث نحـوه. كلاّ، أوتـا لا يمكنـه أن يغـادر الحديقة الآن. إسـتدار من خلـف الأجمة صـوب الممرّ ووصل إلى شـجرة بيلسـان كانت تشـكّل عريشة مفتوحة على الحديقة.

هنالـك كانت تخبيء نفسـها، عثـر أوتا عليهـا، فحيـن كان يتلمّس طريقـه إلـى الأمـام بذراعين ممدودتين لامسـت يـداه شـعرها. لم تنبس ببنت شـفة، لكنها دفنت رأسـها بين كتفيها، وهي ترتعش. ركع أوتا على ركبتيـه راغباً باحتضانها، لكنها سـحبت نفسـها إلى الخلـف بإصرارٍ إلى داخل الأغصـان الكثيفـة. تبعها أوتا زاحفـاً على ركبتيـه واصطدم بحافة طاولة كانت هناك.

«سـوزانا!»، همس لها، «سوزانا!»، أعاد ترديد إسمها بعد أن أحسّ

بالهدوء. قفزت بسرعة إلى الأعلى لكنه أمسك بها بثبات مطوّقاً، بذراعيه الإثنتين، ثوبها وركبتيها.

«من أنتَ؟»، سألته وهي ترتعد.

وبدلاً من أن يجيبها ضحك بخفوت، ضائعاً فيها، شاعراً بالحرارة التي كانت تنبعث من جسدها. كان ثوبها غليظاً خشن الملمس لكنّ يديه كانتا سعيدتين هناك. وفي غمرة نشوته إرتقت ذراعاه نحو خصرها فجذبها للركوع على ركبتيها أمامه. داعب شعرها ووجنتيها الساخنين وحاول أن يدير رأسها باتجاهه. نجح في ذلك لكنها، بمَكْرٍ، أدارت وجهها نحو الجانب الآخر. أجبرها أوتا ثانية على الإستدارة نحوه فأذعنت بشكل مفاجئ محاولة من جديد أن تخفي وجهها في الجهة المعاكسة.

«لا، لا!»، همس أوتا بوجد. أسلمت عاطفته مقاليدها إلى يده. جذبها بفظاظة نحوه، إلاّ أنها قاومته بركبتيها ومرفقيها. مدّ رأسه إلى أمام محاولاً تقبيلها قبل أن تدرك ما كان سيقوم بفعله. قبّلها ثانية ولم يحصل سوى على طعم ضئيل لشفتين مطبقتين بقوّة. لكنها تركت لجسدها أن ينزلق ببطء تحته، فأخذها بين أحضانه، هيفاء، مطواعة، بكل خضوعها المتّقد. قبّلها أوتا من جديد، تفتّح فمها مثل وردةٍ مفعمة بالأوراق البضّة. شعر بغصّة في حنجرته وأزاح عن نفسه شعوره بالإثم. مرّة جديدة قام بتقبيل سوزانا فاصطدم بنيرانها. عندها تخلّت عنه جرأته فمال إلى الوراء باتجاه الأوراق الباردة لشجرة البيلسان، من وهنِ قلبه. لكنّ سوزانا دفنت رأسها في صدره تحت ذقنه.

جلسا طويلاً هكذا، كان الهدوء يغمر المدينة. كانت أجراس ساعة منتصف الليل تجلجل بضرباتها العميقة في سكون الليل.

«علينا أن نغادر غداً!»، قال السيد أوتا. لم تكن ثمّة تعاسة في

صوته، ولا يمكن أن تكون لأنّ أوتا رفع رأس سوزانا وتحسّر بعمق.

«هل يحزنك شيء ما؟»، سألته سوزانا.

«ماذا؟»، جاء صوته مثل رنين جرس. «نعم!»، أجابها بعد بضع لحظات بصوت باهت. عضّت سوزانا مفاصل أصابعه وقبّلتها.

تناهت إلى سمع أوتا أصوات خطى قادمة من الشارع فأصغى إليها لوهلةٍ بانتباه، ثم توقّفت الأصوات فنسي ذلك من جديد.

لكنها كانت خطى مايكل ثوجرسن، الذي أضحى واقفاً الآن خارج شجرة البيلسان. كان ماراً في الطريق حينما لمح الثقب في السياج، ومكث واقفاً في المكان إلى أن سمع جرس الكنيسة يقرع الواحدة على المدينة النائمة. حينما برزا للعيان تعرّف مايكل على أوتا إيفرسن. رآهما ينسلاّن بين الأجمة في الحديقة المهجورة، حيث الجذوع العتيقة المائلة تنتصب في كثافتها العاطرة، كائنات بدائيّة شائخة، تمدّ غصونها هنا وهناك، وكأنها لا تعرف أين ستشير في حكمة حياتها الدائمة.

تسلّق أوتا السلّم صاعداً إلى حجيرة سوزانا، وكانت تقوده من يده. هنا، حيث الأضواء الحرّة لليالي الصيف تسقط عبر كوّة السقف إستطاع أوتا أن يرى كم كانت رائعة، قاتمة وبيضاء مثل الليل والنهار. طفلة شمسيّة من عالم لا يعرف عنه شيئاً. كان يراها تسطع ببياض مظلّل بالبنيّ الذهبيّ، وكأنها دُبِغت بالشمس تماماً قبل أن تنمو وتصبح بيضاء. ودَمُها كان كالليل والنهار، وحشيّاً وبريئاً. إنحنى أوتا مبهوراً بسطوع سوزانا، كان خائفاً في أعماقه كما أنه كان يفكرّ في آنا ميتا، لكنه كلما تعمّق حزنه القاتل كانت سوزانا تتألق أعمق، بالعاطفة، البهجة، والخوف. كانت مبتهجة بتألّمه المهيب. كانت تحبه بسبب صمته ولأنّ عينيه مليئتان بقنوط مُبهَم. أغوته بحنانها الساطع ثلاث مرات، بنهدها ذي الظلال الذهبيّة، وثلاث مرّات تراجع كما لو أن عليه أن يموت. إلى

أن، محطّماً ومنتحباً في سرّه، أخذها بين أحضانه.

كان الحرس الليليّ يغنـون في أدنى الجادّة «سـاعتنا دقّت أربعاً!»، وبعيـداً كانـت يُسـمع صوت نفيرٍ يشـقّ هـدوء الصبـاح الأبيـض. حينها نهض أوتا إيفرسـن متعثّراً ليخـرج. ركض خارجاً مـن الحديقة ليصطدم مباشرة بالحرّاس الذين صبّوا في أذنيه بضع كلمات لاذعة وقاسية. عجّل بالابتعـاد عنهـم، كان صباحاً ضبابيـاً. أنصت إلى صـوتِ حوافر الخيول التي تسـنبك على بـلاط الرصيف في الميـدان المغلق، فقد بـدأ الجميع الآن بالتهيّؤ للرحيل.

ثمّـة بصيـص مـن الضوء يتسـرب هنـا وهناك مـن خلـل الأبواب، صلصلة سـلاح تعلـو، الجميـع يقفـون الآن في وسـط الميـدان يرتدون دروعهـم على ضوء الشـموع... كان أوتا إيفرسـن يعدو قاطعاً الشـوارع ليصـل لمأواه في الحيّ، كان يريد أن يصل إلـى نهاية العالم حالاً ويلقي بنفسـه مباشـرة في جعجعـة المعركة. كان عليـه أن ينزع مـن قلبه كل ما فعلـه، وأن ينسـى، ينسـى. وفيمـا كان يعدو أطبـق عينيه ضاغطـاً عليهما بشـكل غريزيّ لأنّه ظل يشـاهد تلـك التي تلقته بهـذه العاطفـة الملتهبة ماثلة أمـام عينيه. كان يشـعر وكأن يديه ما زالتا مغروسـتان في شـعرها. آوه، كيف أنّها سـحبت رأسـه بصرامة، صرامة راسخة، نحو نهديها، فيما كان هـو ينتحب بشـكل مكتوم في جوار قلبهـا!... قفز أوتا فـي الميدان قفزة كبيرة مفكّـراً، كما لو أنه قد أصيب برصاصة. ثـم هرول بلا انقطاع عبر الشوارع الضبابية.

في خِضَمّ عَدْوه الأعمى تـاه أوتا ووصل إلى أزقّة ضيّقة، ثم مضى متمهّلاً ليزيح عن صدره الضِّيْقَ منخرطاً في نوبةِ بكاء عارمة. شعر بنفسه يختنـق بعبراته فشـرع بالعدو مـن جديد، فجـأة رأى ضوءاً شـاحباً خلل

الضبـاب ينبعث من زجاج نافـذة بيتٍ فقيرٍ، صغيـر. وكمثل طفل يقطف قشـرة من حائطٍ جِبْسـيّ في غمرة انسـحاقه بالكآبة والحـزن، مضى أوتا باتجاه النافذة ونظر عبر ثقبٍ مثلّثٍ، صغير كان في الحافّة.

لمـحَ صالة منخفضة السـقف، غير مرتبة. أمامـه بالضبط كان يقف رجـل وظهره إلـى النافـذة، مسـتنداً على أحـد الكراسـي. كان ثمـة فتاة يافعة جالسـة على الكرسـيّ لا يكاد يظهر منها سـوى ذراعيها الورديّتين ويديها. كان الشـخصان يحجبان ضوء الشـمعة المنصوبـة على الطاولة. عنـد اللحظة التي أراد فيهـا أوتا أن يحدق فيها عبـر الثقب الصغير أبصر الرجـلَ وهو يرفـع ذراعه اليمنى بطريقـة مريبة، كما بـدا وكأنه وضع يده اليسـرى على جبيـن الفتاة التـي كانت تجلـس أمامه على الكرسـي، «يا يسوع السيّد!»، وبحركة دائرية كبيرة جزَّ الرجلُ عنقَ الفتاة. كان ثمّة نقيق مخنـوق يغرغر. أدار الرجل السـكين في يده وزرعها فـي صدر ضحيته. ترك السـكين مزروعة فيها، وفي نفـس الوقت دفع بركبته ظهر الكرسـي وقَلَبَه، والقتيلة عليه، فوق الطاولة. الشمعة انطفأت.

أمسـك أوتا إيفرسـن برأسـه مذعـوراً واسـتدار محدّقـاً كالمجنون باتجـاه الجـادّة. بعدها أطلق سـاقيه للريح، إلى أن وصل، حاسـرَ الرأس وشـعره منسـاب إلـى الـوراء، إلى بيتـه في الحـيّ. عصـف، يائسـاً، إلى الإصطبل الذي يأوي حصانه.

الأحجار تُحمل خارج المدينة

في اليوم التالي كان الجيش قد رحل، الملك هانس مع رجاله، المرتزقة والفلاّحون، الرايات والمهاميز، البنادق والمَزاوِد، كُنِسَ كلّ شيءٍ خارج المدينة. أضحت الشوارع مقفرة من الناس من أدناها إلى أقصاها. الهواء الذي كان يردّد أصداء قرقعة الحديد والتفاخر حلّ فيه صمتٌ ثقيل. أصبحت الآن فرصة الإصابة برفسة عابرة ضئيلة. الكلاب والخنازير قدمت بجسارة من كلّ صوب تشمشم النفايات التي خلفها الجنود. عادة ما تقوم المدينة باستعادة ذاتها بسرعة، ففي ظهيرة اليوم نفسه تمّ تزيين المشنقة خارج بوابة «الفيسربورت» بمجرمَين قميئين، أحدهما كان كبيراً والآخر صغير. تمّ التحقيق في الجرائم التي تمّ ارتكابها خلال الليل، ومن ضمنها العثور على هامبورغ لوتا ميتة في بيتها محزوزة الرقبة. كل ما يمكن تخيله من صنوف الأشياء الغريبة حدث في تلك الليلة، فالعديد من القلوب قد تأثّرت بأشكال مختلفة بمجرد التفكير في دنوّ ساعة الرحيل، فمَن يرحل لا يمكن شنقه.

عندما حانت نهاية فترة الظهيرة تقريباً تجمّع حشد صغير أمام مبنى البلديّة. ثمّة شخصان مركونان في مخشبة التعذيب هناك، رجل بسبب السرقة، وفتاة ألقي القبض عليها بتهمة الدعارة. كانت الفتاة يافعة جداً وفي منتهى الجمال، فلقد كانت سوزانا ابنة مندل سباير. ألقى الحارس عليها القبض مبكّراً هذا الفجر فيما كان أحد زبائنها يولّي هارباً عنها. كان يترصّد سوزانا منذ فترة طويلة، مُنبَّهاً بالكتابات الشديدة الفظاظة التي يخطّها الناس بشأنها على زاوية البيت. كان الحارس ذا عين واحدة،

فقد اقتلع أحد الأوغاد إحدى عينيه في مشاجرة ليليّة ذات مرّة... لو أنّ سوزانا، إبنة مندل، كانت الآن دنماركية لكانت مهنتها بالتأكيد سنداً لاقتصاد المدينة، ولأمكن حينذاك للحارس أن يدير لها عينه العوراء بسهولة، فلقد كان معتاداً على تكييف العدالة. لكنّ سوزانا كانت سمراء وأجنبيّة، ولذلك يتمّ وضعها في مخشبةٍ الآن، وبعد أن ينتهي الناس من البصاق عليها سيتوجّب أن تقوم بحمل الأحجار إلى خارج المدينة.

تجمهر الناس في حلقة ضيّقة حول المخشبة كما توافد آخرون مع مرور الوقت. كان اللص منصوباً عليها بعينيه الحذرتين السريعتين، فإذا اقترب أحد منه أبرز أنيابه في الهواء واللعاب يتطاير من شدقيه، وقد جمعَ أسنانه البيض، مثل كلبٍ مسعور. كانت قدماه المثبّتتان في ثقوب اللوح تنتفضان بحنق، يهدأ بعدها قليلاً لبرهة وتسترخي ملامحه لتعطي إنطباعاً بالحزن. لكنه حين لمح رجلاً محترماً شبه كهل يتحرّك باتجاهه وثمّة دعابة تلوح على شفتيه، زمجر - أررر! إشرأبّ السجين بسرعة البرق نحو الأمام وبدأ ينهش في الهواء الذي حوله بضراوة وحشٍ كاسر ممّا دفع بالرجل إلى القفز للوراء من الرعب فانفجر الجمهور مقهقهاً. إخشوشنَ وجه الرجل المحترم وبميلٍ خبيث من شفتيه تطلّع ليرى فيما إذا كان الحارس المسلّح يراقب قبل أن يوجه ركلة إلى أنف وفم الرجل المثبّت في المخشبة. بعدها تطلّع بنظرة خبيثة وقال «أُنظروا إلى هذا الخراء!»، ثم مضى في طريقه. ومضَ اللصّ بعينيه ثلاث أو أربع مرات ثمّ أرسل نظرة حديديّة نحوه وصرّ على أسنانه، لكنه لم يصرخ. ثمّة لطخة ببياض الجثث بانت على جانبي أنفه.

على بعد مسافة مناسبة من الثقوب الأربعة التي ثبّت فيها اللّص رُكِنت سوازنا. كانت قدماها الحافيتان قد أدخلتا في اللوح. أكثر من شخص إستهوته الرغبة بدغدغة أخمص قدميها اللطيفتين الصغيرتين.

كانت ترتدي فستاناً أخضر وعلى كتفيها ألقي كيس خشن أخفى ذراعيها. قعدت وقتاً طويلاً هادئة بلا حراك، وجهها منكّس نحو صدرها، وشعرها البنّي الغامق، الوافر كان مغطّى بالبصاق.

متنحّياً جانباً عنها وقف العجوز مندل سباير، كان في القفطان اليهوديّ الأسود، لحيته تتدلى إلى الأسفل من قسماته المستطيلة المضطربة. كان يقف محدودباً ويتبادل الحديث مع شابٍّ أسمر البشرة لم يكن يعرفه أحد. كان الشاب ذا شعر مجعّد كثيف وله عينا فأرٍ سوداوان ضاربتان إلى الحمرة. كان تاجراً من «هلسنجور» وقد أرسل ماندل في طلبه هذا الصباح.

في غضون ذلك كان القصّاب جيرك قد وصل وقام بربط حجرين كبيرين مع بعضهما. لم تكن هنالك حاجة لمراسيم إضافيّة، لكن قبل أن يحرّروا سوزانا من الخشبة إقترب أبوها منها حائراً، متردّداً. رفع عينيه الميتتين ناظراً إلى الحارس وبعدها إلى زوج حذاءين صغيرين كان يحملهما بيده، ثم أطرق ببصره نحو قدمي إبنته الحافيتين وأعاد الكّرة ناظراً بشكل عكسيّ. كان الحارس مستنداً على مِطرَدِهِ ولم يتحرّك شاربه الصارم قيد أنملة. لم يقل لا، لكن هل يعني ذلك «نعم»؟ متردّداً ومستعداً للتقهقر في أيّ لحظة سارع مندل سباير إلى ربط الحذاء بطريقة غير متقنة إلى قدمي سوزانا البائستين. قدّم لها يده وأعانها على النهوض، ثمّ بقي عليها أن تبدأ المشوار على الطريق.

لم تتحرّك عضلة واحد في وجه القصّاب الفحولي الأصفر حينما ربط الحبل على قفا سوزانا، وبالمناسبة فقد كان هناك من يعتقد أنّ الحجرين اللذين اختارهما كانا أصغر مما يسمح به القانون.

تحرّك الطابور في سيره، في مقدمته كان يمشي القصّاب وسوزانا، وعلى الجانب الأخر كان مندل سباير يترنّح، يتبعه بقليل الشاب موريان

الـذي كان قـد تحدّث معـه. بعدهـا قدمت حشـود الجماعـة المبتهجين والمحترمين من سـكان المدينة: الإسكافيون، السـمّاكون، الطلبة، ربّات البيوت والآنسات. عند أسفل «فيملسكافتيت» ساروا بشكل بطيء، بطيء لأنّ سـوزانا كانت تنوء بحملهـا. في كلّ مرة تتعثّر فيها كان مندل سـباير يرفع يده السـمراء الناتئة العظام ليسـمحوا له بإسنادها ووجهه يتشنّج من الألم كما لو كان قد تلقّى ضربة سوط.

حقّاً كان المرح مفرطاً هذا اليوم. - أنظرْ أنظرْ، لقد حضر «اللقلق» بجزمته أيضاً. برز خيال المآتة الأحمر عند زاوية كنيسة «الروح القدس»، فقدّم الفتيان له الترحيب على وجه السرعة، لكنه أبعدهم عنه هذه المرّة، ملوحاً بعصاه المدبّبة في الهواء، فتبعثـر الفتيان بصيحات غاضبة وتركوه يمضي بسـلام. لقد صار للقلق شـاربان، لاحظ الناس ذلك في تضاحك مكتوم. أنظروا فقط كم هو مستعجل ليصل وينظر إلى تلك الفتاة!

حينمـا وصل الطابور إلى الميدان تصاعـد الإهتمام، برز الناس من الأبواب والشبابيك. هرول أحد الأولاد مندفعاً من داخل أحد الحوانيت وهو في منتهى النشـوة، أطلق دعابة سـاخرة وأمسك بفسـتان سوزانا ثم رفعه في الهواء وكشفها إلى حدّ الحزام. لكن، رغم أنّ الجمهور إعتبرها دعابـة ناجحة، فقـد كان ذلك سـلوكاً بذيئاً لا يمكن السـماح به. خفض جيـرك جفنيـه بجدّية محـذّراً الولـد الهـازل ثم خطـى قريباً من سـوزانا لحمايتهـا من المقالب. وفيمـا كان جيرك يتفحص مـا حوله لمح مايكل ثوجرسن لكنّه لم يبد أيّ علامة تدلّ على تعرفه عليه.

لم يعد فـي إمكان سـوزانا حمل الأحجـار أبعد إلاّ بالـكاد، كانت ترتجف من التعب ووجنتاها متوردتان بفعل الإجهاد. حين تحركوا على امتداد شـارع «أوسترجاذه» فتحت عينيها الواسـعتين البرّاقتين لأوّل مرة، إنفجـرت في نوبة مـن البكاء وظلّـت واقفة. مـن دون كلمـة رفع جيرك

الأحجار عنها واضعاً إيّاها على الأرض. ثم اتّكأ بعدها على عصاه وبقي ينتظر. همس مندل سباير ببعض الكلمات، على نحو سريع، لابنته. كانت زوايا فمه ترتعش من شدّة التأثر، لكنّه كان صارماً في كلامه: أحنت سوزانا رأسها وتوقفت عن البكاء.

بعد ذلك قدّم جيرك لها الأحجار لتحملها من جديد ثم واصلوا طريقهم خارجين من بوابة المدينة. هنا قام مساعد المأمور بتلاوة موجز تصريح لسوزانا يعلن فيه أنها أصبحت الآن معفيّةً من أيّ عقوبات أخرى، لكنها إذا ما عادت عبر بوابات المدينة ثانية فسيتمّ إبعادها بقوّة القانون. على بعد مسافة قصيرة كانت ثمة عربة تقف. صعد الأب والبنت على متنها إضافة إلى مجموعة من اليهود الغرباء، ثم انطلقوا بعيداً.

مايكل ثوجرسن كان في إثرهم.

لم يكن إنطلاق العربة البائسة يسيراً. فالسائس، وهو قرويّ صغير ذو شعر كسفته الشمس من خلف رأسه، كان يستحثّ فرسه على الحركة بنخسات فعّالة وهتافات إستثنائيّة، فتحرّكت العجلات قليلاً منحدرة على طريق الرابية مثيرة الغبار على امتداد الطريق. صرّت العربة بخيلاء مزهوّة بما قطعته ولم تمض بضع دقائق حتى كانت تتقدّم إلى الأمام ببطء.

كان يوماً جافّاً من أيّام يوليو، والأجمات العظيمة لعشبة «قشّ السرير» الصفراء تنمو على حافتي الشارع، وقد فاح أريجها العسليّ على امتداد الطريق. في الحقول كان نبات الجاودار قد نضج في الرياح الحارّة. الممرّ المائي أصبح أزرق داكناً. والغابة المنخفضة على اليسار، قَبَّبت نفسها في ضباب الصيف الشفيف. لكنّ الشمس كانت تنحدر باتجاه الغرب وسيحلّ المساء عما قريب.

إقتفى مايكل إثر العربة أربعة أميال دون أن يلتفت المسافرون على متنها وراءهم مرّة واحدة.

قبل أن يصلوا إلى «هلسنجور» ببضعة أميال دخلوا أحد الخانات ليستريحوا هناك، فقد كان الظلام قد هبط. على مسافة نصف ميل نحو الداخل ما زال ناقوس بائس لإحدى الكنائس يرسل دقّاته باتجاه شفق الغروب، شاكياً، لائماً، يموء بلا عزاء مثل قطّة تحوم بين السقيفات نافضة قطرات الندى عن براثنها وهي تبحث عن هُريراتها الميّتة.

لم يكن مايكل ثوجرسن يملك ما يمكّنه الدخول في الخان إثرهم، فجلس على مقعد الشحّاذ تحت شجرة الزيزفون الكبيرة. وعندما أضيء أحد المصابيح في مشرب الخان نهض من مكانه وتوجه نحو الباب المفتوح لينظر إلى الداخل فقط.

كانت سوزانا جالسة قرب الطاولة، والإثنان الآخران واقفان يتحدثان إليها بحرص. كان يبدو أن مندل العجوز يريد تسلية سوزانا وتعزيتها بكل ما يمتلك من تجربة. كان يتحدّث مواسياً فيما تشي حركاته بكل الحنان واللهفة التي يبديها أبٌ لطفله. اليهودي الشاب، ذو الشعر الجعد الكثيف والعينين الباردتين، إنخرط معهما في الحديث محرّكاً يديه بإيماءات صريحة توكيديّة «أليس ذلك صحيحاً؟»، «ألم يكن ذلك حقّاً؟». لكن، بلا ريب، لم يكن يبدو أن سوزانا كانت تصغي لشيء مما يقولون.

جلست سوزانا ويداها مشبوكتان على ظهر الكرسي وهي تريح رأسها المتعب عليهما، وجهها كان منحرفاً باتجاه الباب، لم تكن ترى شيئاً. فمها منفرج بشكل طفيف، لقد كانت هي ذات الظلال اللطيفة فوق الشفتين، المنخرين الغريبين المضطربين. لكم تبدو تلك الملامح رقيقة في غمرة الأسى، جمال يفوق الوصف غارق في الحزن، العينان مضنيّتان ورائيتان... أوه، لكن لم يكن لحزنها علاقة بما يفكّرون فيه، فأثر المقاساة على فمها يمكن أن يكون إبتسامة ملغّزة أيضاً. الضوء

الباهت، الباهت في العينين لم يكن بسبب الحزن وحده، فالتعبير الذي تشي به عيناها المنهكتان كان يتقاسمه الحزن والعذوبة معاً.

إستدار مايكل عائداً ومضى. سار بعجالة متوجهاً نحو شارع «هلسنجور» صاعداً ونازلاً من الروابي، وما أن لمح الأضواء في المدينة حتى خفّف من سرعة خطاه وجلس إلى حافة الخندق. لم يعد يستطيع التحمّل أكثر، فلقد نال ما فيه الكفاية من الأذى منذ يوم أمس، لكن أشدّها مرارة كان حين لمح أوتا إيفرسن في عيني سوزانا المغلّفتين بالأسى. من الآن فصاعداً سوف لن تعني شيئاً له. إستحضرَ في ذاكرته تلك الرسوم الخسيسة التي كانت على زاوية منزل مندل سباير (والتي عبدها سرّاً في قلبه من قبل)، وهزّته بعنف. كلاّ، فلتذهب بعيداً!

وفيما كان مايكل جالساً إلى حافة الخندق التهبت حماسته برهة لوجوده وحده. رمى نفسه إلى أسفل الخندق وأخذ ينتحب بجزع. لكنه كان شابّاً، وعواطفه لا يمكن أن تستمرّ من تلقاء نفسها، لأنها تحتاج لموضوع. وهكذا انقلبت كلّ الآمه إلى حقد، حقد نحو ذلك الأوتا إيفرسن. هذه الفكرة جعلته يحسّ بالإنعتاق، أن يدمّر أوتا إيفرسن. سرعان ما شعر بالهدوء يدبّ في روحه فبدأ بالتفكير في الكيفيّة التي عليه أن يُعذِّب ويَقتُل فيها... هكذا وهكذا يجب على أوتا إيفرسن أن يرتعد من السكّين، هكذا يجب أن يراه منسحقاً في بؤس ومحطَّماً مَفصِلاً بعد مَفصِل!

إستيقظ مايكل ثوجرسن من أحلامه المُحرِقة حين سمع صوت عربة قادمة من البعيد، عجلاتها كانت تصرّ في المساء الهادىء. وصلوا الآن لأعلى الرابية، سمع مايكلُ السائسَ يستحثّ الخيول «بس، بس» - نهض ومضى صوب المدينة بكل ما يستطيع من سرعة. في الليلة ذاتها حصل على فرصة إبحار مع ربّانٍ كان متوجهاً إلى مدينة «جرينو»

في جزيرة «يولاند». حين كان القارب منسـاباً في هـدأة الريح في خليج «كولين» إضطجع مايكل في العنبر الأمامي ونام وكأنّه لا يريد أن يستيقظ أبداً من جديد.

حينما ارتفعت الشـمس في كبد السـماء كانت الرياح ساكنة تماماً. إنسـاب المركب باتجاه الشـمال تمامـاً، لكـن «جرينرو» تقبـع الآن مثل غيمةٍ عَرفـاء منخفضة في جهـة الجنوب. أخرج الربّان ومسـاعداه بعض المجاذيف لكنّ ذلك لم يجد نفعاً.

في غمرة نفـاذ صبره، جلب الربّان برميل شـراب شـعير من داخل العنبـر وأيقظ مايـكل. فرك مايـكل عينيه وتطلّع مغشـياً حولـه ناظراً إلى الماء الهادئ كصفحة مرآة. هيأوا ً موضعاً على سـطح المركب وشـرعوا بالشـرب. وأصبح مايكل ثملاً حتى قبل أن يكمل إسـتيقاظه التامّ، جائعاً ومكروبـاً كما كان. تأرجح بقدحه وشـرب حتى عربد من شـدّة السُّـكر. وفي النهاية صمت الآخرون وظلّ مايكل يهذر لوحده.

«منذ مـدُة طويلة بيعت روحي إلـى الضياع»، زعق لاهثـاً واللعاب يتطاير من فمه. «لسـتُ سوى روح تعيسة، حتى الشـيطان نفسه لا يرضا بـي! لكن لا بأس بذلك - فسـيمكن الإحتفـال في نهاية الأمـر، يمكنني ببسـاطة التخلّي عن كلّ شـيء لسـتُ راغباً فيه، هذه قضية سهلة، بعدها سأمضي في طريقي. هورا!!!!! تعالوا معي إلى الإحتفال، يا جميع الموتى والعرجـان، المحروقيـن حتى المـوت والمقروعين على الجبـاه. مرحباً، فالطاولـة قد أُعدّت، خـذوا جميعكم مقاعدكم إليها كمـا أنتم، لا تغيّروا ملابسـكم فأكفانكم رائعة - ها هنا مـكان لكم يا ذوي الخـدود المعلّقة مِزَقـاً والأيادي المزيَّنـة بالحصى - تعالي أيتها الجثث مـن البحر، تعالوا أيها الفقـراء مـن الدولايب! أنا واحـد من شـعبكم، وقريباً سـأردّ إليكم الزيـارة. لماذا علـيّ أن أكون قلقاً على رأسـي؟ لم تعد لي رابطة بشـيء

بعـد الآن. أنا رجل وحيد تمامـاً. ماذا يهمّنـي لو أن هناك طائر يسـمّونه النعامة؟ ماذا يقلقني حين يتسـلّق مغفّل على العرش في فرنسـا؟ أنا عائد لبيتي الآن. لم تعد عيناي تبصران شيئاً. الوداع، الوداع!».

كان المركـب ينطـرح ميتاً في عرض البحر تحت شـعاع الشـمس، لـم يكـن هنالـك من صـوت آخـر غيـر وشوشـة المـاء. الربـان ورجاله مرحوا بشـكل طيّب جدّاً، مايكل يشرب، نشـجَ وتفاخرَ لفترة من الزمن، بالدنماركيّة حيناً وحيناً آخر باللاتينيّة، إلى أن انسلّ في الختام فوق سطح المركب ونام من جديد.

العودة إلى البيت

كان موسم تـلال القشّ قد حـلّ حينما وصـل مايكل إلـى الوادي الذي في أعالي «ليمفيورد»، حيث يقع مسقط رأسه.

الليالـي لـم تواصـل عتمتهـا، والحرارة لـم ترتفـع كثيـراً، حتى أنّ المرج والجدول كانا ملفّعان بالضباب ساعة خيّمت عتمة الغسق الشفيفة عليهما. وُضِعَ القـشّ على هيئة تلال في المـروج، والفتية الصغار الذين قدموا مـن القرى الثـلاث المحيطة ظلّوا هنـاك خلال الليـل. أواخر كلّ مسـاء كانت تنطلق صيحة من فتيان قرية «كوروم»: هيّا إلى السـرير! كان النداء ينتقل من تلّـة قشٍّ إلى أخرى. بعد فترة قصيـرة يجيب صوتُ فتاةٍ دافـئ بعيدٌ من تلال القشّ في «جروبولا»: هيّا إلى السـرير! كان الصدى يحاكـي الصوت القـادم من أعالي التـلال مثل أصوات عفاريـت تتلعثم، بعدها يُسـمع الصوت في المسافة اللامتناهية ممزّقاً كقطعة قماشٍ رقيقة: «... وقـت النـوم!»، قادمـاً مـن تلال أهالـي «ثوريلـد» الواقعـة في قلب الوادي.

«كا كا»، كانـوا يغنّـون في أعالي الجـرف. الضبـاب يتكاثف حول الجدول. الليل يضطجع في سـكونٍ إلهيّ، فيما كانت السـماء تدثّر ذلك الهدوء الناصع.

ينبسط هذا الوادي من غرب وشرق المضيق البحريّ حوالي نصف ميل في عمق الأرض. عند نهاية الجهة الشـرقية منه تقع عزبة «موهولم» التي تمتلكها أرملة إيفر أوتيسن، كما كانت تمتلك الوادي والقرى أيضاً.

على مسـافة قصيـرة من المضيـق البحريّ يقـع بيت الحـدّاد ثوجر وطاحونته المائيّـة الصغيرة. كان ثوجر يقطن هنا لأكثـر من ثلاثين عاماً، وإضافـة إلـى مايكل الذي مضـى عليه الآن هنـاك ثماني سـنين في تلك المدرسـة السوداء، كان لديه إبن آخر يدعى نيلس، الذي أخذ على عاتقه تولّي الأعمال اليدوية من بعده.

غمرت ثوجـر السـعادة لقـدوم إبنه إلـى البيت. جلـس الأب على الصنـدوق وانشـغلا فـي الحديث. لاحـظ مايكل أن سـاق أبيه تقوّسـت بحدة بسبب الروماتزم، الوجه الفسيح تجلّت فيه آثار الشيخوخة القاسية، وذلك لأنّ العجوز كان متأثراً في سرّه بهذا اللقاء.

«تبـدو أنيقاً في ثيابك بدون شـك»، قال ثوجر بمـرح وغمزَ باتجاه بنطـال مايكل الجلديّ. خفـض مايكل عينيه إلـى الأرض غير راغب في تقبّل الإعجاب.

«بلـى، بلـى، أيّ واحـد يمكنـه أن يـرى أنك فـي حالة طيبـة»، أقرّ ثوجر. «شيء كالمنقار في وجهك يشـي بأنك كنت تدرس... نعم، فهذا الأنـف لم ترثه من أحد غيري»، أضاف وهو يبتسـم بشـكل خفيف. كان أنف ثوجر طويلاً بشـكل غير اعتيادي، منحنياً مرتيـن مثل خطم الخنزير الوحشـيّ، بحـواف متعـدّدة مائلـة، منحته سِـمَةَ رجلٍ بـارعٍ، تمامـاً مثل مايـكل. في الواقـع، كان ثوجر كذلك رجـلاً ماهراً جـداً، وحكيماً أيضاً فـي مجالات عدّة مع كفاءة طبيعية في كل شـيء في العالـم. مارس أيّام شـبابه نوعـاً من الفنـون، سـمّاه شـخصيّاً «الطبـخ». وحينمـا كان مايكل صغيراً شـاهد أباه بعض المرّات وهو يصهر أشـياء غريبـة مع بعضها في إنـاء صغير، صوف، رصـاص، أحجار حُمْـر صغيرة، أسـنان فئران. لكن الآن لم يعـد ثوجر «يطبخ» شـيئاً، فرغبته بالحصول علـى حجر الحكمة اضمحلّت مع تقدّم العمر، نعم كان كذلك.

«لقد كان الذَّهَب ذلك الذي كنت أحاول صنعه»، قال ثوجر العجوز ممازحاً، وبوحه بالسرّ حزّ قلب الإبن لأنه كان مرتبطاً بأوقات من زمن لا يمكن إستعادته، «لكنني لم أجد الذهب على الاطلاق، لذلك كانت تلك هي المرّة الأخيرة التي حاولت فيها، دعنا نرَ... نعم، كان ذلك منذ مدة طويلة، ثمّ واتتني الفكرة! فجأة مرّة واحدة، ها، ها... لو أنني قمت فقط بصهر كل ما في تلك الوصفة لربما فعلت فعلها! كنت قد اشتريت هذه الوصفة من أحد صانعي السلاح في «ستيتن»، كان ذلك منذ أمدٍ بعيدٍ جداً، لم يكن أحد هناك على الإطلاق قد اطّلع عليها. كما لقّنني أيضاً كيفيّة تفسيرها، فقمت بصهر مواد الوصفة في طنجرة مع كومٍ من المواد القويّة الأخرى، لكنني لم أحصل على ذهب. كلاّ يا صغيري، ثم تركتُ الأمور تجري على هواها منذ ذلك الحين».

أضحى الحدّاد ثوجر كهلاً، جبهته الصلعاء المتغضّنة أخذ شعرها بالنمو ثانية، اللحية الكثّة نمت على امتداد الذقن كما هو الحال عند الشيوخ، وكانت بيضاء. الوجه مليء ببقع شاحبة، واليدان القويّتان أضحتا واهنتين.

كان ثوجر في بعض الأحيان يقوم ببعض أعمال الحدادة أو الإهتمام بالطاحونة. كان نيلس يقف عند الكير قذراً ومكسوّاً بالسخام. كان ثوجرسن يطرق ببرودة دم ومهارة فائقة، شامخاً برأسه فوق السندان بشدّة لأنه أصبح الآن يعاني من بُعْد النظر، إلاّ أنه ما زال بإمكانه تقويم الحديد الحامي، لكن لمدّة نصف ساعة على الأكثر. بعدها يتظاهر وكأن قد واتته فكرة حول شؤون أخرى فيقطع عمله فجأة ويذهب إلى الصالة، حيث يجلس هناك ليلتقط أنفاسه محاولاً إخفاء ضيق تنفّسه الخؤون.

«الآن عليك أن ترى ما عندي»، هتف العجوز ذات يوم منقّباً بلهفة في صندوق خشبيّ صغير وسط أزرار صَدَفٍ عتيقة وقطع معدنيّة. «أين

هي الآن يا تـرى؟ إنها قطعة عملة قديمة، لو أمكنني فقط العثور عليها. لقد احتفظت بها سـنينَ عديدة لحين عودتك إلى البيت، لَم أكن أستطيع قـراءة ما ضُـرِبَ عليها، رغـم إنّ عينيّ كانتـا تريان بوضـوح، ربّما كانت باللاتينيـة. هـا هي، لقـد عثرت عليهـا فـوق الأرض ذات مرة، حسـناً يا مايكل، ما هو مكتوب عليها يا ترى؟».

أحنى مايكل نفسه بعينين نديّتين فوق العملة الصدئة وترجم الكتابة التي عليها.

«إذن ينبغي أيضاً أن تنال واحدة منها»، قال ثوجرسن بارتياح عميق لقدرات إبنه. «إنها من فضّة خالصة».

«شكراً»، تناول مايكل القطعة النقدية وخبّأها، ومنذ ذلك الحين لم تفارقه أبداً.

كان ثوجـر يحيط إبنـه بالعديد مـن النظرات المتمعّنـة خلال الأيام الأولى من قدومه إلى البيت.

«الأشـياء يمكـن أن تتبـدل بغرابـة»، قـال لـه. «لا أحد يعـرف أين تختبيء القدرات». أنظر إلى إبن الإسـكافيّ في «بروندوم» إلى أينِ مدى وصل؟ لقد سمعت من يقول أنه أصبح رجلاً ذا منزلة عن الملك».

«هو كذلك»، أجاب مايكل باضطراب، فزيارته لينس أندرسن ما زالت ماثلة ـ ؤلمة له. «لكنّه أيضاً كان محظوظاً بالدراسة في روما وباريس».

«نعم، أنت على حقّ»، همهم ثوجر، وملامح شـيخوخته إسترخت بالتفكير في العالم الفسـيح. كان شخصيّاً في الخارج لكن ليس أبعد من شمال ألمانيا.

«نعـم، أنت علـى حـقّ»، أعـاد قوله فيمـا كان يدير إبهاميـه حول بعضهيما. «هل رأيت السـيّد الذي يقيم في أدنى العزبة، يسـمّونه السـيّد أوتا؟».

جاء السـؤال على نحـوٍ مفاجئ جـدّاً، لدرجـة أن مايـكل طفر من مقعده «مَن هو؟ أين؟».

«سيّدنا الشابّ، ربّما لم تكن قد رأيته، ذهب إلى كوبنهاغن في هذا الخريف. نعم، إنها في الحقيقة حكاية نادرة المثال».

هـزّ مايـكل رأسـه، كان ينظـر بعيـداً وكأنّ الحكايـة كانـت لا تثير فضوله.

«حسـناً، قد يكون من المسـتبعد أن تكون رأيته»، واصل ثوجرسن كلامه «فهؤلاء السـادة الشـبّان وأنتـم المتعلّمون صنفـان مختلفان، لكلّ دورته الخاصّة المختلفة في الحياة. نعم، لقد ذهب إلى مدينة الملك في شهر أبريل متطوّعاً بعد خصام مع والدته. لم يكن بحاجة إلى ذلك، لأنّ الإسـتدعاء للحرب لم يكن يشـمله، ثمّ أن والدته كانت امرأة أرملة، إلاّ أنه كان راغباً فقط بالرحيل، ويقال أن ذلك كان بسـبب آنا ميتا. نعم، هل تستطيع تذكرها؟».

كان مايكل يتذكّرها.

«لقد أضحت ناضجةً بالغةَ الجمال حين شـبّت، آنا ميتا هذه»، قال العجوز ثوجر ذلك فـي نغمة إعجاب صريحة وعينين متسـعتين. «أعتقد أنني لـم أر فتاة بهـذا القدر من الجمـال. لقد ورثته عن أمها، سـيمكنك رؤيتهـا بالتأكيـد. كانـت أمهـا إبنـة كنـود القـويّ، الـذي قُتل فـي حرب الفلاحين. قُتل الكثيرون هناك تلك المرّة. لكن ينس إيفرسن كان يمتلك أجمل امـرأة في المنطقة كلهـا. نعم، كان كلانا متقدميـن في العمر حين تزوّجنا، أمّـك وهي لم تكونا صديقتين كما أعتقد، هـا... ثمّ... على أيّ حال، هما الآن ميّتتان وبعيدتان، نعم آه، نعم».

«... مـاذا يقـول ينس بشـأن كل هذا، حسـناً، ماذا عسـاه سـيقول؟ سـيكون من الصعـب عليه أن يأخـذ هراوة ليـدرأ بها السـيد الصغير عن

الباب. ثمّ أنّ الشيء الغريب هو كيف أنّه كان مخلصاً لها. هي الآن إنحدرت حيث يقطن أبوها هناك، شوقاً إليه، ربما وعدها أن يعود إلى البيت ومعه كلّ ثروات العالم كي يستطيعا أن يحظيا ببعضهما، من يعلم؟ فالسيدة في العزبة ليست سعيدة بما حصل، وإن بدت غير كذلك».

«ألا يمكننا أن ننحدر ونتبادل بعض الحديث مع ينس سيفرستن؟ إنه راغب جداً برؤيتك»، إقترح ثوجر عليه في اليوم التالي. «ربما سأستطيع أن أعرج على المكان الذي هو فيه حينما نبحر خارجين إلى الجدول».

إرتدى ثوجر ثيابه إستعداداً للمشوار مع دثار من الصوف لفّه حول عنقه. كان مايكل يجدّف في الزورق، وبعد أن أرسياه عند فم الخليج سارا بقية الطريق صوب منزل ينس سيفرستن.

هنالك استطاع مايكل أن يرى آنا ميتا، وحتى تلك اللحظة التي وقف فيها بمواجهتها لم يكن ليتخيلها أكثر من فتاة شقراء صغيرة ذات بشرة صافية، وها هو الآن يراها وكأنها بمعجزة قد استحالت إلى آنسة هيفاء ناضجة، شعرها يضيء في الصالة الهادئة. كانت بيضاء ورائقة مثل طفل بفم متورّد، وعيناها صافيتان في زرقة فاتحة. هكذا ينبغي أن تبدو فرَيا[1].

قدّمت آنا ميتا يدها لمايكل، ظلّ ينظر إليها إلى أن خفضت عينيها. رائعة كانت. شعرَ مايكل بلهيب نيران تتسرب إلى راحة يده: «أوتا إيفرسن!»، فكّر هو «الآن ستدفع الثمن!».

بادر ثوجر بالحديث حينما كانوا هناك. تكلّموا عن كلّ شيء، عن الأمور الشخصيّة أيضاً، لكن الحالة التي بين آنا ميتا والسيد الشاب لم

(1) Freja: إلهة الخصب والحبّ في المثيولوجيا الاسكندنافية، وهي صنو عشتار في بلاد الرافدين. (المترجم)

يمسّها أحد بكلمة واحدة، كما لا يمكن للمرء ملاحظة ذلك عليها. كانت فتاة محتشمة ووديعة مثل كلّ البنات، لكنها كانت تبدو كما لو كانت إنساناً رفعته السعادة فوق الآخرين. كانت ملامحها اللطيفة، الطبيعيّة طَلْقةً كفتاة في الثامنة عشر، إلاّ أنها في الوقت نفسه كانت متوهّجة بفعل تناغم داخليّ عفيف. أدرك مايكل أنه كان على أوتا إيفرسن أن يزحزح السماء والأرض من أجل الحصول عليها. يا لها من فرصة لجعله تعيساً! أُحكِم القرار مثل حزام حول قلب مايكل.

«ينبغي عليك أن تنال آنا ميتا»، قال ثوجر ممازحاً وهما في طريق العودة إلى البيت. «أنتما الإثنين ملائمان لبعضكما. نعم، لا داعي لأن أقول ذلك. وإذا ما حصل هذا فإنّ ينس سيفرستن لن يكون سخيّاً بما يتعلّق في هذه المسألة، كما أنّني لا يمكنني إعطاؤك الكثير. وإذا رغبت بالسفر مع آنا ميتا إلى روما كما تحدّثت من قبل، فإنّ ينس سيفرستن قد أبحر ببضعة آلاف من سمك الحنكليس المدخَّن إلى المدينة في زمانه!

بما أنّ مايكل بدا غير مستمتع بالمزاح فقد صمت ثوجر. ومع ذلك، فقد عاد بعد قليل إلى حلمه مع بضع ملاحظات إضافيّة: «إنّها لا بأس بها الآن، آنا ميتا. قد يُقال، طبعاً، إنهما يحبّان بعضهما. ما معناه هو أنك لست ناضجاً بما فيه الكفاية للفهم. لكن كل واحد يمكنه أن يرى بوضوح أنّ النبع لم يُسرق منها حتى اليوم... نعم، نعم يا صغيري مايكل، هلاّ نسعى في الوصول إلى البيت».

التوق

عـاد مايكل إلى المكان الذي غادر منه إلـى الخارج، نام من جديد في منزل أبيه. أمكنه ثانية أن يستيقظ في الليل ويرى ذات النجوم الثلاث الكبيـرة فوق فتحـة المدخنة في السـقف ويسـتمع إلى الدعائم الخشـبيّة وهي تئنُّ، فالخنافس، والسـوس تقرض في خشبها المهترئ. كانت رياح الليل تنفخ بشـكل مكتوم في الخارج. تذكّر مايكل هذا الصوت الحسن. عـدا ذلك فقد كان الهدوء يغمر الأماكن أجمعها سـماءً وأرضاً، حتى أن مايـكل كان متضايقاً مـن الطنين فـي أذنيه، ثمة أصـوات رنيـنٍ، إنهمارٍ، وتهشّـمٍ تُدوّي في أذنيه. حين كان ينام هنا وهو طفل صغير كان يستيقظ مسـتمعاً إلى السـكون يغلي، يتخيّل أحداً ما يمرّ في الخـارج مجتازاً في سـفرٍ لا نهائيّ، متزلّجاً يتزحلق بهـدوء عبر الثلج السـرمديّ، وبين الفينة والفينة ثمّـة قرع رهيف واهن مثـل صوت نواقيس يرنّ فـي البعيد. خال فيما بعد أنه يسمع أصوات الأوزّ قادمة من الخليج، بعد أن استطاع ذات شـتاء أن يشعر بموسيقاهم الرقيقة الهشّـة كندف الثلج، تنبعث من خلال ثقوب الجليد.

هـا هو مايـكل مـن جديد يصغـي للهـدوء، لكـن الآن أصبـح كلّ شـيء مختلفاً، عنيفاً جدّاً وشـجيّاً، مليئاً جـدّاً بالدمدمـات المكتومة إلى درجـة أرعبته. ثماني سـنين من حياة التشـرّد، كانت تلـك الترانيم تذكّره بها، ثماني سـنين قد إنتهت بلا شـيء، صداها يتردّد في أذنه ولا تريد أن تصمت.

ذات ليلة سيطرت على تفكيره قناعة ثقيلة على نحو رهيب بأنّ صوت الخواء المتصاعد هذا سيظلّ يلاحقه إلى أن ينتفخ فجأة في مرحلة ما ويدوّي في انفجار واحدٍ مروّعٍ يفلق رأسه قاذفاً به نحو الخطيئة.

تاق مايكل للرحيل بعيداً عن البيت.

«يتهيّأ لي أنك تبدو منحرف المزاج قليلاً»، قال ثوجر. «لم لا تذهب للصيد؟ إنّه طريقة رائعة لقضاء الوقت، أخرجْ مع ينس، أو إذا شئتَ، خذ قارباً واسأل العجوز بورا أن يرافقك، قد يكون أحمق إلاّ أنّه ليس صيّاداً سيئاً».

وأبحر مايكل لصيد السمك مع بورا، الذي كان أبلهاً غريبَ الأطوار ومقيماً في المنطقة منذ زمن سحيق. كان بورا شخصاً لا بأس به، قاما بالرسوّ في عرض الخليج طوال اليوم دون أن يقولا كلمة واحدة أو أن يخوضا في الماء الضحل مع شبكة الصيد. كان بورا رجلاً مدركاً بما فيه الكفاية، باستثناء بعض السلوك الغريب الوديع. كان يخفي وجهه عميقاً في الزاوية المحصورة بين سَقيفتين، على سبيل المثال، حيث يمكنه الوقوف هناك لساعات وهو يضحك بمزاج رائقٍ مع نفسه. في أغلب الأوقات لا يمكن للمرء أن يرى من بورا سوى ظهره الذي كان يهتزّ دائماً، لأنّه كان يضحك سرّاً مستمتعاً ونفسه. وحتى عندما نزلا بالشبكة إلى الماء خائضين فيه إلى الصدر كان بورا يستدير صوب الخليج المفتوح ويضحك مبتهجاً، حتى أنّ الماء كان يهتزّ حوله مكوّناً حلقات تنتشر خارج جسمه.

ذهب مايكل مع ينس سيفرستن أيضاً، حيث غالباً ما كان يرى آنا ميتا. ثمّة بقعة لامعة صغيرة ظهرت عند زاوية فمها، لم تكن سوى علامةٍ للشباب والعافية.

كم كان الصيف طويلاً ولم يتغيّر طوال تلك السنة! الوادي والمرج حملا من الأعشاب والزهور كما لم يكن من قبل. الشمس لم تكن على عجلة في مدارها، كلّ الأشياء الحيّة منحت نفسها وقتاً طيّباً. ثمة طير يحلّق عبر الهواء صاعداً هابطاً وكأنّه يسافر فوق الرابية والوادي، وحينما يبتعد يترك ذكرى زقزقةٍ جذلةٍ وراءه. النحل الطنّان كان يتلكّأ فوق المستنقعات الرطبة، وبقُّ الماء يكتب على المرآة المبسوطة فوق أعماق الجدول المعتمة.

لقد كان وادي السرمديّة. التلال المخضرّة بالخَلْنَج صفّت جباهها سويّةً على الجهتين، فيما كان الجدول يتسلّل عبره بفخامة، وفوقه كانت تسبح سحائبُ بِيضُ ذات أقدامٍ محلّقة منسابة تحتها.

كان الماء في الجدول يهرع مكركراً فوق حصى القاع قبل أن يصب في أعماق الخليج ويصمت هادئاً. الأسماك تتواثب كاتمة أنفاسها، محاولة إلتقاط الذباب والبعوض. ثمّة شبح يتلألأ في الهواء فوق الماء الصقيل، مجرد إنعاس بلا لون، وثمّة ضحكة مكتومة ترنّ في المسافة. الصدى يمزح في الأقاصي بين الجروف.

سخونة الظهيرة الهادئة كانت راسخة مثل نصفِ ليلٍ متحجّرٍ، لأنّ صمت الشمس جثم فوق كل ما كان يتنفّس. ثمّة خرس مَحتوم تحت ضوء السماء، محفوف بالنَّذير أكثر من عتمة الليل. عالياً، في الهواء الزُّلاليّ كانت ترفرف السعادة التي لن يتعرّف عليها أحد قبل أن تكون ميّتة، ميّتة.

بعد أن يهبط الشفق أخيراً تضجّ الأرض الواسعة بالأصوات. الهدهد يرمي نفسه بعنف في الفضاء الشاهق الإرتفاع، قويق، قويق، هَدْهَدَتُه تطنّ في الظلام البهيم. خارج جزيرة المستنقعات تَضبَحُ جِراءُ الثعالب برقّةٍ وحدّةٍ، وتنادي بالإسم على نفسها: جريو، جريو، جريو.

وفجـأة تـرنّ ضحكةً فـي أعالـي الجـروف، متضاعفة ومسـعورة بشـكل مروّع. يعمّ الهدوء بعدها، إلى أن تعود جراء الثعالب لمواصلة شقاوتها على الطريق من جديد.

حلّ الليل. المياه في المنعطف العميق للجدول تتصدّع، والمخلوق الذي كان في أعماقه رفع كتفيه الموحلتين في الهواء. وهناك، عند البقاع الرطبة كانت أرواح مملكة الموتى مثل خطاطيف سود ترفرف بأجنحتها ثابتةً في الهواء، وتسبر أغوار الأعماق التي تحتها.

وقف مايكل على عتبة باب المنزل ذات مسـاء وتطلّع نحو المرج. كان ثمـة ضوء يتحـرّك هناك فـي العتمة البعيـدة، لابدّ أنّـه كان «مصباح القَـرْع».كان الناس قـد آووا إلى منازلهم منذ وقـت طويل. حصّادو تلال القـشّ لم يعودوا يقضون ليلهـم في المرج، فالقشّ قـد نُقِل إلى البيوت. كان ذلك في شهر أغسطس.

كلّ شـيء كان يقبع في الخواء والسـكون. الطير والحيوان صمتت سـاكنة. في مسـاء كهذا لم يكن مايكل ليجرؤ، وهو صغيـر، على التطلّع مـرّة واحدة مـن الباب نحو المسـتنقعات خشـية أن تقع عينـاه على أحد مصابيـح القَـرْع. وحتـى وهـو واقـف الآن فإنه يحـسّ بخـوف لا يمكن السـيطرة عليه يجتاح كيانه، يشـعر بزمهرير موجع وكأنّما قد وضع أعزلَ وعارياً في مهبِّ ريحٍ عَضوض. لكن، رغم هذا الخوف المكتوم القهريّ الـذي كان يقرض كيانه فيجـب على مايـكل أن يذهب خارجـاً ليواجهه كائناً من يكون في هذه الليلة المسمومة. كان وكأنّه غير قادر على العيش من دون فزع، فعليه أن يزن مقدار جُبنه الداخليّ بالرعب الخارجيّ.

أسـلم مايـكل نفسـه لقـوى الطبيعـة فيمـا كان يمضـي باتجـاه المستنقعات. الرعب معلّق أمامه ومتدفّق من خلفه في الوقت ذاته وكأنه كان يسير وسـط شـعلة متعرِّقة. «مصباح القَرع» الذي كان أمامه تلاشى.

حوالي منتصف الليل توقّف مايكل ساكناً. وفي نفس اللحظة إنبجست من أعالي التلال قهقهة صاخبة بشكل جنونيّ وسرعة خاطفة. ظلّ صداها يتردّد ويواصل الترداد. حينها سقط مايكل على أطرافه الأربع ودفن رأسه بين ذراعيه، زحف معجّلاً لمسافة، أدار نفسه مناوراً بتخبّط في مكانه ثم زحف مسرعاً باتجاه البيت. فقط بعد مرور مدة طويلة من حلول الهدوء أنهض نفسه وسار.

«لا أريدك أن تسير في الخارج أثناء الليل»، قال ثوجر الحدّاد لإبنه في اليوم التالي، حينما كانا جالسين يأكلان.

صمت مايكل مذهولاً وراضياً تقريباً بهذا القرار الوجيز.

لاحقاً، عند النهار تحدّث ثوجر عن مثل هذه الأمور. لم يكن ليؤمن بأيّ شيء منها، لأنّه لم يرها في حياته، كما لم يخبرها في حياته عن قرب. لكن السير خارجاً أثناء الليل أمرٌ محفوف بالمخاطر، فيجب على الإنسان أن لا يفرّط بنفسه.

«ليس لأنّه كان يؤمن بمثل هذه الأشياء»، أكّد له مايكل. «لكنها عادة فقط، فقد كان يخرج للتسكّع أثناء الليل حينما لا يكون قادراً على النوم. بالمناسبة، ماذا كانت تلك القهقهة التي تناهت من أعالي الجروف، هل سمعها أحد؟».

رفع ثوجر حاجبيه بازدراء «أوه، لعلّها كانت لحيوان يزعق، أو ربما كانت السِّعلاة».

«السِّعلاة؟».

«نعم»، ضحك ثوجر على نحو متضايق. «لا أستطيع أن أقدّم لك أيّ معلومات عنها، فبالتأكيد لم أرَ سِعلاةً في حياتي. وهذا الأمر ينبغي عليك أن تعرفه لأنّك شخص متعلِّم».

عندها نهض ثوجر وتمشّى خارجاً ليواصل طرق الحديد الساخن

على السندان إلى الحدّ الذي جعل الشرار يتطاير حوله.

أبحر مايكل للصيد. على بعد مسافة من فم الخليج؛ كان ينس سيفرستن يستلقي في قاربه. ما أن أبصر مايكل حتى نهض ونادى عليه، فجدّف مايكل صوبه.

«سمعنا أخباراً عن الحرب»، قال ينس. «كان هنالك بائع متجوّل في العزبة، كما سمعنا ذلك من الناس هناك. الأمور تسير بصورة ممتازة، فالملك يواكبه الحظّ طوال الوقت».

كان ينس سيفرستن منفعلاً بوضوح. لم يتحدّث عن أوتا إيفرسن، لكن مايكل فهم أنهم قد سمعوا أخباراً طيبة عنه أيضاً. لم يرغب بسؤاله فواصل التجديف مبتعداً عنه من جديد.

«هل تريد أن أخبرك عن السعلاة؟»، قال ثوجر ذلك بلطف عند المساء. «لقد كانت هناك سَعالي عديدة، إذا رغب المرء أن يصدّق ما يقوله الناس. لكن إذا هنالك من شخص الآن فهو صاحبنا بورا. نعم، أنت تحملق بي، لكن هذا ما أراد لنا الناس أن نصدّقه. ليس هو شخصيّاً، كما تعرف، لكن عقله الذي سُلب منه. كان بورا ممسوساً لسنين عديدة. هو أكبر سنّاً مما يعتقده الآخرون. أستطيع تذكّر ذلك تماماً، فقد أصبح مجنوناً ذات ربيع، وكان عذاب الحبّ هو الذي ذهب بعقله. لكن منذ ذلك الوقت بدأ الناس بالحديث عن السعلاة التي تقطن في أعالي الجروف، لقد سمعتُ ذلك مرّات عديدة. ذات سنةٍ غابرة، فيما كنت أحرق الملح، كنت أسمعها غالباً أثناء الليل أثناء مراقبتي للمراجل عند الساحل. بورا كان بصحبتي مرات عدّة، وسمعها هو بنفسه. لم يرَ أحدٌ السعلاة وأخبر عنها، لأنّ من يراها سيموت في موضعه».

العاصفة الرعديّة

ذات ليلة إستيقظ مايكل على وقع دمدمة ثقيلة في الهواء وضوء أزرق يخطف البصر في ذات الوقت. كان أبوه جالساً على الصندوق مرتدياً كامل ثيابه.

«سيحلّ علينا الرعد»، قال ثوجر بهدوء. «لا أعرف إن كان عليّ إيقاظكم».

سحب مايكل ملابسه، واستيقظ نيلس بسرعة بعده وارتدى ثيابه أيضاً. لا يزال الرعد بعيداً حتى الآن، لكنه كان يقرقع من دون توقّف تقريباً. كان يدوّي وكأنه في صدمات متواصلة إلاّ أنّه ما زال على مسافة ليست قريبة منهم. البرق يلعب بسرعة وراء بعضه بلا انتظام مثل شُعلةٍ تترامش.

«سيكون الأمر صعباً»، قال ثوجر وأدار وجهه نحو النافذة الصغيرة، التمعَ البرق، فلمح مايكل السِّيماء المُهيبة لمُحَيّا أبيه.

«هل يمكنكما الخروج مصطحبين معكما حاجز الماء إلى هناك؟»، ثمّ قال لهما بعد برهة: «لكي لا يبلّل الماء كلّ شيء في الخارج حينما يأتي، ثمَّ ثبّتا الناعورةَ بإحكام».

خرج نيلس ومايكل، لم تكن العتمة شديدة، لكن من جهة الشرق كان الظلام مثل جدار. السماء تتلاطم منذرةً وسوداء. كان البرق يتفجّر من هناك، حتى الحصى الصغيرة على الأرض أصبحت مرئيةً. كان البريق يمتدّ حتى أعلى السماء، حيث يبدو نقيّاً وأزرق. أحكم نيلس الناعورة

بثبات في صمت، وحين انتهى من ذلك فتح مايكل حاجز الماء فانهمر الماء فوق محاريك الناعورة دون أن يحرّكها. ذهبا بعدها ثانية وجلسا على الدكّة هادئين.

إقتربت العاصفة بسرعة، بين آونة وأخرى ينطلق برقٌ وحشيّ أبيض ممتزجاً باللمعان المتواصل. وفي كلّ مرّة يقترب فيها الدوّي أكثر من ذي قبل يجلجل الرعد بعنف مختلطاً بالدمدمة المُنذِرة في البعيد.

تصاعد عصف الريح في الخارج وغبّرت باتجاه الجدار الخارجي، الآن بدأت قطرات ثقيلة من المطر ترشّ لوح النافذة، تتكاثر، والريح تخشخش على السقف المكسوّ بالخَلَنج. أغلق ثوجر كوّة المدخنة. سلسلة بروق متواصلة ملأت البهو بضوء النهار، لمح مايكل عيني أبيه المتأهّبتين الهرمتين، وفي نفس اللحظة تقريباً أخذت السماء تدوي فوقهم بغضب، تفجّر قصفان مروِّعان تلاهما صلصلة حادّة طويلة كأنها دحرجة حجرٍ متبوعة برعدٍ أجوف.

«إنتبها لأعينكما»، قال ثوجر.

وحينما انبجس البرق التالي كان نيلس يجلس وقبعته على وجهه كي لا ينظر إلى السماء فتُعشى عيناه. بعدها ببرهة ألقى بنفسه صامتاً على السرير. ومضات نار صفراء وخضراء أخذت تأتلق في داخل البهو. سحب نيلس دثار الفرو فوق رأسه، ثمّ رأوه يقبع هناك وركبتاه مثنيّتان تحت ذقنه مثل طفل في رحم أمه. ثمّ فرقعت وفرقعت، أتى دويّ انفجار مروِّع مُشِلّ، وكأنّ السماء قد سقطت على الأرض.

لكن، هل سيكون صوت مثل هذا الرعد هو الصوت النهائيّ الذي سيسمعه مايكل؟

تتتابع البروق الآن بسرعة خلف بعضها بعضاً، حتى أن البهو بقي مضيئاً طوال الوقت، فيما كان الرعد يرجّ السماء والأرض من جميع

الجهات. المطر يَسُوط السقف بقسوةٍ، متناثراً في الخارج على عتبة الباب، منحدراً بعصفه نحو الجدول.

فجأة أخذت تهدر خارجاً عند المَصْهر، وكأنّ كُدْسَ الحديدِ قد انهار على بعضه، «باسم الربّ الرّحيم!»، صاح ثوجر رافعاً رأسه الأبيض في مطر النار، في نفسِ اللحظة إرتجّ المَصهر بضربة برق، فسمعوا مثل شفطةٍ قويّةٍ مجعجعةٍ ذات صَريف. بعدها جلسوا لوهلة في ظُلمةٍ كظُلمةِ القبر تغمرهم رائحة الكبريت، لهث مايكل طلباً للهواء.

حينما قدح ثوجر الزناد تصارع مع المِقدَحة حتى حصل على لَهَب. فتح باب المَصهر وتطلّع إلى الداخل، كان السندان مقذوفاً أرضاً عن قاعدته، والجَمَرات معصوفاً بها خارج الكُور، لكنها لم تشعل أيّ موضع سقطت فيه.

بعد فترة قصيرة بدأت العاصفة تخمد. أخذ المطر ينهمر من جديد في ختام غضبه. ثوجر ومايكل ذهبا خارجاً.

ثمة سحابة رعدية تلوح فوق المضيق البحريّ، زرقاء داكنة وكثيفة. كان البرق يشقّ الماء محوّلاً إيّاه إلى زَبَد. من جهة الشرق كانت السماء صافية ونظيفة، والنجوم تأتلق من جديد. تورّمَ الجدول معتماً ومضطرباً، كان كلّ شيء في بَلَلٍ والهواء يفوح برائحة العَرَق. لكنهم حين وصلوا أعلى التل المُشرِف على البيت أبصروا منظراً مفزِعاً. كانت الريف يحترق، دستة أماكن مختلفة تشتعل بلهبٍ عظيم يصّاعد شُعَله دون عائق في الهواء.

«أوه!»، قال ثوجر بتأثّر.

عمل جردة حساب سريعة للوضع. «إنها تحترق في قريتي جروبولا وكوروم معاً»، فاه بذلك في وهن عظيم. فجأة استدار... «كلاّ!»، هتف بارتياح. نظر مايكل لنفس الإتجاه، كان منزل ينس سيفرستن سالماً تماماً

عند منحدر الساحل. فكّر في آنا ميتا متأثّراً في أعماقه. لقد كانت تشغل قلبه أكثر مما كان يعرف.

«السقف ينزلق هناك»، تمتم ثوجر الذي استدار ثانية باتجاه الريف. ثمّة موضع تتواثب فيه النيران عالية كأبراج تناطح الهواء.

بدأت سحائب العاصفة تلوح فوق «سالنج». ومع كل صعقة برق تنقضّ، كان يمكنهم رؤية البيوت والحقول التي تشبه رقعة الشطرنج هناك. كان سطوعها شديداً إلى الحدّ الذي كان بإمكانهم فيه تبيّن حُزَم القمحِ التي تدحرجت على المنحدارت ورؤية الموج المُزْبِد على حافة الشاطئ. «لن يطول الأمر قبل أن يزحف لهب النيران إلى هناك، فالبروق تتوامض على الأرض. تأوّه ثوجر متفجّعاً على كل شيء.

«إنّها لليلة شاقّة على بعض الناس»، قال ذلك وهو يهزّ برأسه. «دعونا نلقِ نظرةً على المِطحَنة».

كان كل شيء كما هو عليه. بُركة المِطحَنة صعد ماؤها إلاّ أنّ السدّ كان صامداً. ناعورة الماء المنصوبة وسط الجدول كانت شبه مدفونة بالمياه. عاد ثوجر متحسّراً إلى البيت ثانية، لكن مايكل توجّه إلى أعالي التلّ، مستغرقاً في تفكيره ومأخوذاً بالمشهد المسرحيّ العظيم.

إنخفضت السحب قليلاً إلى الأسفل، كان الرعد يهدر صاخباً وبعيداً جداً، ولم يكن البرق بذلك السطوع المُعمِي. نيران الحرائق كان تتوهّج مثل مَحارق حُمر عنيفةٍ حول الريف.

إستدار مايكل نحو الجنوب، وهناك أبصر سحابة مرتفعة، مبرقعة ترتسم في السماء مثل جدار. حاشيتها الأبعد ساطعة وكانت في حركة داخليّة غريبة، كأنّها حيّة لمعانها كلمعان البرق القرمزي كأنّه لهب يتصاعد من خلفها... فجأة إنبثقت رؤيا صامتة من خلال فجوة السماء الناصعة، شبحُ فارسٍ، جواده يثب على قوائمه الأربع مشرئبّاً وذيله يمتدّ باستقامةٍ

للوراء، أقدامُ الفارس كانت تتجه صوب الهواء الطلق. خلفه تصاعدت إلى السماء أمواج دخان أحمر من الجياد والبشر، ألفُ رمحٍ مستدير باتجاه واحد، خيول ورماح جديدة تنبثق مباشرة في الهواء، تتدفق على امتداد السُّبُل الخالية، قاذفة بأنفسها عالياً وسافلاً، ترتعد مضطربة داخل السماء بلا أيّ نأمةٍ. ظلّوا يواصلون الإنبثاق مُشْرَعةً رماحهم، مصابين بدُوار المرتفعات، ليسوا سوى خيّالين في سباقٍ، ينطلقون نحو الأمام خافضين الرماح مثل سنابل قمحٍ منحنية تحت العاصفة. كانوا مُغِيرين في سرعة عظيمة لأنّ مقصدهم كان بعيداً. مثل ضربات نبضٍ داخليّة بهتت الجيوش، ثمّ أخذت تبدو للعيان من جديد. وانظُر الآن! جحافل الجيوش تتألق عالياً في السماء، حيث تنتشر وتعود تتجمّع، فرسان أشاوس في بِزّاتٍ منمّقةٍ والهركوبة[1] على أكتافهم، يخطون متّسقين عبر الهواء الساطع. القُوّاد المدرّعون إمتطوا جيادهم وعِصِيُّهم مُسنَدة بغطرسةٍ على أوراكهم. المدافع والعربات المليئة بالقذائف تتقدّم في أرتالٍ. خطاطيف البحر كانت تحلّق على مقربةٍ بتيهانٍ، فتاة شابّة بدينة تمشي مبتعدة بتنّورتها... كلابٌ مُشَمْشِمَة، سلاّبون، قساوسة وسحائب غِربان! ثمّ الفرسان من جديد مزخرفين في بذخٍ بالأزار المزخرَفة والوَشْي، بالرياش والأحذية اللامعة، وكلّهم شامخٌ بأنفه. حاملو الرايات الفتيان، الناعمو القوام كغِلمان الرُّعاة، رؤوسهم الجذّابة كانت تناطح السَّحاب، فيما كان نحافٌ، شِيبُ اللِّحى يحملقون بنظراتٍ شَرِهة من تحت الحواجب مثل النسور. إنحدرت القافلة تحت النجوم... كلّ فرسان الغِبْطة، كلّ العواصف الشَّرِهَة، وتلاشت مثل ضبابٍ في فضاءٍ بلا تخوم.

---

(1) الهركوبة (القربينة): سلاح ناري ذو ماسورة طويلة وفتيل، يُعبّأ من الفوّهة. (المترجم)

الإنتقام

فـي أحد أيام سـبتمبر كان مايكل قابعاً في زورقـه عند فم الجدول ويصطاد السـمك حينما لمح آنا ميتا قادمة، جدّف باتجاه الشاطئ وانتظر وصولها. حين أصبحت على مسـافة بضعة أقدام منه توقّفت وابتسـمت، كانت تعتمر وشاحاً أدكن على شـعرها. بادرها مايكل بالتحية ثمّ صمت الإثنان لبرهةٍ. كانت الطيور تحلّق أسـراباً فوق الحقول الرماديّة، والهواء صافياً بشـكل مدهـش وشـفّافاً. كلّ النباتات بـدت ذاوية في هـذا الهواء الناصـع العجيب. بدا كأنّ مايكل وآنا ميتا قد قـررا المكوث صامتين في غمرة هذا الطقس. كانت آنا ميتا أوّل من استعاد نفسه وشرع بالحديث:

«كنتُ أودّ رجاءك فيما إذا كنت ترغب بفحص سنانير صيد السمك التي تعود لأبي هـذه الليلة، تلك التـي في جزيرة موجهولـم، فلقد أبحرَ نحو المدينة. لكن الأمر لن يتغيّر إذا لم أكن قد التقيتُ بكَ».

«بالتأكيد سـأقوم بذلـك»، قال مايكل ذلـك دون أن يرفع عينيه عن آنا ميتا. كان يفكّر في أشـياء أخرى غير سنانير ينس سيفرستن. إستدارت آنا ميتا متأهبة للرحيل لكنّها تأنّت، شـاعرةً بأنّـه كان عليها ربّما أن تبدي امتناناً أكبر.

«أيمكنـكِ... ألا تودّين أن تصحبيني في مشـوارٍ بحريّ»، قال ذلك وهو يحاول الإبتسام.

ظلّت آنا ميتا واقفة بودّ.

«إنّه مسـاء لطيـف، ثمّ إنّ الشـمس لم تغـرب حتـى الآن»، واصل

مايكل كلامه. حدّق مباشرة في وجه آنا ميتا. تركت عيناها تجوبان فم الجدول، فيما شعر مايكل أن ثمة حياة متلاشية في عينيها الزرقاوين. نعم، لقد كانت ذكرى، ذكرى عن فترة أخرى.

«سيسعدني ذلك»، أجابت بنبرة خافتة جداً ثم نظرت ثانية نحو الماء غارقة في أفكارها.

«هيا بنا إذن!»، صاح مايكل بفراغ صبر. تغاضت عن النشاز الذي تخلّلَ صوته ومدّت قدمها على سياج القارب. لم تتح لمايكل فرصة لمساعدتها، فلقد قفزت بخفّة إلى داخل القارب وجلست مباشرة على مقعد التجديف الخلفيّ. جدّف مايكل منساباً مع التيّار.

ظلاّ صامتين مدّة طويلة، آنا ميتا كانت تحدّق في سطح الماء. لامست الشمسُ الأفقَ وأخذت بالتوهّج مثل جمرةٍ، ملوّنةً المضيق بهذا الوهج. كان الهدوء يغمر كلّ شيء، حتى أنّ تغريد الطيور كان يُسمَع بوضوح من جهة اليابسة. شرعت آنا ميتا بالحديث قليلاً عن بعض الأمور العاديّة، لكن مايكل لم يرد عليها إلاّ بكلمات قليلة. إنساب الزورق بعيداً مع آخر تيار خافتٍ في مجرى الجدول. صمتت آنا ميتا من جديد.

وغربت الشمس.

بعد فترة قصيرة تجعّد الماء بنفحات النسيم الهابّ من اليابسة والذي تصاعد نحو الشفق.

«علينا أن نعود إلى البيت الآن»، قالت آنا ميتا متحسّرة وكأنها كانت تطرد أفكارها بعيداً عنها. لم يردّ عليها مايكل. رفعت بصرها نحوه فالتقت عيناها بنظرته القاسية في نفس اللحظة التي أمسك فيها المجاديف بيديه الاثنين وطوّح بها بعيداً عن القارب. نهضت من مكانها بقوّة وخفّة جعلت من القارب يميل، واستدارت باتجاه اليابسة التي بدت

الآن بعيدة عنهما وهما يبحران في أعماق الماء. أرادت أن تصرخ عالياً لكنّها نسيت كيف، مشلولة بالذكريات المتدفّقة، فأطلقت صوتاً قصيراً، شهقة، ثمّ انهارت على مقعد التجديف من جديد.

نهضت بقوة جعلت القارب يتهزهز تحتها واستدارت بجسدها إلى جهة اليابسة، كانت بعيدة جداً، وأرادت أن تصرخ بكل قواها لكنها أحست بصوتها يحتبس وكأنها نسيت كيف عليها ان تصرخ، ولم ينطلق من حنجرتها سوى صوت واهن ثم جلست على الدفة من جديد.

شبك مايكل ذراعيه الحرّتين على هيأة صليب.

عندها وثبت آنا ميتا والدمع والصراخ يتفجّران منها.

«ما هذا يا مايكل، ماذا تريد؟ المجاديف...!».

«دعيها تنجرف»، قال مايكل بنبرة غاضبة غير مسيطرة. «أريد أن آخذك من أوتا إيفرسن».

«أوه، كلاّ يا مايكل! آه كلاّ!»، توسّلت بجزع، تضرّعت وانتحبت بصوتٍ عال، سحبت نفسها لبضع خطوات في قاع الزروق وشبكت يديها باسترحامٍ نحوه.

«أُقعُدي في مكانك!»، قال مايكل بصرامة. جلست مذعنة، دفنت رأسها في يدها وبكت.

هبط الظلام، والماء أمسى معتماً. صار من الصعوبة رؤية طرف الساحل، الضباب يتكاثف في الهواء. من جهة الغرب كانت السماء تبدو عميقة وخضراء. القارب ينساب بسلاسة مبتعداً، الرياح تهبّ. الماء يطرطش بهدوء.

خمّن مايكل بأنّهما سيرسيان قريباً من شمال «سالنج» بعد أربع أو خمس ساعات.

الوقت يطول. نظر مايكل صوب آنا ميتا، كانت ما تزال جالسة

ورأسـها منحـن نحـو حَجْرِها وهـي تبكي. فجـأة رفعت يديهـا من على وجهها ونظرت إليه.

«كنـت أعتقد إنّك رجل طيّب يا مايكل»، قالت ذلك بشـجنٍ وكان صوتها منهَكاً من البكاء.

«لكنني كذلك»، أجاب مايكل وهو يرتعد. سـيطر على نفسه بجهد عظيم.

«أنتِ في قلبي، يا آنا ميتا»، تأتأ لوهلة قصيرة وصوته مليء بالحزن. لم يكن بإمكانه أن يقول أكثر، فلم يعد يعي شيئاً وأضحى غير قادر على فهـم ترابط الأمور. كان لا يشـعر سـوى بجروح الخسـران والأذى تثقل على روحه وتسلمه إلى التعاسة.

إنسـاب القارب رابط الجأش فـي عمق المضيـق المعتم، حيث لـم يَعُدْ بمقدور أحدهما رؤية اليابسة من هناك.

الثأر

كان يوماً ضبابياً، ناعم المطر، من صباحات أكتوبر حين رَسَتْ سفينة كبيرة عند رصيف الميناء في كوبنهاغن. كانت قادمة من السويد. وحين وضع سلّم السفينة في مكانه هبط منه سادة عديدون إلى اليابسة يتحدثون بابتهاج ومرح، وسرعان ما توجّهوا صوب المدينة.

واحد منهم فقط ظلّ في مكانه واقفاً بعد أن ودعه الآخرون وداعاً حميماً. لقد كان أوتا ايفرسن، وهو الآن في انتظار حصانه الذي ما زال على متن السفينة. لقد إنتهت الحرب في السويد نهايةً محظوظة، وهو الآن قد نال الشرف والمَغْنَم معاً، لذا فقد أعطي الإذن بالإجازة، وهو الآن لا يريد سوى العودة إلى البيت، البيت فقط.

فيما كان واقفاً بانتظار حصانه تطلّع حوله مندهشاً كونه قطع كلّ هذه المسافة. كلّ البيوت وما حولها ظلّت على عهدها كما تركها قبل ثلاثة شهور. لفت انتباهه رجل عجوز مشتمل بعباءة سوداء، كان يقترب بشكل غريب من السفينة ويتحدّث مع الرُّبّان. حينها لمح رأس حصانه مع رجلين قدما بصحبته وهما يحاولان إغراءه بالنزول على جسر السفينة نحو رصيف الميناء. كان يعارض بضراوةٍ وينفض رأسه في الهواء. حين استدار أوتا إيفرسن كان الرجل العجوز قد توجّه نحوه، وها هو الآن يقف أمامه منحنياً بتهذيب.

«هل أنت السيد أوتا إيفرسن؟»، سأله بالألمانية. وحين ردّ عليه بالإيجاب تلاشى التعبير المتذلّل من على وجهه ودنا منه قائلاً بصوتٍ خافت:

«قبل ثلاثة شـهور قام شخص يدعى أوتا ايفرسـن باقتحام حديقتي ودنّسَ إبنتي... أنتَ ذلك الشخص! نعم، بإمكاني رؤية ذلك...».

تطاول بعنقه إلى أمام وغرس نظرته كمسمارٍ في عيني أوتا يفرسن، كان فمـه مُعْوَجّاً والصـوت ينطلق من حنجرتـه مثل نعيب طيرٍ، مشـوِّهاً الكلمات:

«فلتكـن ملعونـاً على هذه الأرض! أتسـمعني؟ بلا راحـة ولا نوم! عسـى أن تكون اللهفة كأسك ويصير خبزك كالحَجَر في فمك! فلتتعفّنْ! نعـم، تتعفّـن، وتتفسّـخ كبرياؤك بين سـاقيك! عسـاك ترى أمَّـك وأبيك يموتان من العار! آخ! فليحلّ الشؤم عليك! ليتك تضوى ككلبٍ أجرب، وجثّتك تنسرب من ثُقُوب الكَفَن! فلتحلّ عليكَ الكارثة!».

كان الرجـل العجـوز يقلب عينيـه فـي محجريهما، فيمـا كان يرفع مخالبه السُّمر لاعناً في الهواء.

حينما انسـحب أوتا إيفرسـن عائداً لاحظ أنّ فرسـه باتـت مهيّأة له في الخلف، فاسـتدار على أعقابه وأمسـك بالزِّمام. بـدأت الفرس تخبّ وأوتا يرافقها على الجانب، ثمّ وثبت مرّتين على سـاقٍ واحدة، تثبّت من الرِّكاب ودار بشكل لولبيّ ليستقرّ بعدها على السَّرج. دقائق قليلة وكانت فرسه تعدو به عبر بوّابة «فيستربورت».

ومـا أن انطلق بفرسـه حتـى أحكم إغـلاق وعيه، غير متيح لنفسـه تقبّل أنّه قد سـمع شـيئاً. صالبَ من نفسـه مطبقاً سـاقيه على بطن فرسه وأسـلم نفسـه لانطلاقة الفرس وجَلَبَتها. كان الهواء يرعد عبر أذنيه، فيما كان يحاول طرد اللعنات بعيداً عنه، غير سـامح لها بمسّه على الإطلاق. الحقـول والبيـوت والغابات الصُّفـر كانت تسـتدير حوله، وفـي كلّ مرة يخطـر العجـوز في بالـه يحرّك العنـان والمهمـاز مطلقاً نفسـه في حركة أعنـف، وهكذا يمحو ذلك اللقاء السـيء من ذاكرتـه. وحين دخل مدينة

«روسكيله»، مبلّلاً بالعَرَق والبخار، تلاشت تلك الحادثة من ذهنه تماماً. وعندما شدّ الركاب مساءاً منطلقاً عبر غابة «سورو»، مُسخَّناً ومصطلياً بالمشوار المسعور، كان قد أقصاها عن مداركه تماماً. فقط عند وصوله لبلدة «كورسو» ترجّل عن الفرس طلباً للإيواء، فقد كان الظلام دامساً.

في صباح اليوم التالي إستيقظ أوتا إيفرسن، «آنا ميتا!»، قال ذلك لنفسه وقفز من السرير. بعد نصف ساعة كان يقطع الممرّ المائيّ مبحِراً في مزاج رائقٍ، لكن بنفاذ صبر. فالتوق إلى البيت كان يكوي أحشاءه كالحمّى.

بعد أن اجتاز أوتا جزيرة «فين» إنتبه حينها إلى فرسه، فلم يكن قد أدركَ أمرها من قبل. كان حصانه الشخصيّ البنّي اللون قد أصيب بطلَقٍ ناريٍّ في أثناء معركة في ستوكهولم ومُنحَ بدلاً منه فرساً كميتاً ممشوقةَ القوائم. شيطان لحيوان لا يقهر - لكن هذا الحيوان كان يرتجّ مثل جذع شجرة عند الركوب، ليس ثمة احتمال أنّه سيلقي بالاً لما سيعترض الطريق. هه! إنّها قضية سوط ومهماز طوال الوقت. لم يكن هذا\الحصان حصان أوتا الشخصيّ الذي كان سلس الإنقياد، متهيّئاً دائماً للإندفاع بلا حدود. إنّه يرقد الآن ميّتاً في السويد... آه، هكذا الأمر إذن! ونَشَر أوتا فم فرسه الكُمَيت الممشوقة بشَكِيمتها. ومع ذلك، فقد أظهر إحتراماً ما للحيوان الذي كان يجري، يجهد، ويتعرّق بلا إنقطاع.

على الجانب الآخر من جزيرة «أودنسه» كانت العاصفة تهبّ مصحوبة بخفقات مطر من جهة الشمال. خفض أوتا رأسه وحثّ السير بفرسه. بعد قليل إستبدّ به الغيظ من جديد، أَلا يمكن لهذا الحيوان المسحوق أن يجهد نفسه ولو قليلاً؟ إضطرّ أوتا لأن يميل مجنّباً نفسه العاصفة، صاح بفرسه رافعاً سوطه خمس أو ستّ مرات على رقبتها إلى أن جرت بملء سرعتها. إشتدت العاصفة فيما كان أوتا يقود

فرسه بوحشيّة، إلاّ أنها توقّقت فجأة لبرهةٍ وارتجفت بغرابة، غير مبالية بفارسها، جأر أوتا من شدّة الغيظ، فلن يستريح قبل أن تحين اللحظة التي لا بدّ منها، فعليه أن يصل إلى البيت.

في كلّ الإصطبلات التي كان أوتا إيفرسن مجبراً على الإستراحة فيها، كان سوآس الخيل يعاينون فرسه بتشريفات خاصّة مقطّبين، حكمتهم الصامتة تقول: اليوم حصانٌ قويّ، وغداً هزيلٌ ضَوِيّ.

آنا ميتا! فكّر أوتا إيفرسن عند الممرّ المائيّ الصغير، حتى أنه قالها بصوت عال ذات مرّة. سار بفرسه عبر الغابات المجاورة لمدينة «فايلا». ليومين كاملين كافح وتخاصم مع فرسه صاعداً ونازلاً الريف الملتوي، عبر الغابة ومجرى النهر، مجتازاً قرى الفلاحين، الكنائس القرويّة، الباعة المتجوّلين، الأكواخ، والعجول الصغيرة. بدأت تمطر أولاً، بعدها أخذت الشمس تشرق. الطيور المهاجرة تئزّ في أسراب فوق الغابة الصفراء. كان الليل قد حلّ حين وصل إلى «رانيدرز» والبوابة أُغلقت، إلاّ أنه استدار بفرسه حول المدينة، تاركاً للفرس أن يسبح في الساقية، ثمّ واصل بعدها رحلته.

حينما كان أوتا إيفرسن يهبط فجراً من على تلّة منحدرة شعر فجأة بأنّ ظهر الفرس قد تقوّس تحته، بعدها انهارت على قائمتيها الأماميتين وسقطت مباشرة على رأسها فوق الأرض. ترجّل أوتا عن السرج ورفع عنق فرسه، لكنّ عينيها كانتا آنذاك تبرقان. إرتعشت قوائمها المُشْعِرة الممشوقة بضعة مرات قبل أن تموت بذات الصمت الذي كانت تعدو، وتكافح وتجمح به عبر أغلب طرقات الدنمارك. تناول أوتا إيفرسن السرج من على ظهر الحيوان النافق ومضى سيراً باتجاه أقرب بلدة.

بعد منتصف الظهيرة بقليل إستطاع أوتا إيفرسن أن يصل بيته على ظهر جواد جديد. إنطلق فوق الهضاب بملء سرعته، قاطعاً الوادي

خلال بضع دقائـق، منطلقاً باتجـاه منزل ينس سيفرسـتن. وثبَ من على السرج ثمّ اسـتدار لاهث الأنفاس نحو الباب. فتح ينس سيفرستن الباب ببطء وخرج حاسر الرأس.

«آنا ميتا»، سأل أوتا، «أين هي؟».

«آنـا ميتـا لم تعـد في البيـت»، قـال ينس سيفرسـتن ذلـك بصوت خفيض ونظرة حائرة. «بعد الآن»، أضاف بعد ذلك.

«ماذا، ماذا؟ أين هي إذن؟».

إنكمـشَ ينـس سيفرسـتن على نفسـه وكأنّ رياحـاً باردة قـد بدأت تهبّ. أراد أن يقول شـيئاً لكنّه حين رأى ملامح السـيد الشـاب أضحت ممتقعة وواهنة بقي صامتاً في ذعر.

«أين هي؟، سأله أوتا هَلِعاً.

«إنّها تخـدم الآن في سـالنج»، أوضح ينس سيفرسـتن، وفي غمرة معاناته خطا إلى الأمام وأخذ يملّس عُرْف الحصان الذي استكان له وهو يمسّد شعره ويسوّيه. بعدها شرع ينس يقصّ عليه، في رَوِيَّةٍ، ما حدث.

«نعم، قـد كانت هناك منذ شـهر تقريباً. وفي نفـس الوقت فإنّ إبن ثوجر قد اختفـى هو أيضاً، مايكل ذاك، الذي جاء مـن كوبنهاغن. حينما عدتُ إلى البيت أخبروني أنّه خرج للصيد، لذلك فكّرت في أنّه ربّما قد يكون قد انحدر صوب سالنج».

عند هذه اللحظة كان ينس سيفرستن ينظر بحِيرةٍ إلى فوق.

«فتّشـتُ وسـألتُ أيامـاً عديـدةً دون كللٍ هنـاك، لكن مـا من أحد رآهما هناك أو عرف عنهما شـيئاً. منذ أربعة أيـام فقط عثرتُ عليها، إنّها تعمل كوصيفةٍ في إحـدى المزارع غرب سـالنج. إلاّ أنها لا تريد العودة إلى البيت بالرغم عن كلّ ما قد عرضته عليها، أو محاولاتي إقناعها».

خفض ينس سيفرستن من صوته.

«لا يبدو عليها أنها قد تعرّضت لأذىً، هكذا كان بادياً، لكنّ معنوياتها كانت هابطة جداً. أمّا مايكل... فلا تريد حتى سماع إسمه. حتماً إنّه رحل بعيداً».

تطلّع ينس سيفرستن إلى فوق ثانية، فقد كانت الحقيقة بادية للقراءة فوق شفتيه الخجلتين.

«لقد كان هو من فعل ذلك»، أضاف بتوتّر شديد رغم حزمه.

وفيما بقي أوتا إيفرسن صامتاً سوّى ينس بعنايةٍ خصلةً أخرى من عرف الحصان وقال شبه هامس تقريباً: «ثوجر الحدّاد ليس أقل تعاسة منّي على ما حدث. فقد اختفى الإبن تماماً والعار يلحق به، لكن ما زال لديه نيلس، أمّا أنا فوحيدٌ الآن. أشياء كثيرة يمكن أن تقع للإنسان، حتى وإن كان عجوزاً، نعم، ذلك ممكن بالتأكيد. ماذا يتوجّب عليّ أن أقول...».

أرخى ينس ذقنه على رقبة الحصان وحدّق، وهو يفكّر في عمق، فوق المضيق البحريّ، حيث كان الماء ينساب بارداً تحت السحب المتأرجحة. إستدار أخيراً ونظر نحو وجه أوتا إيفرسن بضع لحظات. لم يكن وجهاً، فالتعابير ممحوّة منه والملامح إنكمشت في الوسط تماماً، مثل وجه قطّة إختنقت بالدُّخان.

أفلت ينس سيفرستن الحصان وانتحى جانباً مهمهماً بكلمات خافتة، ببعضٍ من صلاة.

لكن أوتا قفز على السرج، وحثّ السير إلى أمام.

«هيّا!»، قال لحصانه، ثمّ انطلق نحو البيت في «موهولم» على خطى موقّعةٍ لحصانٍ يسير الهوينى.

الموت

فـي منتصـف الصيف، حينمـا ترتفع الشـمس عالياً ويغمر الأشـياء سـكونٌ مشـوَّش، حتى أنّ ومضات الضوء المنبعثة من السـماء الجنوبيّة تلتمـع في غمـرة بياض ضـوء النهار بضوء أشـدّ تألقاً. بعد سـتة شـهور تمامـاً، عندمـا تتجمّـد ميـاه المضيـق البحـريّ وتكـون الأرض مدفونـة بالثلـوج، وتعود الأشـباح إلى عبثها هنـاك. في الليل يطلـق الجليد الذي يغطّـي المضيق، وهـو يتصدّع من طرفه إلـى طرفه الآخر، صوتاً يشـاكل صوت إطلاق نارٍ، أو مثل صياح مخلوق مجنون.

المزارعـون يشـقّون أنفاقـاً تمرّ مـن أبـواب بيوتهم عبـر المجاري المتجهة للزريبـة. أين هي العفاريت والجـان الآن، أين أضحت أصوات الطبيعـة؟ أليسـت السـعلاة ميّتـة الآن ومنسـيّة. لم يعـد ثمة فـرق الآن، فالوجـود قـد تقلّـص. القضية الآن هـي البقاء علـى قيد الحيـاة. الثعلب يتخبّط في غمرة عاصفة الثلج شاقّاً طريقه عبر أجمة السنديان وذعر قاتل يعتريه.

إنّه وقت السـكون الآن. طبقة الجليد تخفي ميـاه المضيق لزمنٍ لا نهائيٍّ. طوال اليوم كانت تنبعث حسـرات الإسـتغراب قادمـة من الثلج، ثمّة صيّاد يقف وحيداً عند فتحة الجليد شاكّاً الحنكليس بخُطّافه.

ذات ليلة أثلجت السـماء مـن جديد، كان الهـواء جليديّاً، العاصفة تتدفّق بالبرد. ما من كائن حـيّ يتحرّك. حينها قدم فارس إلى المعبر عند «فالبسوند». لم تكن ثمة صعوبة في اجتيازه حتى أنّه لم يحاول التخفيف

من سرعته، بل خبّ بجواده قافزاً بنشاط من الشاطئ إلى طبقة الجليد.

إنطلق من أسفله صوتٌ مثل ضربة برق، وهدر الجليد من حوله لعدّة أميال. استطاع العبور إلى الجانب الآخر والمضيّ بجواده نحو الريف. كان الجواد يخترق عاصفة الثلج بعنق مشرئبّة، مهرولاً في جبروت وقوائمه تسابق الهواء.

أطاحت العاصفة بعباءة الفارس الرماديّة جانباً، فانكشف عارياً على حصانه بارز العظام والثلج يَصفِرُ في أضلاعه. لقد كان الموت، ذلك الذي يخبّ بحصانه. تاجه يستقرّ على ثلاث شعرات، منجله يشير إلى الوراء في انتصار.

للموت نَزَواته. غالباً ما يترجّل عن جواده حين يرى ضوءاً متّقداً في ليلة شتائيّة، يصفق جواده على فخذه فيثب عالياً في الهواء ثمّ يختفي. حينها يمشي الموت بقية الطريق مثل إنسان نسي ما يقلقه هناك، يسير الهوينى مبتعداً، حائر الفكر.

فوق غصن عند حافة الطريق قبع غرابٌ ذات ليلةٍ جرّحتها الثلوج. بدا رأسه كبيراً قياساً إلى جسمه. كان يتطلّع نحو الرجل المتسكّع وكأنّه يعرفه وعيناه اللؤلؤيتان تومضان، كان ينعق ويضحك من دون صوت، فاتحاً منقاره على اتّساعه ونصل لسانه يمتدّ بعيداً في الهواء. كان يبدو وكأنّه سيهوي من على الغصن من شدّة الضحك. ظلّ يواصل تحديقه في الموت بجذلٍ شَرِهٍ.

يواصل الموت إبحاره، فجأة يكون إلى جانب رجلٍ، ينشب مخالبه في ظهره مخلّفاً إيّاه طريحاً على الأرض.

ثمّة ضوء. يبصر الموتُ بصيصَ ضوءٍ فيمضي صوبه، يواصل سيره نحوه متسللاً على امتداد الحقل المحروث المتجلّد. لكنه حين يقترب بالقدر الذي يمكنه فيه تبيّن البيت يحسّ بحمّى غريبة تجتاحه. إنّه بيت

رائـع هذا الـذي وصل إليه، فهـو منزله منـذ البدء. مصاعـب كثيرة مرّت عليه قبل أن يسـتطيع العثور على بيتـه، لكن الحمد للـه الآن. إنّه يدخل البيـت، بضعـة كهول وحيديـن يسـتقبلونه، لا يـرون فيه أكثر مـن حِرَفيّ جـوّال، منهوك القوى وسـقيم. سـرعان ما يلقي بنفسـه على السـرير من دون أيّ كلمـة، بإماكنهم أن يعرفوا أنّه مريض. إضطجع على ظهره، فيما هم يتجولون حاملين الضوء في الغرفة ويتحادثون، ناسياً إيّاهم.

إضطجعَ لفترة طويلة، هادئاً ومستيقظاً. بعدها شرع بالتنهّد تنهّدات متلعثمة ومتقطعة وكأنّه يحاول أن يختبر نفسه، بكى ثمّ سرعان ما توقّف من جديد.

لكنّـه ظلّ يواصـل التنهّد، بصوتٍ أعلـى، كان يئنّ بعينيـن جافّتين. إضطجع مثنيّاً متقوّس الظهر، مسـتنداً فقط على قفـاه وعَقِبيه، محدّقاً في كَـرَبٍ باتجاه السـقف وهو يصـرخ، يصرخ مثل امـرأةٍ في طَلْـقِ الولادة. أخيـراً انهارَ وتنهّداتـه لم تكن بذات الصخب. ثم صمـت في نهاية الأمر ورقد بهدوء.

اللّقاء

في عام 1500 سارت كتيبة الحرس بقيادة الفارس سلينتز في مسيرة عسكريّة عبر شوارع «هولستين»، وكان قد تمّ تنصيبه من قبل الملك هانس والدوق فريدريك، الذي كان قد وضع «ديتمارسك» نصب عينيه.

على الجناح الأيمن من إحدى السرايا كان يسير مايكل ثوجرسن، الذي انضمّ للخدمة في قوّات هذا الفارس منذ نصف عام. أظهر مايكل قدرات جيّدة في مختلف المراتب، فقد كان هيكله طويلاً ورشيقاً، كما أضفى شارباه الأحمران تأثيراً مهيباً على هيئته. كان شبيهاً بذلك اللّص الذي صُلب فوق الصليب، ليس الذي كان مع الناصريّين، بل الآخر. سلاحه كان بندقيةً ذات فتيل وسيفاً، يرتدي بنطالاً مخمليّاً أزرق مزركشاً، سترة من الجلد وخوذة حديديّة. كلّ عدّته كانت تعود في الأصل إلى جثّة عثر عليها مايكل مطروحة على الطريق ذات صباح. إلى جانب مايكل كان يسير كلاس الذي ما يزال حياً إلى الآن.

شرع رفاق السلاح في الإنشاد بالألمانيّة، واشترك مايكل معهم بأحسن ما يستطيع:

فكّروا، يا رفاقنا، بنصرنا المجيدْ
تذكّروا الدّماءَ - يا للمشهد البهيجِ، مشهد الدماءْ
رؤوسهم تطوفُ في مستنقعِ الأحشاءْ
دماؤهم تنزّ والجحيم يستزيدْ.
فلنقطف الأيادي ونقلع العيونْ

إيّاك أن تفكّرَ في من يموت
لنخترقْ صفوفهم ونقطع الرقاب
سيكون الكلّ موتى قبيل الغروب.

تذكّر يا صديقي زوجتكَ الحسناء
دع التحسّر والدموع والخصام
لكن لِمَ الضحك هذا، لِمَ الابتسام؟
تراكَ تفكرّ فيها بأيّ سرير؟
فلنقطف الأيادي ونقلع العيونْ
إيّاك أن تفكّرَ في من يموت
فلنخترق صفوفهم ونقطع الرقاب
سيكون الكلّ موتى قبيل الغروب.

تعلّم من الطير كيف يغادر عشّه
وأحلام مجدٍ ترفرف في الصدر منه
لم يعد يتذوق غير الغنائم تحت الحراب
فللدود نفس المذاق بأيّ تراب.
فلنقطف الأيادي ونقلع العيونْ
إيّاك أن تفكّرَ في من يموت
فلنخترق صفوفهم ونقطع الرقاب
سيكون الكلّ موتى قبيل الغروب.

زفير جهنّم يهبّ، ألا من مزيد

تناسَ الألم يا صديقي، تناسَ الهموم
تذكّر نشيد الغراب العتيد:
نحتسي خمرها وبعدها نطير
فلنقطف الأيادي ونقلع العيونْ
إيّاك أن تفكّرَ في من يموت
فلنخترق صفوفهم ونقطع الرقاب
سيكون الكلّ موتى قبيل الغروب.

في نهاية اليوم صمت الجميع. لقد ساروا مسافات طويلة وما زال أمامهم المزيد ثانية. حين اقتربوا في النهاية من معسكر الملك عند منتصف الليل، كان كلّ رجل منهم منهكاً مثل حيوانات الجَرِّ. كان القمر يسطع وثمة طبقة رقيقة من الثلج تغطّي الأرض. سار مايكل طوال الطريق وعيناه مطرقتان، فقد كان منهكاً حدّ الموت يجرجر نفسه طوال الساعات الأخيرة. بعدها تنبّه فجأة إلى الظلال التي كانت تمتدّ مائلة أمامهم فوق الثلج، ستّة ظلال مضطربة للكتيبة التي كان يسير معها. لاحظ مدهوشاً أنّ هنالك إختلافاً كبيراً بين تلك الظلال، بضعة منها كانت إلى درجة ما أقلّ عتمة، فيما أنّ ظلاله كانت تبدو أشدّ عتمة من ظلال الآخرين. فكّر في ذلك قليلاً، مرتعشاً لوهلةٍ من الخوف، ثمّ نسي الأمر، بعدها عاد إلى ذهنه من جديد.... واستمرّت المسيرة، مع حشد لا تحيط به العين من المتدفّقين. كان كلّ واحد منهم مستعداً للإنهيار من شدّة الإجهاد، لكنهم ظلّوا يواصلون مسيرهم مع بعضهم، وكان مايكل يمضي معهم، ناسياً كلّ شيء في العالم من جديد.

وصلوا إلى المعسكر ونالوا قسطاً من الراحة. إستطاع مايكل النوم في أحد المخازن مع مئات آخرين. لكنه حينما إستغرق في النوم لسعته حرارة شديدة إخترقت جسده فقفز مطلقاً شهقة. لم يكن حوله سوى

ظلمة المخزن، إلاّ أنه أبصر جحفلاً يتدفّق لأميال ويملأ مرمى البصر، رايات سود تبتعد للأمام متجهة نحو السماء المنخفضة. وكان مايكل معهم، شعر بذات الكآبة البكماء التي تصيب كلّ رجلٍ مُنهَكٍ في جيشٍ لا نهاية لها. في نفس اللحظة تقريباً شهق كلاس إلى جانبه. همس بضحكة مكتومة وبودٍّ خاصّ لمايكل أنه كان يحلم بأنهم ما يزالون يواصلون المسيرة إلى الآن.

تنبّه مايكل في نومه عدّة مرات تلك الليلة، معذَّباً بآلام المسيرِ ورؤيا الجحفل الخانقة. وفي كلّ مرّة يستيقظ فيها يتناهى إلى سمعه بين آونة وأخرى صوت شخص جالس على القشّ ويتأوّه من حوله في المخزن الوعر.

كان ذلك في شهر يناير حينما التحقت الكتائب بجحافل الملك هانس. بعد مرور سنتين أمكن لمايكل أن يتحدّث مع أحد الدنماركيّين من جديد، حينها اكتشف ذات يوم أن أوتا إيفرسن إنضمّ لجحافل الملك كحامل راية في سلاح الفرسان. إستعر الحقد في دواخله. كان يتوق لرؤيته، لكن ألا يمقته أوتا إيفرسن بعنف؟ يأمل أن يكون قد فعل. لكن مايكل لم يكن محظوظاً بما فيه الكفاية ليمكنه رؤية أوتا إيفرسن، بل على العكس، فقد إلتقى مصادفة ذات يوم بكلاس الذي أخبره بذلك، مذكّراً مايكل بتلك الأمسية في كوبنهاغن قبل ثلاث سنين. كان أمراً غريباً على كلّ حال، هكذا وجد كلاس الأمر. هينريش...؟ لقد مات، قتله أحد الفلاحين الأغبياء. هزّ كلاس برأسه، فلا يمكنه نسيان هينريش على الإطلاق.

الآن إندلعت هذه الحرب. بدأت، كما يعرف الجميع، بفخامة عظيمة وثقةِ نفسٍ من قبل المهاجمين، ثم انتهت ببؤسٍ لا يُصدّق وموتٍ على حدّ السكّين. إنهم يمثّلون دراما مسرحيّة بارعة من خوالي الأيام.

لاحـظ المفارقـة الكوميديّـة في الحبكـة: هـؤلاء الفرسـان، الواثقون في الحقيقة من تفوّق قوّاتهم، يضعون الدروع على مركباتهم الحربية نافخي صدورهـم المزيّنـة بالسلاسـل الذهبيّـة. هـذا الكولونيـل الفظّ، سـلينتز، المتأهّب لبقر بطون الديتمارسـكيّين بطرف شـاربيه لا غير، خمسـة عشر ألفاً من القلوب الموصدة على الدم السـاخن. مهرّجو الفرسان، بير دوق «ميلـدروف» وبازل كونت «هامنغسـتيد»، ومـع، كخاتمة شـاعريّة مرعبة مسموح بها، خمسـمائة مركبة في المؤخرة لجمع الغنائم. كلّ هذه العدّة الهائلـة ينبغي ألاّ تكون مفاجئة لأحـدٍ ممّن لا يعرفـون العاقبة، لأنّ هذه ببسـاطة طبيعة بشـريّة. من الطبيعي للكائـن الحيّ أن يتبجّح بالسـرمدية، فذروة الحيويّة تجد تعبيراً لها في الفخر والتهديد، أرفع قدرات الإنسـان هي الكـذب المدمِّر. حين يكون الإنسـان في ذروة قوّته فعليـه أن يَقتُل، فالحياة تَقتل.

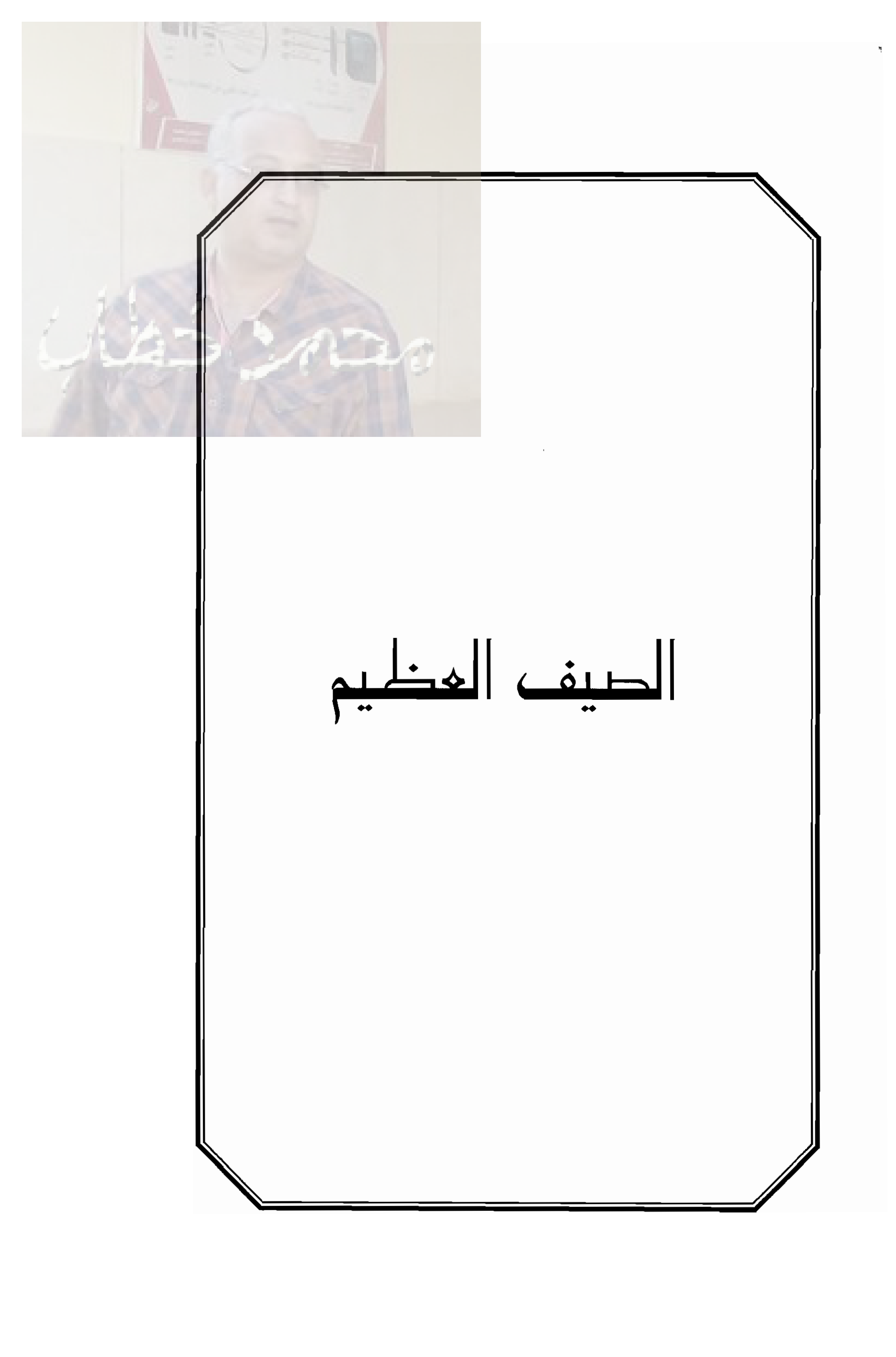
والآن إلـى المشـهد الثانـي: المجزرة. هـذه الـرؤوس المرتفّعة قد أُسـقطت بهراوات الفلاحين فـي إخراج بارع تحت عاصفـة وذوبان ثلج ومطـر مـن الشـمال الغربي وفيـض مدٍّ وجـزر للبحـر المتلاطـم. بضعة مدافع مسـتهلكة تقذف بحممهـا، والقذائف تفرقع بين صفوف العسـاكر المتراصّـة. المـوت يتمطّـق بصوت عـالٍ غيـر مهـذّب وفكّاه محشـوّان طعاماً. إنّهم يغرقون، يُداسـون في الوحل، والديتمارسـكيون أبدوا مهارة بالإنفتـاح على كلّ الدمـاء التي كانت تتدفـق بعنف في الفضـاء. الجنود القدامى، الذين شُـكّ فيهـم ثقباً، لم تنـزف دماؤهم بتلك السـرعة، لكن الشـبّان الريّانيـن منهم أفرغوا أوردتهم في رشّـةٍ واحـدة تقريباً. تلك هي عقـدة الدرامـا ومحورها. حتـى الحبكة ذاتهـا بدت، كمـا نوّهنا سـابقاً، مترابطة بقوّة تناقضها الداخليّ.

أبصر مايكل ثوجرسـن كلاس وهو يسقط. قرويّ ديتماريسكي بزغ

مثل البرق إلى جانبه وأطاح بقطعة كبيرة من رأسه ببلطته.

بعد ذلك بقليل ولج مايكل إلى الخندق وغطس تحت طبقة ماء لاسع البرودة. إنجرف لمسافة ما عائداً مع التيار قبل أن يستطيع الطلوع من جديد. حينما استطاع التمسّك بشيء ليثبّت نفسه أخذ نَفَساً عميقاً، ثم رأى أنّه قد انحدر تماماً إلى موضع خيّالة الملك. كان المكان أشبه بعصيدةٍ من لحم الخيول والرجال أكثر مما هو معركة نظاميّة، لم يعد يمكنهم التقدّم ولا التأخّر. الهلع وسفك الدماء كان هو السيّد.... لكن مايكل كان يبحث عن أوتا إيفرسن، واستطاع أخيراً أن يلحظه. كان متمركزاً إلى حدٍّ ما وسط جمهرة من العساكر المتراصّين والراية تخفق في يده. حصانه كان مربوطاً إلى وتدٍ من تحته، لذا فقد كان مستمسكاً بالهدوء تماماً وكأنّ الأمر كان لا يعنيه. وجهه كان أزرق من شدّة البرد.

تفحّصه مايكل بفضول باحثاً عمّا إذا كانت علامات الأذى التي صوّبها إليه كانت باديه عليه. ظلّ منطرحاً في الموضع الذي هو فيه إلى أن وقعت عين أوتا إيفرسن عليه. لكن أوتا إيفرسن كان متيبّساً من البرد لا أكثر. لم يجعله مرأى مايكل يتحرّك. كانت يده زرقاء من البرد، فالجلد يصير أشدّ حساسيّة في الزمهرير، حتى أنّ أصغر نَقْرةٍ على المَفصِل المتجمّد كفيلة باستدرار الدمع من أشدّ الرجال، كما يفقد الإنسان حاسة الشمّ أثناء البرد. مايكل ذاته كان شبه ميّت وخاملاً من شدّة البرد. ترك لنفسه أن ينجرف لمسافة أبعد مع التيار العنيف، في الثلج الذائب وبين الأجساد الميّتة. إستطاع الوصول إلى مؤخرة الجيش زاحفاً إلى الأعلى، ثمّ فرَّ بجلده حيّاً صوب «ميلدروف».



الصيف العظيم


محمد خطاب

أكسل ينطلق بجواده

كان ينس أندرسن بيلدناك يقيم إحتفالاً في فِناء أُسقُفيّته في «أودنسه». الضوء يتسرّب إلى الجادّة خارجاً، المكان الوحيد الذي كان يضيء في تلك البلدة المعتمة.

ثمة فارس قد قدم، وفيما كان يفتّش عن حلقة يربط حصانه إليها سمع أصواتاً ترتفع من ناحية الفناء، تتلاطم مثل ريح صاخبة، هوه هوه! لقد سار بجواده طويلاً، ذلك الفارس الذي يدعى أكسل. كان بإمكانه سماع الضجيج تتغيّر نبراته هناك لأنّ الأبواب التي تفصل بين الغرف كانت مُشرَعة، وحينما تصاعدت حدّة الضوضاء وتواصلت مثل انهمار ماء من ماسورة مفتوحة، أمكنه أن يستنتج أنّ هناك باباً يؤدي إلى السلالم وإنّ المدخل ينبغي أن يكون مفتوحاً على مصراعيه. عجّل بربط حصانه عند أوّل موضع مناسب، فيما كانوا يزعقون ويقهقهون بملء أشداقهم هناك. عند الصخب الإعتياديّ كان يمكنه تمييز ضحكة رجل بعينهِ تشقّ طريقها مثل وابلٍ من ضربات هِراوةٍ، تبتعد ثم تعود ثانية بقوّة متجدّدة. كان يتخيّل نفسه مع الرجل المنشرح صاحب هذه القهقهة الذي يبدو أنّه يملك، فيما هو يزعق بملء حنجرته، جسداً برونزيّاً مستهتراً! قفز أكسل صاعداً السلالم ثمّ اندفع مهرولاً نحو قاعة الإحتفال.

كان قد حضر في الوقت المناسب ليرى أربعة خدم منتصبين يسيرون بخطى منتظمة نحو الطاولة وبمعيّتهم فتاة شابّة تمسك طبقاً نحاسياً كبيراً. كانت جالسة وتمسك الطبق من حافته، مزيَّنة بشعرها

الأسـود المنسـدل. قبل أن يفطن الجميع لما حدث، وضع الخدم الطبق بين أطباق الأطعمة الأخرى. المشاعل أوقدت على الجدران المُجَصَّصة، كان هنالك مجموعة من الأخوة المحتفيـن في المكان، وكان هؤلاء هم الذي يضحكون متلوّين على مقاعدهم وهم يطرحون رؤوسهم إلى الوراء من شـدّة الضحك. فيما توقف أكسـل قليلاً منبهراً بالمشهد وشابكاً يديه ببعضهما. لاحظ مبكّراً أنّ الضحكة المدوّية التي أصمّت الآخرين كانت منبعثة من رجل ضخـم يجلس إلى نهاية الطاولة. لـم يكن يبدو عليه أنّه كان مستمتعاً بالقدر الذي كان يضحك فيه. لقد كان المطران بذاته.

حلّ الصمت فجـأة فـي القاعـة. حين همـدت ضحـكات الأخوة الحميميـن بدا وكأنّ المـزاح لم يعد بالإمـكان إنقاذه، فاختلسـوا نظرات مرتبكـة نحـو بعضهم من أطـراف عيونهـم الرطبـة المحمرّة، ثـمّ جفّفوا أنفسـهم محاولين الضحك مـن جديد دون جدوى. خفضـت الفتاة التي تمسك الطبق الكبير رأسها ببطء، إنْسَدَل شعرها الأسود إلى الأمام متدلّياً نحو الأسفل.

«من كان ذلك؟ ماذا يريد؟»، زعق ينس أندرسن خلال ذلك وغادر المائـدة. حيـن انطلق مباشـرة باتجاه أكسـل اتّخـذ هيأة صارمـة، وما أن توقّف على مسافة قدمٍ من صدره بدا وكأنّه ينوي ضربه.

«ما الأمر؟».

دسّ أكسل يده في صدره بحثاً عن الرسالة التي كان عليه تسليمها، حينذاك فهم ينس أندرسن ماذا كان يريد.

«حسناً»، قال له. «سيمكننا التحدث عن ذلك فيما بعد. مرحباً بك، حاول أن تتناول بعض الطعام».

إسـتدار ينـس أندرسـن عائداً إلـى المائدة، نفـض ذراعيه واسـتعاد مزاجـه الرائق مـن جديد الـذي كان يتصاعد ويتصاعد، فيمـا كان يصرخ

ويُجاب من قبل الحَفْل المتصاعد المَرَح.

«ألا يريد أحد تناول لقمة الآن؟».

إستدار ينس أندرسن أخيراً مثل قطٍّ ونظر إلى عيني أكسل، فجأةً تغيّرت قسمات وجهه. أمسكه بثبات من كتفيه وخفض صوته، متحدّثاً بنبرة سلطوية إلى حدٍّ ما، محترسة، وبنوع من الطيبة.

«مَن يصل أخيراً يكن الأكثر جوعاً. أفضل ما في الطعام هي البقايا. خذها إذن!».

هذا الإنشراح جعل من الجميع يتنفسون الصعداء، فضجّوا بالضحك ضاربين على أفخاذهم بجموحٍ من جديد. لكنّ أكسل إنحنى إلى الأمام في إمتنانٍ لَبِقٍ، ضيّق من عينيه بمودّة ونظر بتفحّص إلى الفتاة التي استجمعت عزمها وهزّت شعرها تحت نظراته.

«شكراً على ذلك»، قال أكسل. إجابته المباشرة وصوته الذهبيّ وقعا موقع استحسان بين الحضور جلبا معهما تصفيقاً جعل السقف يدوّي. تطلّع الجميع لحظة إلى الشاب الذي كان واقفاً هناك، كان مهندم اللباس رغم رطوبةٍ واتّساخٍ بسبب الطريق. كان وجهه محمرّاً من المطر وخصلات شعره منتصبه حول أذنيه. تفحّص الذين كانوا إلى المائدة بعينٍ يقظة، وخلال ذلك كان الضيوف قد انكبّوا على أقداحهم من جديد. صُرفت الفتاة خارجاً دون أن ينظر نحوها أحد، لكنّها استدارت عند مدخل الباب وابتسمت إبتسامة شاحبة من موضعها المرتفع. شفطَ تيّار الهواء شعرها الطويل فارتعشت بتذمّر، حينها أومأ لها أكسل برأسه. كانت فتاة متعةٍ من المدينة استأجرها المطران.

«ما اسمها؟»، سأل اكسل فيما بعد حينما أنهى تناول الطعام. تواصلت بهجة الشرب، وانهمك أكسل في حديث مع أحد الخدم الذين حملوا طبق الوجبة الرئيسيّة. كان طويل القامة، أحمر اللحية، فظّاً. لقد

كان مايكل ثوجرسن الذي صار يخدم الآن ضمن أتباع الأسقف.

«أغنيتا»، أوضح مايكل.

«لم تكن سيّئة».

صمت مايكل. لم يستطع أكسل إستخراج كلمات كثيرة منه، وقف أكسل ومسّد شعره، كانت ثيابه قد جفّت تقريباً، أخذ يلهث بعد الوجبة، وحينما رأى أنّه لم يعد بالإمكان إستنطاق مايكل أكثر من ذلك، إستدار أكسل عن مايكل وتطلع نحو الجمع الثَّمِل، لكنّه سرعان ما فقد اهتمامه بالضيوف، كانوا بضعة نبلاء متواضعين ينتعلون جِزَم الركوب، مجموعة مواطنين سمان بخواتم في أباهيمهم، قسّيس فرنشيسكاني، كاتب، قباطنة من «لوبيك»، جميعهم كانوا سكارى تقريباً. تجوّل أكسل في القاعة مصلصلاً بمهمازه الكبير الذي كان يشبه النجوم.

كانت القاعة تعطي إنطباعاً بالتداعي وعدم الإرتياح، فينس أندرسن لم يكن يقطن هنا منذ زمن طويل، فقد عاد مؤخراً فقط من سجنه بعد شجاره العنيف مع الملك. الأسقف، الذي كان رجلاً عجوزاً، ما زال يحمل وجنتين غائرتين من أثر تلك المحنة. وها هو الآن يعدّ العدّة للمغادرة من جديد إلى ستوكهولم. المأدبة التي يقيمها الآن كانت للترحيب والوداع في الوقت نفسه.

بعد منتصف الليل أومأ ينس أندرسن إلى أكسل. كان يبدو أنّ الأسقف محترٌّ جدّاً، كان كشعلةٍ حمراء من أخمصيه حتى قمة رأسه الأصلع الذي يبدو مثل سماءٍ طلع فيها ضوء الشمال، ومع ذلك فقد كان يسير بخطىً جدّ ثابتة. وصلا إلى غرفته حيث العتمة تفوح برائحة الكتب، وثمّة كلبان ضخمان يجولان وهما يهرّان.

أوقد ينس أندرسن شمعة وجلس على مقعد أمام الطاولة. وفيما هو يقرأ الرسائل جلس أكسل ورأس أحد الكلاب في حضنه. كانت

الغرفـة ممتلئة بصناديق الرسـائل المفتوحـة، كتب في أكيـاس، وأكداس متبعثرة على الأرضية.

«نعم!»، قال ينس أندرسـن ذلك مسـتديراً نحو أكسل. والآن رأسه الرماديّ الكبير قـد تبدّل، غطته تجاعيد عميقة. صوتـه كان حادّاً وبعيداً، في نظراته فقط كانت ما تزال بقيّة سـعادة. توجّب على أكسل أن يواصل رحلته نحو أسقف «بورغلوم» وعليه أن يصطحب معه رجلاً آخر... ربما كان مـن الأفضل أن يكون مايكل ثوجرسـن. غـداً باكراً عليـه أن يحمل رسـائل وبلاغات، وتلك قضية ملحّة، إنّما هذه الليلـة يمكنه أن يفعل ما يريد.

عند ذاك بسـط الأسـقف يده الثقيلة وبدأ ينقّب بيـن أدوات الكتابة على الطاولة. كان مسـتغرقاً في تفكيره. نهض أكسل ومشى خارجاً نحو الآخرين. أصبح مايكل ثوجرسـن مندهشـاً ومغتبطاً عندما سمع أنّ عليه مرافقة أكسـل إلـى «بورغلوم». إتّفق هو وأكسـل كيف سـيقضون ليلتهم فيهـا، فذهبا إلى حيث أغنيتا تقيم وقضيا ليلتهما هناك. شـعر كلاهما بإنّ عليهما توطيـد التفاهم مع بعضهما عبر تقاسـم نقاط الضعف المشـتركة بينهما، إذ عليهما إنجاز هذه الرحلة معاً.

أهدت أغنيتا خصلةً من شعرها إلى أكسل.

كانـت السـاعة الثامنـة صباحاً حينما شـدّ أكسـل ومايـكل ركابهما خارجيـن مـن «أودنسـه»، كان كلاهـمـا محمّـلاً برسـائل وتوصيـات من الأسـقف. نقل أكسـل في الطريق رسـائل لنبلاء عديدين، فقد كان لينس أندرسن الكثير من الحديد لطرقه على النار في الوقت ذاته.

حالمـا خبّا بجواديهما خارج المدينة ألقى أكسـل نظرة واحدة فقط على شـارع «أودنسـه»، حيث كانت بضعة جملونات وبيرق ريحٍ يرفرف بنعومـة في ضباب الصباح. مرّت أغنيتا بذاكرته وسـرت في اللحظة هذه

كنبع حنان نحـو هذه المدينة، وهكـذا ظلّ يحتفظ بصورة «أودنسـه» في ذاكرته.

الأميـال الأولى قطعاها ممتطييـن جواديهما صامتيـن. كان الصباح غضّاً، مدّت الخيول أعناقهـا فبلّل الطَّلُّ مناخيرها. ولأنّ اليوم كان صافياً فقد تطلّع أكسـل إلى رفيقه فرأى أنّ له رسغين نحيلين، ويدين شاحبتين، ضامرتيـن، لكنّه كان على درايـة بمثل هذا الضعف البادي للعيان أسـفل الذراعين، حيث العضلات تستقرّ في أعلى الذراعين. كلّ مرّة يشرع فيها الحصـان بالجري يلاحظ أنّ مايكل ثوجرسـن يضمّ حصانـه إليه ويوحّد نفسـه معه بطريقة متميّزه. كان مايـكل مرتدياً ملابس مثل مرتزقٍ حسـن الحـال ويملك سـلاحاً جيداً، لكنّ أُبَّهة ملابسـه تتباين بشـدّة مع سـيماء وجهـه التي كانت تشـي بالفقر، ولحيته الحمراء الممشَّـطة تتـرك إنطباعاً رهيباً عنه، ومع ذلك فلم تستطع حجب لغة الفم الصامتة، التشرّد العنيد، فقد كانت شفته العليا منتفخة كما لو أنّه كان يبكي وحده سرّاً.

قليلاً فقليـلاً دبّ الدفء في أوصالهما. سـعل مايـكل وبدأ يتلّفت حوله. كان الحصان يصعِّد في الهضاب.

«كيف هي الأمور في كوبنهاغن؟»، سأله مايكل.

«طاعون ومرض»، ردّ أكسـل بسرعة. «آخر ما رأيته، حين استدرت عند اجتيازي بوّابة «فيستربورت»، كانت إحدى الحرائق».

«هه!».

واصل أكسـل حديثه ووصل إلـى موضوع الحرب في الشـتاء التي شـارك بها. تحدث عن موقعة «بوغسوند» التي ما زالت تشغله إلى الآن، وعن المقاسـاة التـي لا تُصدَّق فـي غابات «تيفـذن». كانت بـاردة جداً، أكّـد له أكسـل، حتى أنّ الـدِّرع كانت تلتصـق بأنامل من يلمسـها. الثلج كان مختلفاً عمّا هـو عليه في الدنمارك، ناعماً وحادّاً كان مثل مسـحوق

مسنّنٍ يصيبك بالعدوى، فإن وقع على أحد أحرقه. أصابع الثلج تتساقط كالمسامير من غصون أشجار الصنوبر حينما تسير بجوادك تحتها، فإذا وقعت على الجلد تنشبُ أنيابها فيه مثل عَلَقة جشعة. الثلج السويدي بشكل خاص كان مستفرغاً أو مستهلكاً من شدّة الصقيع، في كلّ الأحوال سيشفط دمك من قفا يديك مثل حيوان مصّاص للدماء يلتهم كلّ ما يراه. كان ذلك أسوأ أنواع الثلوج، يجثم بثقلٍ على الجلد وينمو مثل الطحلب. الجثث الساقطة كانت تنتفخ بسرعة مفرطة خلال لحظات. بلى، لقد كانت أيّاماً قاسية. حينما تشرق الشمس يكون الهواء مليئاً بشظايا دقيقة، دقيقة حتى أن الإنسان ليتقلّص من الألم عندما يتنفّس. في الليل الخيول تتجمع إلى بعضها وتتأوّه، تسعل هوه، هوه، هوه، مثل الرجال الكهول. وحين يحين وقت المعركة تمضي الأمور بشكل رديء. لا أحد يعود بإمكانه أن يتحمّل جرحاً، ومن يُصاب به يعول مثل خنزير. أشجار الصنوبر تتشظّى مثل الزجاج بقذائف المدفعية. طُرَّ عقل الكثيرين أو أصيبوا بالجنون. لكنّهم بالتأكيد نالوا نصراً عظيماً بالفعل. فالجيش الآن موجود في ستوكهولم...

كانت شمس أبريل تتسرّب من خلال الغيوم من وقت لآخر. كانوا قد يئسوا تقريباً من مخرِ مياه المضيق الصغير التي كانت تندفع آنذاك بتيّار عنيف في الطقس الشديد العصف، الخيول كانت مرعوبة على متن العبّارة وتحاول الوثوب من على سطح المركب، فكان عليهما أن يوثقوها بإحكام في العبّارة. وحينما وصلا إلى اليابسة وخبّا بجواديهما مواصلين رحلتهما رفع أكسل رأسه وتفرّس في ما حوله.

«هذه هي يولاند إذن»، قالها وهو يتمطّق بلسانه، «لم يسبق لي إن كنت هنا من قبل».

كان مايكل صامتاً. شعر أكسل إنّ هذا المرتزق الجافي الطويل

مـا زال يواصـل التفكير بأشـياء أخرى. تطلّع إليـه من جانبه متفرّسـاً في الندوب التي كانت مسطرة على صفحة وجهه كما لو أنّها كتابة.

«هنا فـي يولاند يوجد كنـز يمكنني الحصول عليه فـي أيّ وقت»، هتف أكسـل بعد قليل فيمـا كان جواداهمـا يعدوان في سـباق مع الريح التي كانت تصفر حول آذانهم. أدار مايكل رأسـه وهزّه له بإيماءة خفيفة. كنـز عظيـم... عندهـا أصبح أكسـل منزعجـاً من شـحّة مشـاركة مايكل في الحديـث، فهمزَ جـواده. إنطلقـا متلاصقين جنبـاً إلى جنـب بكلّ ما لجواديهما من سرعة. كان أكسـل يركب فاغراً فاه على وسعه ومؤرجحاً سـاقيه جيئة وذهابـاً في حركة واسـعة، فيما كان مايـكل يجلس منخفضاً وثابتاً فوق سرجه وساقاه مثنيّتان ويبدو وكأنّه لا يتنفس إلاّ بصعوبة.

إنفتحـت كُتَلُ الغيـوم المَطَرَيَّة في حركة مباشـرة مـن جهة الغرب، كاشـفة عن شمس شاحبة لا تمنح دفئاً، قبل أن تنغلق من جديد. الغربان تنعق فوق المروج الرطبة. العاصفة تدفع بالأسـيجة الخالية من الأوراق، وبعيداً كانت السـماء تثبّت أقدامها البخاريّة على الأرض وتتحرّك باتجاه الفارِسَـين اللذين حثّا السير في دوّامة حالكة من مطرٍ قاسٍ ومرير. كانت الطرق المرشوشة ممتدّة تحت سوط المطر، الخيول تعدو مدخَّنة، البخار ينبعث مِزَقاً من فرواتهم مثل حريق في عاصفة. هكذا مضيا في طريقهما طوال اليوم.

العودة إلى البيت ثانية

ذات مساء متأخّر كانا فيه جالسين في خان بأعالي «يولاند»، وكان عليهما الذهاب للنوم منذ وقت طويل، تحدّث أكسل بشأن كنزه إلى مايكل. صار مايكل يصغي الآن بانتباه، جالساً ويداه تحت ذقنه فيما كان مستنداً بكوعه على الطاولة والشمعة تتّقد تماماً بين وجهيهما. أحنى أكسل نفسه للأمام وقال:

«ينبغي أن يكون في مكان ما وسط يولاند، ولا علم لي بشيء آخر. لم أكن لأرغب أن أُري الورقة لأحد على الإطلاق. إنّه كنزٌ عظيم أفكّر فيه كل يوم. لكن لا داعي للعجلة، لأنني متأكد بما فيه الكفاية بشأن قضيتي. ذات يوم، حينما يلائمني الأمر، سأحاول فكّ مغاليق الخطوط. أُنظر هنا».

مدّ يده نحو صدره ودسّها في شقٍّ تحت صدريّته، باحثاً فيه وسحب منه كبسولة مخروطية كبيرة مربوطة بخيط. بيّن بأظفره كيفية فتحها وأوضح أنّها تحوي قطعة مطويّة من البرشمان. جال مايكل ببصره فيما بين الكبسولة ووجه أكسل، مدركاً مدى غروره التي تكاد تلامس الطيش. لم يك ليحمل نظرة بشريّة في عينيه الزرقاوين، كانتا تفتقدان ذلك التعبير المفهوم الذي يتميّز به الإنسان، الذي ربما قد يكون إسمه «أولا» أو «جوزيف»، ألاّ أنّه يعرف من هو بالضبط. كان وسيماً، ذا لحية سوداء وشفتين بريئتين. كان وجهه ناصعاً حتى لا يكاد المرء أن يميِّز حدوده مع الهواء، لكنّ يديه كانتا عريضتين ومغطّاتين بشعر خفيف، لا يمكن لأحد أن يخطيء في ذلك.

أعاد أكسل الكبسولة إلى مكانها ثانية وأومأ برأسه عدة مرات «بلى، بلى»، قائلاً ذلك تقريباً لنفسه.

سأله مايكل كم يبلغ من العمر.

«إثنان وعشرون عاماً»، قالها أكسل وهو يتطلّع برصانة إلى الأعلى. أخبره أنّه قد احتاط لكي لا يغشّه أحد بخصوص الكنز، فلم يكن بإمكانه فكّ مغاليق الخطوط بنفسه لأنها ببساطة كانت مكتوبة بالعبرية...

أخبره مايكل أنّه يستطيع قراءة العبرية.

«أها! إذن يمكنك ذلك»، تألّقت عينا أكسل ثم انحنى إلى أمام وتحدّث بصوت خفيض:

«سأنتظر حتى يحين الوقت، سأنتظر إلى أن يحين وقت لقائي بشخص خبير، ربما يكون قسّاً لم يتبق لديه الكثير من الوقت، حيث سأقوم بمراقبته، وحين تحين ساعة احتضاره ويكون فيها مدركاً بحواسّه قليلاً سأجعله يفسّر الخطوط، وبذلك أكون في مأمن، فلستُ على عجلة من أمري. سأستطيع ذات يوم أن أنسلّ على أطراف أصابعي فوق الحصباء عند حافة سدٍّ قديم، أو حيثما يكون الكنز مدفوناً، على هضبة أو في صندوق حجريّ أسفل الطريق، حيث سألتقط من هناك خاتماً ذهبيّاً، عقداً ثخيناً أحمر من العيار الذهبيّ الثقيل المصنوع من الذهب العتيق الصحيح الذي يتوهّج. على حدّ علمي فإنه ميراث شرعيّ سيكون من نصيبي. قبل أن أبلغ العشرين كنتُ أملكُ بعض المال، ليس بالقليل أبداً، وما زلت لم أتصرّف به كلّه لحدّ الآن، لكنّ الورقة حصلت عليها بعد أن بلغت الثامنة عشرة، من رجل عجوز أتى من مكان ما، منذ ذلك الحين وأنا أحتفظ بها جيداً، ولن أدعها تضيع منيّ إطلاقاً. على السطح توجد كلّ تلك الخواتم الذهبيّة التي ستكون لي، لكن في العمق يوجد مئزر جلديّ عتيق ملفوف حول صندوق. المرّة الأوّلى التي سألمس فيها

الكنز سآخذ إحدى القلائد ومن ثمّ خاتماً ذا حجرٍ كريم لنفسي، وسيكون أكبرها. البقية سأتركها في مكانها بهدوء وأدّخرها. يمكنني تخيّل القيمة التي ستصير إليها الأحجار الكريمة بمرور الزمن، وكيف تنبثق صغيرة من التراب وتنمو. لا أحتاج سوى دسّ إصبعي لاستخراجها فيما بعد. الذهب لا يثير اهتمامي، فأنا لا أنوي الإحتفاظ بالمال على كلّ حال، فيجب أن يتحرّك، وعند السَّفَر سأنظر في كيفيّة إنفاقه. أنوي الذهاب إلى كولن، كما أريد السفر إلى بافاريا... هناك أيضاً مقابض سيوف رائعة، سلاسل، مشابك، إنها تقبع بشكل جيّد في مكانها الآن».

بدأ مايكل بالإبتسام قليلاً وتطلّع فيما حوله في الصالة الفارغة. لكن ألا ينبغي عليهما الذهاب للنوم؟

حالاً أقرّ أكسل بذلك، فنهضا واقفين. لكنهما حينما وصلا إلى أسرّة الضيوف تبيّن أن جلودها كانت متعفّنة تماماً من أثر الرطوبة بحيث لا يمكن الإستلقاء عليها، فتمدّدا فوقها بكامل ثيابهما، حيث نام أكسل من ساعته.

إضطجع مايكل لفترة دون أن يستطيع النوم، ضحك فجأة بخفوت مع نفسه، ثمّ غرق في التفكير، التفكير ليس في الماضي بشكل خاص أو في شيء محدّد، كان يتألّم بشدّة من منزلته الوضيعة في الحياة، عذابه المبرّح القديم، سوء طالعه، شعوره بالوحدة. وحينما كان على وشك الإستسلام للنوم تراءت في خياله أكوام الذهب المُصْمَت التي تقبع تحت الأرض تماماً، حتى أنّ الإنسان لا يحتاج سوى أن يجلي الحصى والحصباء جانباً عنها ليمكنه أن يرى الذهب المخدَّش يدبّ مثل جذرٍ من تحت التراب. سيقف فوقه منتصباً بقدميه الإثنتين معاً. على الجهة الأخرى من الهوّة أبصر نسوةً بيضاً يمسكن بشيء ما، جالسات في دائرة على الأحجار ومع المرأة الكبيرة التي كانت عالية عند المركز. عندها

رغـب أن يطلق حمامة. بعـد ذلك بقليل رآهن ينحدرن جميعاً للأسـفل. بعد سـاعة ظهـرن واحدة إثـر الأخرى على جانـب الهوّة التي كـنّ فيها، مبللاتٍ وخضر الأيادي والرُّكَب من أثر زحفِهنّ على النباتات الخضراء. وكان واقفـاً بكبرياء فـوق الذهب. وفـي البعيد كان الملك يومئ برأسـه إليه.

في اليوم التالي سـارا بجواديهما في طقسٍ نيسـانيٍّ رائق ومشـرق، حوافـر جواديهمـا كانت تهشّـم المِـلاط الأزرق علـى الطريق. مـا وراء الغابات كانـت تمتدّ الأرض مطليّـةً بلون الربيع الشـفيف، كان بالإمكان الرؤيـة لأميال عبـر الهواء الرقيـق. في البعيـد كانت تلوح حـول المكان هضاب قُبُوريّة ترتفع في صلافةٍ عالياً فوق سـنام أعلى الأراضي ارتفاعاً، بيضاء من نداوة الطَّلَلِ عند الجانب الغربيّ منها.

علـى مدى الصبـاح الباهر لـم ينبس مايكل ثوجرسـن ببنت شـفة، لكنّه غرق في تفكير عميق. كانا يقتربان من مسـقط رأسه، حيث لم يكن هناك منذ أكثر من عشرين عاماً. لم يكن يفكر في أيّ شيء غير ذلك منذ أن بلغه أنّ عليه الذهاب إلى «بورجلوم». ظلّ يخبّ بجواده مستغرقاً في تأمّلاته، قبل أن يعتدل وينتصب على سرجه من جديد.

«ألا تقع عزبة موهولم في هذه الناحية ؟»، سأله أكسل.

«موهولم؟ بلى!».

«لديّ رسالة إلى هناك. أوتا إيفرسن إسم ذلك السيّد».

صفر مايكل لحصانه فتوقّف وتطلّع نحـوه، ثمَّ حثّه على العدو من جديد. لم يقولا لبعضهما شـيئاً قبل أن يصلا الهضـاب فيما بعد الظهيرة ويشـاهدا الجدول. كان ينسـاب عبر المرج الشـاحب مثل عِرْقٍ عارٍ من الفضّـة. بـانَ لهـم المضيق فـي الغرب، أليفـاً، غيـر متغيّر. أبصـر مايكل الجُـرُوف والنتـوءات الصخريّـة التـي يعرفها، ممتـدة بذات النسـق التي

كانت عليه تحت زرقة السماء المطلقة، تماماً مثلما تركها حين كان هنا آخر مرّة.

توقفا عند أحد الخانات في «جروبولا»، وهنالك قام مايكل بإرشاد أكسل إلى الطريق المؤدية لقصر مالك العزبة. أمّا فيما يخصّه شخصيّاً فقد رغب بالمضي منحدراً نحو المضيق، حيث كان أخوه يقطن. في الصباح التالي ينبغي عليهما اللقاء ثانية في الخان.

مضى أكسل بحصانه نحو «موهولم» وكانت ترافقه العتمة. ثمة كلب ينبح بشكل مسعور قرب الجدار الذي كان مقيّداً عنده، مرّ صبيّ ببنطال أحمر وخشخش صاعداً السلالم. بدت الحديقة وكأنها مهجورة. حالما توقّف أكسل عند السلالم برز رجل عند الباب، كان السيّد بنفسه. وحين سمع بمهمّة أكسل قاده صُعُداً إلى البهو. جلس أكسل على كرسيٍّ عند الطاولة ومضى أوتا إيفرسن نحو الموقد وأوقد مشعلاً وأدخله في حلقة على الجدار.

فيما كان أوتا إيفرسن يقرأ الرسالة كان أكسل يتفحّصه. كان في متوسط العمر، رجلاً جافياً، وجهه نصف مغطّى بلحية مشذّبة عند الفم. عيناه المتجهّمتان تصعدان وتنزلان فوق الرسالة وكان بإمكان المرء أن يرى في ملامحه ما هو مكتوب فيها. قطع أوتا إيفرسن القراءة ومضى نحو الباب ثم نادى. جلب خادم عجوز وجبة اللحم إلى الطاولة وانسحب من جديد، ومنذ ذاك لم يدخل أحد البهو أو سُمِع أيّ صوت لكائن حيّ في البيت.

حينما أنهى أوتا إيفرسن قراءة ما في الرسالة سكب بنفسه جعةً للغريب من برميل كان عند الزاوية وجلس قربه لكي يستمع منه لما كان يدور في الخارج من أحداث. تحدّث أكسل بحماسة عن الحرب في السويد، عن المعركة عند «بوغسوند» وانتصار الملك، عن «تيفيذن»

والثلج السويديّ... شعر بالإنتعاش من الوليمة وشرع بالتغنّي بأهوال الحرب. من وقت لآخر كان أوتا إيفرسن يتنحنح، تلك العادة اللاواعية التي طوّرها الناس. كان ينخس المشعل بأصابعه حين تخفت جذوته. ثمة استراحة أكل فيها أكسل بشراهة. ثم نظر فجأة إلى الأعلى.

«هنا ينبغي أن يكون هو وسط يولاند تقريباً، أليس كذلك؟».

«بلى، لستَ مخطئاً في ذلك».

«يوجد كنز في مكان ما هنا، ولديّ ورقة تفيد بهذا»، قال أكسل ذلك فيما كان يزدرد طعامه. «ربّما ليس بعيداً عن هنا».

لم يجب أوتا إيفرسن بتلك السرعة، إستغرق أكسل بتفكيره ناظراً إلى الإبريق أمامه حتى سُمع منه صوت كشف عن المدى الذي وصل إليه.

أخيراً سمح أوتا إيفرسن لنفسه بشبح ابتسامة وسأل أكسل عمّن يكون.

الآن تروّى أكسل قليلاً قبل الجواب.

«إسمي هو أكسل»، قال في نهاية الأمر بهدوء. «لا أعرف إسم عائلتي. في الواقع إنّ إسمي بالمناسبة هو أبسالون، لكن في المزرعة، حيث ترعرعت، كانوا ينادونني أكسل. مسقط رأسي في جزيرة شيلاند».

«هكذا إذن؟».

«نعم، أنا الآن أخدم الملك كريستيان كفارس ورسول. في اليوم الذي بلغت فيه الثامنة عشرة قدم رجل عجوز وأعطاني وثيقة كان عليّ أن أخفيها جيّداً، هكذا قال لي حينما كنّا نتمشّى معاً خارج الحقل، وشهد باسمهِ على شرعية الميراث، إسمه مندل سباير كما قال».

واصل أكسل الأكل مع نهاية كلامه، لكنّه أخذه الندم على ثرثرته. رفع بصره، كان أوتا إيفرسن يحدّق به. حينها وضع أكسل السكين جانباً،

معتقـداً أن السـيّد قـد مرض. لكـن أوتا إيفرسـن نهض، تنحنـح ونخسَ المشعل. ثم تنحنح مرة أخرى من جديد.

مندل سباير... هل كان أكسل قريباً له؟

كلاّ على حدّ علمه، تطلع أكسـل إلى الأعلى بعينين مفتوحتين. في تلك اللحظة تعرّف أوتا إيفرسن عليه. لقد كان إبن سوزانا.

إنّه إبن سوزانا!

بعـد لحظات قليلة سـأله أوتا إيفرسـن فـي اضطراب فيمـا إذا كان يعرف أحداً ما في «هلسنجور».

هزّ أكسل رأسه وواصل إلتهام طعامه من جديد. حينما مدّ يديه إلى الأمام تعرّف أوتا ايفرسـن عليهما، كانت تحملان أصابـع عائلته القصار ذاتها. عندها شـعر باهتزاز فـي أعماقه وأحسّ قلقاً كبيـراً. ها هنا يجلس إثمه القديم، حيّاً وشَـرِهاً! الآن بدأت اللعنة القديمـة تفعل فعلها. ما كلّ هذا الحديث عن الكنز في «يولاند»، عن أيّ وثيقة يتحدث؟

مشى أوتا إيفرسـن بضع خطوات في البهو. كان مخدّراً مثل إنسان يرى ألسـنةَ اللهب تلعق السـقف ويفكّر في الإنقاذ لكنـه ثابت في مكانه ويتعثّر بساقيه. ماذا ينبغي عليه أن يفعل؟

كان أوتا إيفرسن متزوجاً منذ عشرين عاماً وله ثمانية أطفال. صورة زوجته معلّقة فـي قاعة الإحتفال ويداها النحيفتـان تتقاطعان فوق بطنها، بإصابع منثنية مرّتين كحرف S تشي بمشـاعر التواضع، متّزنة ذات عينين مؤطّرتين بالأحمر. الأطفال نشأوا بصورة طيبة، شخصياً باع أوتا إيفرسن جزءاً مـن غاباته بحماس وتاجر بالثيران المخصيّة، كان وضعه جيّداً. في تلك اللحظة التي يقضم فيها هذا الغريب، إبن سوزانا، عظمةً بين أسنانه، كان أصغـر أطفاله يرقد فـي الداخل نائمـاً، وزوجته العليلة على وشـك إنجـاب طفلٍ آخر فـي يونيو. هل سـيقتحم هـذا الذئب عشَّـه ويلتهمهم

جميعاً إلى آخرهم؟ كلاّ، فأُمّ أوتا إيفرسن ترقد الآن في تابوت مخمليٍّ تحت أرضية كنيسة "جروبولا"، إنّه يفكّر في شأنها الآن... لا يمكن أن تكون تلك مشيئة الربّ لإضراره.

لم يعد أكسل يأكل وثمة هدوء شديد ساد المكان. جدران البهو ترشَحُ من الرطوبة، الضوء المنبعث من المشعل يكشف أحجار الأرضيّة الباردة. داخل شبه العتمة تلك كان يقف السيّد محدّقاً بأكسل دون أن ينطق بكلمة. كان أكسل جالساً يفكّر كيف سيكون المبيت في هذه العزبة التعسة، أكيد سيكون برفقة الحشرات وصغار الفئران. حينها اقترب أوتا إيفرسن من الطاولة ثانية. بدا وكأنّه كان يتأمّل في كارثة، جبهته موحلة وفمه مدفون في لحيته.

"لا يمكننا للأسف عرض المبيت عليك"، قالها أوتا إيفرسن بخفوت، متلمّساً طرف الطاولة وغاضّاً من بصره. "لدينا عدّة مرضى إضافة إلى أحد الضيوف، لذلك..."، ورفع بصره.

نهض أكسل في الحال دون أن يشعر بثقل هذا الموقف. حين ابتعد بحصانه عن العزبة كان قد نسي ذلك السيد التعيس للأبد. بعد ساعة كان يقف خارج مصهر الحداد عند المضيق، فخرج مايكل واستقبله.

قضيا مساءاً حميميّاً في المصهر. كانت أحوال نيلس ثوجرسن طيّبة، لديه زوجة وأطفال، لكن لم يبد عليه أيّ تغيّر تقريباً، كان يبدو عابساً وصارماً كما كان شأنه دائماً، مدثّراً بمئزره الجلديّ.

قُدِّر لمايكل أن يجد أباه العجوز ما يزال حيّاً. كان ثوجر، الذي ناهز التسعين، جالساً في الزاوية عند الموقد وساقاه مغطّاتان بطبقات من القشّ. كان شبه أصمّ ولم يعد متوقّد الذهن، لكنه من ناحية أخرى كان في صحّة جيدة. لم يكن في إمكانه التعرّف على إبنه مايكل.

فيما كانوا يأكلون تطلّع مايكل إلى أبيه. زوجة إبنه كانت ترعاه

بحنـان. يـدا ثوجر العجـوز أضحتـا الآن بيضاويـن مثل التـراب، كأنهما مغليّتـان، ومغطاتـان ببقع شـاحبة، لكنهمـا لا ترتعشـان. أخبرهما نيلس كيـف أنّ الأب قبـل ثماني سـنوات كان على وشـك المـوت في إحدى الحفر التي كانوا يستعملونها لتخزين الفحم حيث انهارت به. صادف أن كان نيلـس آنذاك بعيداً عـن المدينة ولم يلاحظ الآخرون أيّ شـيء. في صبـاح اليوم التالـي فقط أدركوا أين يمكـن أن يكون وعثـروا عليه هناك ويداه متشـبّثتان بالملابس وعيناه مفتوحتان على اتساعهما، لحسن الحظ كان هنالـك ما يكفي مـن الهواء لكـي لا يختنق، لكنه منـذ تلك الحادثة صار يعاني من نوبات ذعرٍ شديدة.

حينمـا أتمّـوا أكلهم جلس مايكل مـع العجوز. حـاول أن يتحادّث معـه لكن مـن دون جدوى. فظلّ قاعـداً هناك يحدّق في رأسـه الضخم، الخشـن والواهن. تعرّف على ملامح أبيه، رغم أنّ وجهه كان على شـفا الإنهيار وعينيه خاليتان من المعنى وثمّة بُقع على أذنيه وجبهته البائسة.

بعد فتـرة طويلة أخرج مايكل قطعـة النقد الفضّية، نظـر قليلاً إليها ودسّها في يدِ العجوز الذي لم يكن بمقدوره الإمساك بها.

"هـل تذكر هـذه العُملـة؟"، صاح فـي أذن أبيـه، فقد نسـي وجود الآخرين في الغرفة.

"با، با".

"هل تتذكـر هذه العُملة؟"، صـرخ مايكل مرّة ثانية بصوت كسـير. نأى الآخرون بأنفسـهم وظلّوا صامتين، ولفترة طويلة ظلّ مايكل جالسـاً قبالة مقعد العجوز ورأسـه مدفون بين يديه. على أثرها نام ثوجر العجوز وفمه مفتوح على اتساعه.

نام الجميـع تلك الليلة في نفـس الغرفة وسُـمعت غمغمات ثوجر ودمدماته مثل كلبٍ يتذمّر أثناء نومه.

حينمـا أعدّ مايكل وأكسـل ركابهما فـي صباح اليـوم التالي وودّعا الجميع، إستدار مايكل من على سرجه وسأل أخاه بجهد عظيم:

"وآنا ميتا، كيف...؟".

"لقـد تزوّجت في سـالنج ولها أولاد كبـار"، صاح نيلس بسـرعة، راكضاً بضـع خطوات خلـف الخيـول التـي كانت قـد انطلقـت. "ينس سيفرستن مات بسـلام وهدوء. بلى، إنّها بخير، يا مايكل. ذلك ما أردتُ قوله لك....".

صرخ نيلس مـرّة أخرى، لكـنّ مايكل نخس حصانـه ليجري. ولم يلحق به أكسل إلاّ على الجانب الآخر من التلال.

Consummatum est

كان ذلـك وقـت المهرجانـات العظيمة فـي سـتوكهولهم، إحتفالاً بنصر الملك كريستيان وتتويجه، يوم الثلاثاء. كان مايكل ثوجرسن واقفاً فـي قاعة الحـرس بالقلعـة وعليه توصيل بـلاغ إلى ينس أندرسـن. ينس أندرسـن فـي الحمّام، هكـذا أخبـروه. ولكـن لأنّ القضية ملحّـة بصورة غيـر إعتياديّة فقد انتهـت بنزع مايكل لملابسـه لكي يسـتطيع الإضطلاع بمهمّته. ولجَ إلى قاعة الحمّام السـاخنة، ولم يسـتطع لفترةٍ رؤية مسـافة بوصـةٍ واحدة أمامه، البخـار يملأ الغرفة بكثافة شـديدة مثل قطن أبيض، سمع خشخشة السُّطُول وطرطشة الماء الشـديدة فوق المواقد الحجريّة. من خلال هذا الضباب الراشـح إنبثقت بعض أصوات. بقي مايكل واقفاً عند الباب، البخار يلهب صدره وبدأ بالقطرِ على ساقيه.

فجـأة بـدا وكأنّ البخار تشـكّل علـى هيأة شـخص قـادم باتجاهه، خطوة إضافيّة أخرى وانتصب رجل مرئيّ تماماً، نحاسـيّ اللون من شدة الحرّ. كان الملك كريسـتيان بشـخصه. نقل مايكل عينيه بسرعة من وجه الملك ونظر فقط نحو صدره المفتول الذي كان مغطّى بالشـعر الأحمر، ثمّ سـمع صوت الملك الصارم. ماذا كان يريد هنا؟ أوضح مايكل سبب مجيئه محنيَّ الرأس.

"ينـس أندرسـن!"، نادى الملـك بحـدّة. "هنالك رجل عنـد الباب يحمل بلاغاً إليك"، ثمّ انسـحب داخلاً في البخار من جديد. قوّم مايكل من نفسـه لكنّ ركبتيه ظلّتا ترتعشـان. بعد قليل إندفع ينس أندرسـن إلى الأمـام فأبلغه مايكل برسـالته، لم يكن يعرف شـخصيّاً مـاذا تخفي تلك الكلمـات التـي حفظهـا عـن ظهر قلـب فـي ذاكرتـه، لكنّهـا جعلت من

المطران مستغرقاً في تفكيره. "إنتظرْ هنا"، قال له واختفى.

سمع مايكل صوتيّ الملك وينس أندرسن معاً إضافة إلى أصوات عديدة تنبثق من داخل البخار الذي كان يغلي. حينها صرخ الملك ببضع كلمات. ساد هدوء تامّ تقريباً في قاعة الحمّام، توقّفوا عن رشّ الماء فوق الأحجار الساخنة. الكوّة العليا فُتحت، والبخار صار بلمحةٍ كثيفاً وأبيض مثل جدار، ثم أخذ ينقشع شيئاً فشيئاً. سرعان ما تجلّى لمايكل جميع من كان في قاعة الحمّام، كان يعتقد أنهم أبعد عنه بعشر مرّات، لكنهم جميعاً كانوا في الواقع إلى جانبه تماماً. الملك جالس على كَنَبَة، إضافة إليه كان هناك ديدريك سلاغيك، جون إيريكسن، وإثنان آخران لم يكن مايكل يعرفهما. تحدّث ينس أندرسن مع الملك بنبرة خافتة، رصينة، الآخرون كانوا يصغون، لكن مايكل لم يكن يستمع لما يتحدثون به، فلم يكن في إمكانه رفع بصره عن شخص الملك. مثل هذا الصدر المفتول وتلك الذراعين القويّتين لم ير من قبل. عضلات الصدر تقبع صلبة ومخدَّدة تحت الجلد، الأعصاب مبرومة بإحكام تحت الذراعين. الشعر الأحمر المعتم كثيف يقطر من حول رأس الملك مثل طُحْلُبٍ ينتصب في طقسٍ مطريّ، الماء ينحدر فوق الوجه المبلَّل ويسيل في اللحية. كان الملك في مزاجٍ خطر، كما يبدو، يحدّق فيهم واحداً بعد آخر بعينيه الضيّقتين بطريقةٍ متفحّصة خاصّة. كل تعابيره كانت ثقيلة ومشحونة.

لم ينتبه مايكل كثيراً إلى الآخرين. جون إيريكسن كان واقفاً باستقامةٍ من أعلاه إلى أسفله في تعبير ينمّ عن التواضع والمعاناة، كان نحيف الجسد بصورة مفزعة، لدرجة كان يبدو فيها وكأنّ جلده قد خيط على عظامه، قدماه الطويلتان الناتئتان كانتا مدسوستين في قبقابين، كاحلاه كانا مغطّيين بقشورٍ وندوبٍ بيض مثل الثلج من أثر القيود التي

كان ينـوء بها حتى عهد قريب. إلى جانبه كان يقف ينس أندرسـن بظهره المتغضّن وقد أحنى فخذيه المُشعرتين الشبيهتين بأفخاذ الخيّالين. لكن ديريـك سـلاغيك كان رجـلاً حسـن التكوين، إنّما للأسـف مشـوّه على امتداد جسـمه بعلامات أرجوانيّة، نجميّة بعد أن ترك المرض الفرنسيّ[1] عليه آثاره الكثيفة كثافة السـهام على جسد القديس سان سيباستيان. كان لديريك سلاغيك رأس قرد، لأنّ عظمة أنفه كانت مهشّمة.

أومأ ينس أندرسـن فجأة برأسـه باتجاه مايكل وكأنّه يذكّرهم أنّه ما زال واقفـاً هناك. لـم يسـمع مايكل شـيئاً، لكن الملك حـدّق فيه وأصبح غاضباً.

«هيّـا، دعوا هـذا الرجـل يذهـب!»، إنفجر صارخـاً. إسـتدار ينس أندرسن وأبدى لمايكل ما يشبه الوجه المعتذِر، فعجّل مايكل بالخروج. «هيّا، رشّوا الماء!»، سمع الملك يصيح. وفيما هو ينتظر خارجاً ويرتدي ملابسـه سـمّع مرّة ثانية الماء يطرطش ويهسـهس من الداخل. لا صوت آخر أمكنه ان يسمع.

بعد نصف سـاعة خرج المطران، حانقاً ويتنفس بصعوبة، كان ينفخ قطرات الماء عن شفتيه ويفرك حاجبيه، نهايات أصابعه كانت متغضّنة من الماء السـاخن. تسـلّم مايكل بلاغاً موجّهاً إلى رئيس الأساقفة غوستاف ترول، كلمتـان لاتينيّتان لا غير. لم يسـتطع مايكل إخفاء إبتسـامة حينما طلب منه ينس أندرسن إستعادتها ثلاث أو أربع مرّات كأنّه طفل صغير.

«نعم، تذكّرها الآن!»، صاح المطران مرّة ثانية قبل أن يخرج مايكل من الباب.

كان رئيس الأسـاقفة واقفا عند نافذته وريشـة أوزّة في يده، إستدار فجأة حينما دخل مايكل. لكنه حينما سمع البلاغ الذي حمله مايكل إليه

(1) هكذا كان يسمّى مرض «السفلس» آنذاك لاعتقادهم أن مصدره فرنسا. (المترجم)

رمى الريشـة أرضاً وأخذ يتمشّى جيئة وذهاباً من طرف الغرفة إلى طرفها الآخر في تأثّر شـديد. فقد كانـت الكلمات الأخيرة التي نطق بها سـيّدنا يسـوع المسـيح فوق الصليب هـي التي حملهـا مايكل معه مـن الملك. رئيـس الأسـاقفة ردّدهـا بوضوح مع نفسـه مرّات عـدّة، ثمّة مذبـح نقّال مفتوح على الطاولة، ظلّ يهزّ برأسه.

Consummatum est[1]

كان مايكل بانتظار أي رسـالة جوابيّة محتملة. لكن غوستاف ترول بدا عليه أنّه قد غيّر تفكيره، خـلال ذلك عاد إلى مايكل، ظلّ واقفاً لفترة يحدّق في وجهه شـارد الذهن. لاحَ تعبير مُبهَم على شفتيه الخاليتين من الدم، ربّما كان ابتسامةً متأثّرة أو عُطَاساً مكتوماً. صوته كان ناعماً بشكل غريب حينما سـأل مايـكل فيما إذا كان هنالك من شـيء يرغبـه، فتلعثم متردّداً.

سخن رأس مايكل. عشرون عاماً قاسـيّة وعقيمة من الجنديّة بدت وكأنها يوم واحد في وعيه، إنّه يتذكّر رغبات شبابه وكأنّها كانت البارحة. فيمـا إذا كان يرغـب بشـيء! لو أنّـه فكّر في أنّ شـخصاً ما سيسـأله هذا السـؤال لأجابه فـي فكره: كلّ شـيء! هذا مـا كان يرغب بـه، حتى هذه اللحظة. أمّا الآن فهو غير راغبٍ بشيء.

رفـع مايكل عينيه بوهن. لو أنّ في إمكانـه خدمة الملك عن قرب، قال ذلـك ببـلادة. خفض مـن عينيه ثانية وشـرع يفـرك يديه بحـذر مثل شـحّاذ يقف عنـد البـاب مفكّراً ببـرودة الطقـس، فيما هـو ينتظر وصول الصَّدَقة إليه.

الأمر مناسب! أومأ غوستاف ترول برأسه. سأل فيما إذا كان مايكل يرغب بأن يكون ضمن الكتّاب، فهو يعرف اللاتينية. هزّ مايكل رأسه. لو

(1) تعني باللاتينية: قُضي الأمر. (المترجم)

أمكنه فقط أن يكون ضمن الخيّالة في حرس الملك الخاصّ...

حينما هبط لأسفل الشارع كان مقوسّاً مثل رجل عجوز. لعدّة سنين كان يتوق إلى الإنضمام لحماية الملك، ورغم الشعور الدافئ بالسعادة لكونه قد حقّق هدفه فقد كانت جوانحه تنطوي، فضلاً عن ذلك، على أعمق درجات التعاسة.

في مساء اليوم ذاته كان ثمّة حفل اعتياديّ راقص كبير في القلعة.

وقف مايكل كحرس شرف عند الباب في القاعة الكبيرة، مرتدياً كامل درعه اللامع الجديد. الترقية مضت لوحدها سريعاً، دعم ينس أندرسن ذلك بسخاء ليكافئه على خدمته المخلصة. حينما قُدِّم مايكل إلى الملك لم يستطع تذكّره من حادثة قبيل الظهيرة، إستقبله بلطفٍ إستثنائيّ، رغم أنّه كان ذات الرجل الذي أوشك الملك على تسميره فوق باب الحمّام بنظراته. هكذا يمكن أن تنعكس الأمور، فالعُري يحجبُ ويقنِّع صاحبه، هكذا فكّر مايكل.

المساء الفائت كان مخصّصاً لذوي المقام الرفيع في الدولة، اليوم هو دور ضبّاط الملك والجنود الشباب ذوي الرتب الأقلّ الذين تمّت دعوتهم للرقص مع سادة ستوكهولم وسيّداتها. كان مساءاً مُبهِجاً بحقّ. كان مايكل واقفاً عند الباب يقدّم الإحترام مثل تمثال مصوَّر، مغطّى بصفائح لامعة وحراشف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، لحيته المنتفشة تبدو خارج الخوذة، فيما كان يتابع الراقصين بعينيه.

ومَن ذلك الراقص هناك، رشيقاً وحيويّاً وخفيف الخطوات، سوى أكسل، رفيق درب شبابه منذ الربيع الماضي! مرّة أخرى لم يكن بمقدور مايكل فهم هذا الفتى ذي الإضطراب اللامتناهي الذي كان يجول في منتهى الخفّه مع أسراره، كاشفاً إيّاها للربّ والعباد. أُنظُر الآن كيف يتمايل موحياً أنّ ذلك جزءٌ من طبيعته، وحين يهدأ يظلّ لعوباً كشظيّة

مرآةٍ تحت الشـمس، كان يصعب على عينيه دائمـاً الثبات في محجريهما كمـا هما الآن، حيث يدور حول الأرضية برفقة عذراء جميلة في أحضانه ويغمز بعينيه مغازلاً يمنةً ويسـرة. رآه مايكل يدور خلال الجمهور إلى أن اختفت ريشته الصفراء عند نهاية الصالة، عاد بعدها من جديد، واثباً بذات المرح، ووجه الفتاة الشابة مرفوع بمواجهته في ابتسامة هادئة، ثَمِلة.

نـاوب مايـكل ثقلَ جسـمه من قـدمٍ إلى أخـرى. كانت الموسـيقى تُعزف بانتصـار، التيّار الهوائـيّ البارد لنوفمبـر يصل عبر النافـذة. لم يعد بإمكان مايكل الرؤيـة رغم أنه كان يقف مفتوح العينين. غرق في تفكيره. ثمـة شـيء ما بدأ فـي إزعاجـه: الشـعور بالشـفقة على نفسـه مـن وقوفه المسـتقيم ورغبتة الحارقة بالجري والدوران فـي المكان ولو لمرّة واحدة كما يفعل هؤلاء المغفّلون التافهون الآخرون. تجاوز عمره الأربعين عاماً الآن، مايكل، لكنه لم يصبح أكثر حصافة مما كان عليه قبل عشرين عاماً. كل ما تاق إليه لم يسـتطع نيله، لم يتم تحقيق ما كان يصبو إليه ببسـاطة، ولا حتى واحد منها. لكن ما زال في الوقت متّسع لحماقة أو اثنتين.

أخذت الموسـيقى تتصاعد وانتهت بجنون عاصفٍ خالصٍ متخلّيةً عن الكياسـة ضربةً بعد ضربـة، الآلات الوتريّة حلّقت في هذيان صاعدة ونازلة على درجات السلّم الموسيقيّ، بعدها اختتمت الموسيقى بانفجار تصفيـق جماعـيّ طويل. تـوزّع الراقصون علـى الأرضية وهـم يتحدّثون ويضحكون.

كان أكسـل قرب مايكل ثوجرسـن، ربّـت على كتفيه متمنياً له حسـن الحظّ. هما الآن في الخدمة مع بعضهما. حينما ينهي مايكل واجبه، أو غداً، ينبغي عليهما أن يخرجا معاً لتوثيق الصداقة! على أثرها إختفى أكسل.

خلال الإسـتراحة كان الملك يجوب القاعة مـع أتباعه من الرجال المقرّبيـن. توقّف للحديث مع رجـال مختلفين من المدينـة. كان الملك

مرتدياً فرو سَـمُّور ومتقلّداً جزّةً ذهبيّة في عنقه، ضحك بضع مرات عالياً بخُيَـلاء. ينس أدرسـن كان منشـغلاً بالتملّص مـن مضايقات هـذا وذاك بحنكته. قرب الملك كان يسـير رئيس الأسـاقفة ماثياس السترنجنيسـيّ. كان السـيد العجوز يمشـي سـاحباً ذيل ردائه الثمين معه فـوق الأرضيّة، كان يتحـرّك بلباقـةٍ، مطلقاً بضع نـكات مبتذلة، ربّما كانـت هي الوحيدة التي يتذكرها من أيّام دراسـته الضائعة الكئيبة، وكاشفاً عن فمٍ أدرد، فيما كان يبتسم لمن حوله في القاعة. حينما مضوا ثانية إستدار الحَبْرُ العجوز مرّة أخـرى وضغط عينيه الحميمتين مومئاً بالتحية للشـباب بجمع وجهه المتغضّن المنتعش بأشعة الشمس.

وما أن انصرف معالي السـادة بعيداً حتى تفجّرت الموسـيقى بنفير حقيقـيّ ليـوم الدينونة، مسـتحثّة الجميـع على الرقص مـن جديد. بحث مايكل عن أكسل، لكن لم يبد أنه على حلبة الرقص.

بعد قليل نسـي مايكل كلّ شـيء مـن حوله. أخذ يفكّـر مرة أخرى بحياته الفاشلة، صعوداً وهبوطاً. شعرَ بتعبٍ من كلّ الفراسخ التي قطعها فـي ملاحقـة المسـتحيل. كيف حـدثَ وأن قـام بطرد السـعادة مـن قلبه ليصبح مشرّداً دون كلّ هؤلاء السعداء؟ نظمَ، فيما كان هناك مستنداً على مِطرَده، أربعة مقاطع لاتينيّة سداسية التفاعيل، كان فحواها كالآتي:

فقدتُ ربيع حياتي الحقّ في الدنمارك توقاً إلى السعادة في الأرض الغريبـة، وهنـاك في تلـك الأرض لم أعثر علـى أيّ سـعادة، لأنّني كنت أقاسـي الحنين إلى الوطن أينما ذهبت. لكن بعد أن حاول العالم إغرائي دون جـدوى، كانت الدنمارك قد ماتت في قلبـي أيضاً، وهكذا أضحيتُ مشرّداً.

القادس

لم يكن أكسل على الحلبة بين الراقصين، كان جالساً في صالة الخدمة التي يُعدّ الطعام والشراب فيها. إستطاع أن يجعل الشابة العذراء التي راقصها لوحدها تجلس معه على كنبةٍ تقع في أشدّ الأركان عتمة. كان اسمها سيغريد وهي ابنة لأحد المستشارين.

كان أكسل منشغلاً في الإهتمام بسيغريد. كانت للأسف، تقول «لا» لكلّ شيء تقريباً، سواء أكان ذلك شراب شعير بروسيّ أم تذوّق فطيرة. تفكّر أكسل مليّاً في هذا الموقف دون أن يصل إلى نتيجة، فقد كان بإمكانه أن يلاحظ أن سيغريد تعلّمت أن تقول «لا» على ظهر قلب. أمّا هو شخصياً فقد أكل بتردّد، لكن فقط بعد أن دفع بسيغريد إلى تناول قضمة من الفطيرة حتى وثب قلبه في داخله وألقى بنفسه على الطعام في نهم.

«إشربي معي، يا سيغريد!»، توسّل أكسل. لكنها قالت بحيرةٍ «لا». لم تكن سيغريد تعرف فيما إذا كانت راغبة، كلاّ! إنّها ليست راغبة. نظر أكسل فجأة بملء التوق إلى شفتيها، كان فمها رقيقاً ونديّاً مثل زهرةِ بُركةٍ، بقي جالساً والكوز في يده مستغرقاً في نشوته. حينها ضحكت سيغريد من كلّ قلبها. رشف أكسل من كوزه وانفجر بالضحك أيضاً، ضحك الإثنان بعنف. جلست بعدها سيغريد هادئة وومضة جَذَلٍ تلمع في عينيها. يا لها من فتاة يانعة وغضّة. فليحرس الربُّ يَدَيْ سيغريد، يا لهما من أنيقتين ورهيفتين.

كانـت الملامح التي تحملها سـيغريد تشـبه ملامحهـا حينما كانت طفلـة، إضافة إلـى ذلك يمكـن للمـرء أن يرى كيـف سـتكون ملامحها حينما تكون أمّاً ناضجة، كان وجه سـيغريد الناعـم يحمل صورةً غامضة لثـلاث مراحل من عمر الإنسـان. من الممكن تنقطع أنفـاس المرء حين يتأمّل شقرة شعرها الناعم.

حـدّق أكسـل بنظـرة محترسـة نحو فسـتان سـيغريد، الثـوب البنّي مقصـوصٌ عند الرقبـة والمرفقيـن، الحرير يشـفّ عمّا تحته. فـي النهاية شَعَر أكسل بحسرةٍ عميقة.

عجّل سيغريد وأكسل في نهاية الأمر بالعودة إلى القاعة من جديد، كانت الموسـيقى تُعزف بحيويّـة، فرقصا الآن مدّة أطـول، بانقطاع نفس، طوال تلـك الليلـة الهانئة. لم يكـن يبدو على سـيغريد أنها سـتتعب من الرقـص. كلّما طال الوقت كانت تزداد هدوءاً، لكن حين يدعوها أكسـل للرقص كانت توافق، ولـم تكن لتتعب أبداً. يدا سـيغريد الصغيرتان كانتا رطبتين وباردتين، تنفّسـها بدا مثل نفحة خفيفة، لا تترك أثراً تقريباً. فكلّ مرّة تنتهي رقصة كانت تبتسم دون أن تعرف لماذا.

في تلك الليلة أصبح الزمن سرمديّاً حولهما، ظلاّ مواصلين الرقص هكذا منذ بد الخليقة. أصيب أكسل بالحزن مثل رجل عجوز إستعاد في ذاكرته زمنـه الماضي. حينها ضغط على يد سـيغريد. رفعـت عينيها إلى وجهه واسـتيقظت، إبتسمت دون تحفّظ، مفعمة بالاستسلام والثقة. لكنه لـم يكن يعرف كيف يمكنه أن يتقرّب من روحها الناصعة. رقصا بشـكل أبطأ مضغوطين من جميع الجوانب، ظـلاّ يواصلان رقصهما بنعومةٍ كما في الأحلام.

بعـد فتـرة وجيـزة قـدم أخـو سـيغريد ليأخذها إلـى البيـت. رغب أكسـل بمرافقتهمـا إلى البـاب، فقط لبضع درجات على السـلّم، توسّـل

مثل محكوم بالإعدام، لكن سيغريد قالت «لا». كانت تلك آخر لاءآتها المتردّدة واللطيفة.

بقي أكسل واقفاً على الدرج يراقبها وهي تنزل مدثّرة بعباءة كبيرة. إستدارت في الأسفل تماماً وأومأت برأسها، أشرق الوجه اللطيف في القبّعة أبيض تحت ضوء المشاعل المنبعث من الأعلى. بعد ذلك مضت.

لم يبق العديد من الراقصين الآن، أغلبهم جلس في الطابق السفليّ يحتسي الشراب.

عثر أكسل على مايكل ثوجرسن جالساً لوحده مع قدحه هناك، كان قد نضا عنه درعه، فأمكن لأكسل أن يعانق هذا المحارب الصموت. إحتسى بضعة أقداح حميمة معه.

جلسا يتحدّثان لبرهة، كان أكسل متأثّراً بصوت مايكل الناعم. الصخب الذي يدور في قاعة الحرس الكبيرة صار عالياً، في كلّ ناحية كان يصدح قرع الكؤوس والأنخاب السعيدة. الأصداء تعوي هابطة من طاق السقف مرتدّة كصخبٍ معكوس. المرتزقة الألمان بدأوا يثملون، كذلك كانت مشاجرات تندلع هنا وهناك. أغلب سكّان المدينة مضوا إلى بيوتهم.

حينها مدّ أكسل نفسه عبر الطاولة، وغرز نظرته في مايكل ثوجرسن، إقترح عليه شيئاً واحداً بخفوت، وكأنّما لم يكن هناك حديثٌ عن شيء غيره. ضغط مايكل على طرف أنفه، بتعبير نادر ينمّ عن مزاجه، وبعينيه الداخليتين أبصر القادِس[1]، فهزّ برأسه ومسّد لحيته.

فالقضية الآن هي أن أسطولاً من «لوبيك» كان يرسو عند الأرخبيل خارج ستوكهولم. التجّار، الذين دعاهم الملك كريستيان للقدوم لبيع

(1) القادس: سفينة شراعية كبيرة ذات مجاذيف. (المترجم)

المؤن إلى الجيش حينما كان يحاصر المدينة، أبحر قسم منهم بعيداً الآن، لكن السفينة الكبيرة الشهيرة، التي تحمل من غانيات لعوبات، ما زالت ملقية مرساتها هناك. كان أحد التجار الكبار من «لوبيك» هو الذي أبقى هذه السفينة في البحيرة، والتي كانت تجول ببضاعتها في كلّ الأنحاء التي يتواجد فيها الجنود بأعداد غفيرة.

قصد أكسل ومايكل إلى هناك على وجه السرعة، تناولا سلاحيهما وانحدار صوب المدينة. كانت هنالك عتمة وضباب في الجوّ، الساعة تكاد تقارب الثالثة صباحاً. الشوارع كانت مقفرة، وليس ثمّة من ضوء. تعثّرا وسقطا مرّات عدّة فوق هذه النفايات أو تلك، في النهاية وصلا لبوابة «سوندربورت» وأفلتا، ببعض الكلمات الطيبة، من الحرّاس. تحت الجسر أسفل السور كان دائماً ثمّة مراكب شراعيّة يمكن تأجيرها، إنّما في تلك الليلة لم يكن هنالك ولا حتى قارب واحد. إنسلاّ شرقاً على امتداد الشاطئ الضيّق فعثرا على قارب بعد مسافة لا بأس بها، قطعا الحبل الذي يربطه وأبحرا به.

كانت السفينة تقبع بعيدة نوعاً ما خارج جزيرة سلوتسهولم، مضى وقت ما قبل أن يستطيعا لمح الأضواء خلال الهواء الكثيف. كان عليهما الإرساء على امتداد جهة اليسار منها. بعد عشر دقائق من التجديف في رطو. نليل والبحر المزعجة وصلا إلى السفينة التي كانت قد ألقت مرساتها هناك فيما كان ذيلها المرتفع يلوح في العتمة والضباب.

لكنهما عرفا بقدوم السفينة من على مسافة بعيدة قبل وصولهما إليها، كان ثمّة حفل كبير على متنها. ثلاثة قناديل، واحد على كلّ سارية، تنشر أضواءها فوق حبال الأشرعة وظهر المركب، أشخاص عديدون يتحرّكون على متنها. الضباب يشكّل أطواقاً كبيرة حول أقمار القناديل الثلاثة الحمر.

«ها هنا القوارب كلّها!»، قال أكسل بصوت خافت وهو يضحك، فيما كانا ينزلقان تحت حَيزوم السفينة. بلى، كانت حوالي دزينة من القوارب الصغيرة تعوم أسراباً حول سلسلة المرساة.

ثمّة صياح ينطلق بالألمانية من ناحية قيدوم السفينة، حيث تمثال تنّين متعطش للدماء، يكشّر عن كلّ نابٍ في فكّيه.

«أيّها الشباب هناك!»، هتف أكسل ووثب من على طرف المركب إلى الحبال، مدّ البحّارة له أيديهم لإعانته على الصعود إلى متن المركب. ربط مايكل الزورق واقتفى إثره.

قرب الصواري كانت تهجع براميل شراب الشعير تحت القنديل، وفي محيط ظهر السفينة نُصبت سُقيفات صغيرة مصنوعة من قماش الأشرعة. كان ثمة ضوء في مؤخرة السفينة، ومن هناك أمكنهم سماع ضجيج الصفير والمزامير، صيحات نشوة وقرع كؤوس. كانت تلك هي أصوات النسوة، ويا لدفئها في هذه البحيرة المالحة! إنّه شيء حميميّ ويلامس القلب سماع مثل هذه الأصوات العذبة على تلك السفينة الخشنة الرطبة. كانت الألواح المزفّتة تهتز تحت المحتفلين، صعوداً ونزولاً، السفينة كلّها كانت تهتزّ على طولها كالمهد في البحيرة، وهناك كانت تُفرش الدُّثُر خارج الحجيرات.

صوت خطى خفيفة تناهت على متن المركب بالقرب من أكسل ومايكل، أقدام رشيقة، لكن رغم ذلك إهتزّت الألواح تحت الثقل المعافى لإنسان بالغ. ظهرت فتاة في ثياب زاهية خارج العنبر وعجّلت باتجاههما. دسّت نفسها بنعومة بينهما مرحّبة بصوت مُلاطف، دون كلمات، شعرا فجأة بدفء قربها المدهش.

مشوا مع بعضهم باتجاه القنديل، حيث رُفعت الأقداح صوبهما مصحوبة بالأنخاب، وحين أبصر أكسل وجه الفتاة إنحنى بسرعة، كان

لها حاجبان مقرونان عند الأنف. إنحنى لها بسرعة وسأل بألمانيّة متعثّرة:

«ما هو اسمكِ يا ذات الأسنان البيض؟».

أجابت بصوت خفيض ودافئ، وكأنها كانت تعرفه منذ زمن طويل، وأنها تعرف أنه سيجيء:

«لوسيا».

فخُّ التأريخ

قبيل ظهيرة اليوم التالي ذهب مايكل وأكسل إلى البيت. توجّها صوب الحيّ الذي يقطن فيه أكسل، كان يمتلك عِلِّيَةً في منزل مرتفع مطلٍّ على الساحة الكبيرة. جلسا هناك حول إبريق شراب شعير، كلاهما كان مشتتّاً ومنهَكاً. لكن أعينهما كانت تتألق بومضة ماكرة، مُسلمين نفسيهما للصداع والذكريات.

خصوصاً مايكل فقد شعر ببهجة داخلية، وكان ثمة جذل إحتفاليّ مُتحَدٍّ يحيطه تقريباً، ألم تكن ثمّة أنوثة ما في نظرته؟ ألم يك يبدو وكأنه يريد معانقة العالم كله ومنحه الموت والشيطان في الوقت نفسه!

لم يستطع أكسل أن يفهمه، نظر إليه بفضول، فقد كان هنالك شيء واحد عرفه أكسل، فخلال الليل سمع عويل إنسان يتناهى خارج السفينة، كانت تصدر من داخل العنبر صرخات مخنوقة طويلة. كان ثمّة شيء مروّع خاص يصيب من يسمع تلك الصرخات، فلم يك يبدو أنها صادرة عن مخلوق بشريّ. وحينما هرع أكسل للنجدة أخبروه أنها تعود لصديقه، ذي اللحية الحمراء، فقد كان ثملاً حدّ الموت. حين هبط أكسل إلى العنبر أبصر مايكل مضطجعاً بشكل يصعب التعرّف عليه، تعابير وجهه كانت وكأنها لمجرم على المخلعة[1]. لاح لأكسل وكأنه لا زال يسمع تلك الصرخات المحزنة، كان مايكل متشنّجاً، فيما كان مستلقياً ومستنداً على عنقه وكعبيه ويحملق إلى فوق في ضيق شديد، كان يسمعه وهو يزدرد ريقه ويصرّ على أسنانه. لكنه يبدو الآن في مزاج

---

(1) المخلعة: أداة تعذيب قديمة يمطّ عليها الجسم. (المترجم)

طيب، أو بالأحرى في مزاج نادر...

تطلّع أكسل إلى لوح النافذة المدوّر الأخضر. الشمس تسلَّلت عبره، فتح النافذة على مصراعيها. غمر ضوء الشمس المكان. كان السقف منبسطاً في ضوءٍ ضارب للبياض، وفي أسفل المجرى المائيّ الضيّق لاح زورق صغير ينساب بشراعه الصغير، وفي البعيد كان ينتصب البرج الكبير في «سوندرمالم» ساطعاً بضوء منعكس أمام الغابات، كان في الإمكان رؤية الندوب التي خلّفها إطلاق النار على السور بوضوح. الساحة التي في الأسفل ما زالت مغطاة بالطين والوحل بسبب أمطار يوم أمس.

«أنظر!»، صاح أكسل. «هنالك حفل آخر في القلعة، يا مايكل!».

على امتداد الطريق باتجاه القلعة كانت تسير مواكب النبلاء وأصحاب المقام الرفيع.

قفز مايكل إلى النافذة. «إذن عليّ الذهاب»، همهم باضطراب. من الخطأ أن يكون المرء بعيداً إلى هذا الحدّ إذا توجّب عليه العودة سيراً على الأقدام. هو يواجه مشكلةً عويصةً الآن. خرج مايكل على الفور.

ظلّ أكسل واقفاً ويرقب المدى الذي يجرجر فيه متكبّرو ستوكهولم وأغنياؤها أجسادهم في طوابير بطيئة صوب القلعة. قدم الفُرسان على متن أحصنة طويلة الذيول، بمشابك في قبّعاتهم ووشائح فروٍ مزركشة، ومهاميز ذهبيّة تلمع عند كعوبهم. رئيس الأساقفة ماثياس ركب منحنياً ومتداعياً على سرجه، عباءته الحمراء المزغّبة الحواف كانت تتدلى على جانبي حصانه المحجَّل وتلتمع بحدّة مثل خَشخاش أحمر كبير تحت الشمس. المواطنون المهمّون كان يسيرون على الأقدام، بثياب مُنَشّاة وعِصِيٍّ طوال، فيما كانت السيدات الرفيعات الشأن يمخرن في عرباتٍ تتهادى وفق خطى مدروسة. من جوانب الشوارع قدم العديد ملتحقين

بالجمع، ثمّ انحرفوا جميعاً نحو بوّابة القلعة، حيث كان طاقها المستدير يستقبلهم تدريجيّاً من أسفله.

حين تعب أكسل من النظر إلى المسيرة إستدار إلى الصالة، مدّ نفسه غير عارف بما عليه أن يفعل مع نفسه.

سيغريد! مدّ نفسه بفخامة وابتسم في تأثّر شديد، تدفّق الدم في رأسه وصدره من التوق. تطلع مرّة ثانية إلى الغرفة التي تتناثر فيها أسلحته وسروجه، ثمّ شعر بالقنوط فألقى بنفسه على السرير ونام.

بعد بضع ساعات إستيقظ وخرج إلى المدينة. كانت الشمس مائلة وثمّة هدوء شديد في الشوارع. فقط من داخل الخانات أمكنه سماع لغط الجنود، لكن حتى صَخَب سُكْرِهم كان خافتاً، كان ذلك هو اليوم الثالث الذي تحتفل فيه المدينة.

تمشّى أكسل عبر الشوارع في أمل غائم. كان يبحث عن سيغريد. وعندما فشل في العثور عليها توجّه صوب إحدى النواحي الكثيفة الأشجار وتسكّع فيها بلا هدف هنا وهناك، وكأنّ سيغريد كان يمكن العثور عليها خلف هذه الشجرة أو تلك.

توقّف أكسل حينما هبطت الشمس، بدت المدينة مغطّاة بالسواد بفعل الأمواج الورديّة في السماء الصفراء، وهناك كانت النواقيس تقرع لقدّاس المساء. تجمّعت من جهة الشمال صفوف سحائب قاتمة مرتفعة، لكن عند الجنوب ثمة ضباب منخفض، ربما سيبقى مرئيّاً حتى نهاية اليوم.

حينما عاد أكسل إلى المدينة ثانية كانت العتمة والسكون تلفّان كلّ شيء، سكون شامل. توجّه نحو غرفته. لكن حينما وطأ إلى الداخل سمع صيحة ارتياح صغيرة صادرة عن امرأة، كأنها صفير طير، ثم حيّته مطوّقة عنقه. لقد كانت لوسيا!

لكن كيف أمكنها أن تصل إلى هنا؟ لقد كان ممنوعاً عليها بالتأكيد أن تظهر نفسها في المدينة، ثمّ كيف استطاعت دخول غرفته؟ بلى، أكسل أخبرها بنفسه أين يقطن، وتكفّلت هي بالبقية ومعالجة أمر التسلّل عبر كل صنوف الحرّاس.

أحضر أكسل طعاماً وشراباً فرنسياً.

في الوقت عينه كان مايكل واقفاً للحراسة في بهو القلعة الكبير، وهنالك أصبح شاهداً على حدثٍ مشؤوم في تاريخ الشمال الإسكندنافي. وبالرغم من أنه لم يكن سوى مشاهدٍ، فقد ترك ذلك أثره عليه طوال حياته.

ماذا كان سيحدث؟ لم يكن لأحد أن يعرف. جميع هؤلاء المميّزين المتجمهرين الذين كانوا يتحدثون ويطنّون في البهو في أعلى حالات الفرح، مصقولين ومختالين بملابس الإحتفال تحت نور الشمس الملوكيّة...صمتوا جميعاً في لحظة واحدة وكأنّ على رؤوسهم الطير، ولم يعد يسمع سوى صوتٍ يتيمٍ جافٍّ تحت السقف الفسيح، صوت غير مسيطر على نبراته، بحّة ترتفع وتنخفض. كان غوستاف ترول هو الذي يتحدث. الصوت لوحده كان نذير شؤم، كأنّه صوت نقّار خشبٍ يتيمٍ ينقر غصناً ذابلاً في عمق الغابة عندما يغمر الطبيعة هدوءٌ مميتٌ وهي تواجه طقساً عاصفاً. لكنّ معاني الكلمات وحدها جعل من رُكَب السامعين ترتعش، أكثر مما جعلت الدم يصّاعد إلى رؤوسهم. كانت حكايات مشؤومة تلك التي دمدم بها رئيس الأساقفة.

لم يعد وجه غوستاف ترول ذلك الوجه الذي كان يعرفه مايكل، ذلك غوستاف ترول الذي لفت انتباهه لأنه كان معجباً به بشكل أعمى. كان مثل ينس أندرسن من أكثر الرجال علماً في بلاده، وفي نفس

الوقت الأقوى سلطة، كان عقلاً لا شبيه له ورجل الفعل الحازم. كان الأقدس والأكثر تهتّكاً، جمعَ كلَّ معارف عصره وقدراته مع ثراء الأملاك والأموال. في معرفته باللاهوت والقانون، كذلك في رؤيته الإستراتيجيّة، كان لا يجاريه أيّ رجل آخر. لكن هذه المرّة التي يلمح مايكل فيها وجهه، كان متغضّناً ومحفوراً بكوارثه، منهكاً من البغض، وليس خالياً كذلك من تعابير الإخضاع. الوقار الذي انتحله لحجبِ أشياء عديدة مخفيّة جعله يبدو تعيساً لا غير. لم تكن الابتسامة مناسبة له، كان أشبه بكاتبٍ أخرق يثير السخرية.

لكن وجه رئيس الأساقفة الآن أعيد سبكه، في النهاية، وأصبح بارداً، وبذات الطريقة التي يتغيّر فيها الإهتمام المتحيّر لعاشقٍ حين يحين الزمن، تحوّل اللطفُ المتسوِّلُ في عينيه إلى قضاءٍ قاسٍ، وتودّده صار تسلّطاً فظّاً.

رئيس الأساقفة هذا عامله السويديّون بقسوة كبيرةٍ كما يعامل الناس رجلاً قاسياً. إضافة إلى أنهم دكّوا قلعته وحصنه وسوّوهما بالأرض كما نهبوا كاتدرائيته. لقد سرقوا كلّ أملاكه، رموه في الزنزانة مثل لصٍّ وعذّبوه هناك. كانوا ينتظرون أن يظلّ عدوه، ستين ستور، باقياً على العرش ملكاً. كان الإسكندنافيون دائماً هم الأسوأ مع بعضهم بعضاً. الآن أصبح كريستيان ملكاً، بالعنف، رغم كلّ أسلحة السويديّين وإرادتهم، وها هو هنا الآن من أجلهم.

جون إيريكسن، الذي كانت حياته ترافق تحركاته والتي لم تكن سوى سلسلة من المصائب المُرَّة، كان يقرأ الشكوى المدوَّنة بصوت عالٍ لجمع الحاضرين. حُشِرَ ثلاث سنين في زنزانةٍ في هذه القلعة المحصّنة ذاتها، كاحلاه لم يشفيا إلى الآن.

فيما كان جون أيريكسن يتلو، شرع الحشد بالتذمّر في البهو

وأخذوا يتململون، فاقدين كلّ ما لديهم من رباطة جأشٍ مثل حيوانات وقعت في فخٍّ.

ثمّ مضت القضية نحو الوجهة المقدَّرة لها في ذلك اليوم، حينما توصّل شخصان متشابهان، ومتناقضان مع ذلك، إلى الإنفصال. كانا مخلوقين لبعضهما مثل طفلين أخوَين لا يستغنيان عن بعضهما بعضاً ويؤذيان بعضهما جيّداً، يجرّحان بعضهما بطواعية بارعة وماهرة حتى يأتي اليوم الذي فيه ينفصلان، كلّ واحد لنفسه، حاملين معهما الموت في القلب.

رُعبُ المساء كان يتضمّن مصيبةً إضافية لم يكن بمقدور الأرواح الشريرة إبتداعها. كانت هناك امرأة، هي أرملة ستين ستور. نظرتها للحياة وظروفها تطلبت أن تحمل الأوراق بنفسها، أوراق حكوميّة، لم تكن قد تجاوزت العشرين من العمر. ردّت لوحدها على الإتهام من خلال إبراز وثيقة تثبت أنّ كلّ الجرائم التي ارتُكبت بحقّ غوستاف ترول والكنيسة كانت مقرَّرة من قبل مجلس المستشارين السويديّ، مختومة بتواقيع رجال الدولة الأوائل! لكن لم يكن هنا من تعليق على قوّة عناصر مجلس المستشارين، كلاّ، فها هنا يدور الأمر حول قضية تمسّ الجوهر. الآن حصلت المحكمة براحة بال على أسماء المذنبين وأختامهم. الماء يطفئ النار عادة، لكن أيضاً يمكنه أن يسعرها حينما تكون في ذروة عنفوانه. لقد كان الشيطان ذاته مَن لعب تلك الورقة على الطاولة.

الآن فُتح الباب للحرّاس المسلّحين، رجال في دروعٍ وسيوفهم عارية، دخلوا وشرعوا في اقتياد المتّهمين إلى السجن.

جمعَ ينس أندرسن رؤوس القانون حوله وأعلن انعقاد المحكمة. رجلُ الربِّ العظيم وتاجر الثيران هذا كان يدرك كيفية مواءمة مادة القانون مع إستحقاقات القضية، متابعاً في هذه الحالة مَيْلَ قلبِهِ الشديدَ،

الـذي كان يشـير عليه بما هـو حقّ. لكـن حتى أعمـق الحقائق تأسّسـاً، الحقيقة الشيطانية، قد فشلت هنا، لم يمكنها إنقاذ الشمال الإسكندنافي. بمثل هذا الرفض الكبير للسعادة ميّزَ الإسـكندنافيّون أنفسهم، لدرجة أنّ أكثر وسـائل الإنقـاذ تطرّفاً كانت تقضـي على كلّ أمل فـي موضعه. إلى هذه الدرجة بلغ غموض الخلاف بين شـعوب الشمال، إلى هذه الدرجة من العناد كان قدرهم. ممالك الشـمال إنشـطرت ثلاثة أجزاء مثل جمرةٍ من حجر.

كان ذلك في السابع من نوفمبر 1520.

لكـنّ ذلـك الرجـل الـذي يمسـك كلّ شـيء بقبضتـه، مَـن جمـعَ الرؤوس المتهورّة مع بعضها وسخّر من أجل قضية مُلكه مواهب الرجال المتعطشـين للثأر، الخبـث، الخديعة، يجلس الآن وحيـداً في مقصورته، فيما يقوم أتباعه بإنهاء ما يتوجب عليهم فعله.

نظـر مايكل ثوجرسـن إلـى الملك الـذي كان قاعـداً إلـى طاولته، منتصباً في جلسـته مقابلاً لظهر الكرسـي، حالكاً في الظـلال التي يلقيها موقد النار خلفه. حمل مايكل شـمعةً له. أبصـر وجه الملك، كان متوتّراً ومسـترخياً في نفس الوقـت. كان يبدو مثـل رجل ما زال يحـاول إتخاذ القرار في قضية كانت قد انتهت منذ وقت طويل.

لوسيا

لوسيا، طفلة الشـفق... لكم هي يافعة! ملاك هابط هي، نعم، كائن بشـريّ. حاجباها مقرونان مع بعضهما بين العينين، الشفق ترك أثره على جبهتها.

لوسـيا لا يمكنها الضحك على الإطلاق. لا شـيء سـوى تكشـيرة خاليـة مـن فرح كشـخص أبكم يكشـف بلطـف عن أسـنانه محـذّراً. لا تظهر السـرور سـوى بين حين وآخر، وحينذاك تشـبه إبتسـامتها يوماً من أيّام سـبتمبر في الدنمارك، حينما تحلّق طيور جذلة بأسراب كبيرة تحت السـماء الصافية، فيما الزهور الذابلة تنتصب سـاكنة بحكمة العارف. آه، لوسـيا لم تكن حتّى تبلغ العشـرين من العمر، إلاّ أنّ ثَديها قد نَهَدَ، لكنّه صَلبٌ للأسف مثل ثمرةٍ سقطت عن شجرتها.

لوسـيا! كان بإمكانها أن تترنّـم بمقاطع من الأغانـي، إنّما من دون علامة تدلّ على البهجة. لم تكن تعرف شيئاً غير العوم تحت الماء، مثل شـخص غريق يغطس باتجاه قاع البحـر. كان ذلك بمـلء إرادتها، وذاك كان سـبب البرود الغريـب الذي يلفُّهـا. لكنها غير عارفة بشـيء لم يكن بإمكانها سوى إبداء دهشة ساذجة مثل الخنفساء التي تسقط على ظهرها في المجرى وتنسـاب بعيداً وقوائمها مرتفعة في الهواء حتى بقية حياتها، إلى أن يمرّ الدولاب الساحق فوقها.

لكـن كانت هنالك لحظات في تلك الليلة، حينما اشـتعلت لوسـيا بزيت الإثم المقدّس. على رأسـها القاتم ائتلقت هالة من شـبق لا يكلّ،

وهَلَعٌ، اضطربت روحها بجموح، ثمة نظرة زائغة في العين كفارس صليبيّ يبصر فجأة ورود الدم القانية تتفجّر من الصليب المقدّس المرسوم على صدره.

غفا أكسل في مكانه.

نام وحلم أنه كان ينزلق إلى واقع مترنّح آخر، كان جالساً على شاطئ البحر وسيغريد إلى جانبه. كان وكأنه نعسان حتى الموت، ومع ذلك ينهض ويتهادى إلى الماء ليهيّئ سريراً لهما. جاهد طويلاً مع الأمواج، رتّبها وطارد بعدها موجةً بيضاء ليجعلها وسادة لهما. لكن كلّ ما قد أعدّه تلاشى بين أحضانه. قبض على زوايا المُلاّءات التي ماجت وأبحرت نحو اللاشيء، تصارع أخيراً مع الوسائد المضطربة. ثم استسلم في النهاية.

... بعد قليل حلّق أكسل وسيغريد بعيداً عن الأرض. نعم، ظلاّ لبرهة ساكنين في الهواء فأمسكت سيغريد بيده. بعدها طارا نحو الأعالي الواسعة والمدوِّخة، فيما كان أكسل في عزّ النوم حتى توجّب عليهما مواصلة التحليق عميقاً في السماء، لأنّ هنالك مشهداً عند نهاية العالم كان يتوجّب عليهما رؤيته. لكنهما حينما طارا لمسافة بعيدة تخاذلت سيغريد، إزداد ثقلها وأخذت بالتذمّر، فهويا على الأرض. إستيقظ أكسل، نام ثانية وحلم من جديد بأشياء مدهشة لم يمكنه تذكّرها.

«أرني وَحْمةً في مكان على جسدك، إذا كانت فيك واحدة، ليمكنني أن أتعرّف عليك في الجحيم»، رجاها أكسل بما يشبه الهذيان حينما أوشك اليوم على الإنقضاء.

ضحكت لوسيا بحياء. كانت على وشك البكاء من السعادة، فأرته الندوب التي تحمل على ظهرها من أثر السياط، كانت مثل القصب الشاحب، ومثل القصب كانت تنتهي بزهور بنّية على الجلد، حيث

الموضع الذي لثمته عقدة السوط.

... ثانية غرق أكسل مغمضاً عينيه، دون أن يعرف ذلك، ومرة أخرى كان يحلّق، لكن لوحده. كان يطير بوضع عامودي عبر شوارع ستوكهولم على ارتفاع سقوف المنازل، كان يفرد ذراعيه على الجانبين مثل عدّاء ويحافظ على البقاء محلّقاً في الأعالي بقواه الداخلية، ينسلّ بقوّة ويتقدّم إلى أمام. الشوارع مقفرة في الغسق المنذِر، بعيداً إلى الأمام في عمق الأزقة يرى ظلالاً تتحرك وتعدو بعيداً مديرةً ظهورها، لكن هناك حيث كان يطير لم يكن ثمة كائن حيّ. السماء كانت مشتعلة بصفرة شاحبة، كما لو أنها حوت حكمة السعادة.

ولأنّ الطريق كان مغلقاً بالبيت العالي، خشيَ أكسل أن يطير في اتجاه السور القاتم، وجوه غائمة كانت تترصّد من ثقوب النوافذ، إستجمع قواه واستطاع أن يرتفع بنفسه أفقيّاً في الهواء، إنسلّ خفيفاً فوق حافة منزل كان قد أوشك على الوصول إليه. حلّق أكسل بعدها منخفضاً ملامساً بقدميه الأجمات والشجر. لكن فجأة شعر بالإمتلاء ورغب بالمزيد، والمزيد، إرتقى صاعداً، فيما أصبح الهواء أعمق وأشدّ صفرة، فأفرد جناحيه وتمايل فوق كل الأبراج مثل ذرّة غبارٍ في الهواء المضيء والطلق.

واصل أكسل تحلقيه، وعميقاً في الأسفل يغوّر الماء نفسه بأمواج لا صوت لها، أبصر سفينة تنحرف تحته فتساءل ملهوفاً فيما إذا كان سيلتقي بها وهو في هذا الاتجاه الذي يطير فيه. وكما لو أنه يطير لوحده بقوى إضافيّة إستطاع أن يهبط على متن السفينة بأمان.

كانت تلك سفينة السَّعْد.

على مقدَّم السفين ثمّة تائه كان يقف للمراقبة، دون أن يفكّر في شيء آخر في العالم، فقط يحدق باتجاه ضباب البحر، السفينة تبحر

وتتمايل بخفّة فوق سطح الماء.

لقد كانت سفينة السَّعد لكولمبس. هو بعينه، الربّان الغارق، واقفاً عند الدفّة ومحنياً وجهه الميّت فوق البوصلة، الوجهه كانت باتجاه الجنوب، على كلا جانبيه ثمّة قزم غابةٍ أحمر عارٍ، شيخوختهما تقطر خبثاً من حولهم. وأفردت الأشرعة على اتساعها من الصواري مثل شبكة عنكبوت، النجوم كانت تضيء عبر ثقوبها.

لكن في مؤخّر السفينة عند البرج الخشبيّ الشاهق، على متن السفينة وتحته، في كلّ زاوية وصدع، ثمة نسوة من كلّ أنحاء العالم ينتظرن، امرأة من كلّ صنف من آلاف البقاع التي على الأرض، من البيض كثر، من يانعات العمر ذوات سيقان الفتيان والنهود المتبرعمة إلى السيدات الراشدات ذوات الرُّكَب المخشوشنة من لبس الرداء، و إلى الآنسات البيض اللواتي يستحمّن صباحَ مساء، وحتى بنات الفلاحين اللواتي تفوح أفواههن برائحة الحليب، حيث أطرافهنّ المُشعِرة، الصلبة، تخبط مثل الهِراوات. ثمّة فتيات ببشرة مدخّنة وعيون ملأى بالبراءة الجسور، ثمّة نساء بشعور حمر كاللّهب وأقدام ببياض الثلوج. أميرات زنوج بشفاهٍ حمر كالورود وأسنان نمرٍ مطوقات خصورهن الفاحمة، المنبسطة. ثمّة صبايا عربيّات، نحيفات وميّاسات كالفهود، عذراى نضرات من حقول بولونيا الخصبة، كائنات صغيرة يتناثر منها غبار الزهور من أعماق آسيا، ونسوة من جزائر البحر ما رآهن أوربيّ في حياته قطّ.

كان هناك الجميع من مختلف الأطوال والأعمار والهيئات، وكذلك من مختلف الأمزجة والأفكار. واحدة تتبسّم جذلاً بفم أنيق وتتحدّث من أعماق قلبها الفتيّ العارف، أخرى تضحك بلطف لكنها تكتم غمّها، بعضهن يستعرض معايبه البائنة، أُخريات يخجلن من تكويناتهنّ البريئة من كلّ عيب، أخرى لا تشبههن تماماً، لأنه يتوجّب أن توجد إحدى

شـواذ الأرض على متن سـفينة السّـعد أيضاً، إحداهن كانت أقلّ بياضاً، أخـرى رحابتهـا المدهشـة تمـلأ العيـن، هنالـك بعـد كلّ شـيء عذراى رقيقات على متن سـفينة السـعد. ربمـا لا تكون كل واحـدة منهن كاملة الأوصاف، لكـن لا واحدة منهن كان يعوزها الجمـال، جميعهن توّاقات للمضي باتجـاه الكمال. كلهن تقريباً متقاربات على متن سـفينة السـعد، فقد كنّ جميعاً فاتنات.

سفينة السعد تمخر وتتمايل بخفّة كالشبح فوق سطح البحر. سفينة السـعد، التي يحلم أكسـل أنه كان على متنها. وشـاعراً بحضور سـيغريد إلى جانبه.

حينها استيقظ فجأة فكانت معه لوسيا.

كان نهاراً سـاطعاً، ثمّة نفير أبواق يسـمع من الميدان في الأسـفل، بنغمات مدوّية، متباهية.

«ليس سـوى صفير بوق»، همهمت لوسـيا غافية واندسّـت بشـكل أفضل في الفراش من دون أن تفتح عينيها.

لكن أكسـل نهض وفتح النافذة على مصراعيهـا. حينها رأى رتلين طويليـن ثابتين من الجنود مع مطاردهم، ممتدّيـن من القلعة عبر الميدان علـى طوال الطريق إلى بهو المدينة، وإلاّ لكانت السـاحة مقفرة بدونهم. مباشرة باتجاه بوابة بهو المدينة...

«المشـانق تُنصَب»، قال أكسـل وابتعد عن النافذة. إختطف ملابسه وارتداها على عجل. إضطجعت لوسـيا علـى ظهرها وتطلعت إليه بيقظة دون أن تفوه بكلمة. نزل أكسل إلى أسفل المنزل.

لكنه عاد إلى الأعلى بسرعة، فقد اكتشف أن الباب كان مغلقاً، وأنّ المنادين في البلدة أعلنوا منع كلّ مواطن في ستوكهولم من الخروج من بيته.

وقف أكسل عند النافذة وانتظر. مضت نصف ساعة، ثمّ ساعة كاملة، وكلما طال وقوفه إزداد تلهفه على معرفة ما يجري. لكن لا شيء قد حدث. بضع رجال مضوا لتهيئة السِّقَالة، وبالأحرى لم يكن هناك سوى هذين الطابورين المنتصبين الساكنين من الجنود يمتدون عبر الساحة باتجاه القلعة صعوداً. ثمة صوت همهمة خافتة وهمس يمكن سماعه من ناحيتهم. الطقس كان قارس البرودة. بين حين وآخر يعدو ضابط بفرسه سريعاً على امتداد صفوف الجنود مقوّماً إيّاهم، ثمَّ يعود ليمكث ساكناً عند بوابة القلعة المغلقة.

حينما عاد أكسل ليستطلع الوضع بعد ساعة، كانت طوابير الجنود ما زالت ثابتةً في مكانها.

حَمّام الدم

خيّـم الهـدوء على مدينـة سـتوكهولم. ما مـن صوت غير سـنابك الخيول يسمع عبر الشوارع حيث كانت فيالق الفرسان تجوب للتأكد من أن كلّ الأبواب كانت مغلقة.

مـاذا يمكـن أن يحـدث، مـاذا سـيتخيّل النـاس المحجـوزون فـي بيوتهم! إنّهم يجلسـون الآن بُكْماً وراء الأبواب الموصدة، عند كلّ نافذة ثمّة وجهٌ حيران، خلف كلّ صدع ثمّة عينٌ متلصّصة. المدينة كلّها تتكتّل في جزيرتها، منكمشـة ومتراكمة مثـل تلّة نملٍ عظيمة. أطراف الجسـور المتحرّكـة مرتفعة في الهـواء مثل أفواهٍ فاغرة، وفـي آلاف الحجرات في المدينـة كانت الأرواح حبيسـة، إلـى أن انفجرت في تخمينـات جامحة، مطلقين لذعرهم العنان. ثمة رائحة حِرِّيفة تنبعث من إحدى تلال النمل، حيث كانت النمال مكتظة بغضبٍ أعمى. رائحةٌ مثل هذه كانت تفوح في هواء «سلوتسهولم»، لا مرئيّة، مسمَّمة بخيالات الرعب.

فقـط قبيـل الظهيـرة، كان أكسـل يحدّق شـبه حانق في الإسـتعداد الأبديّ الجامد للعساكر في الأسفل، فقط قبيل الظهيرة حدث ذلك.

نعم، جميع الرجال الذي سـبق وأن سـاروا في اليوم الماضي نحو القلعة بأفخم ملابسـهم وفـي منتهى القناعـة بأهمية منزلتهم فـي الدولة، عادوا أدراجهم.

بدا أنّ كلّ واحد من أسـياد السويد المشرّفين قد قضى ليلته وحيداً في تدريب نفسه على تكوين نظامٍ أفضل. كانوا قد قدموا بلا نسق معين،

أمّا الآن فقد تجمّعوا وفق المراتب، القساوسة الكبار أوّلاً، يليهم النبلاء الذين كانوا مرّتبين صفوفاً، وفي النهاية محافظو ستوكهولم الحكوميون، المستشارون والأثرياء. لم يعد أحد يمتطي جواده الآن، كانوا يمشون جميعاً على مَهْلٍ مثل خراف صبورةٍ. رئيس الجلاّدين كان ينتظر منذ الصباح الباكر، وكان متلهّفاً.

وصلوا في مسيرهم إلى حيث المنصّة، الأساقفة الكهول المرضى لم يلتزموا بالصفوف، من بين النبلاء كان ثمة من يخطو على الأرض مثل أكباش عنيدة، وأحد المحافظين كان يهزّ رأسه مثل نعجةٍ تحاول أن تتملّص من حبلها، لكنّ أغلبهم ساروا بإذعان في طابور. كانوا حوالي سبعين أو ثمانين شخصاً.

نظراً لمنزلة ماثياس، أسقف «سترانجنيس»، العالية فقد قُدِّمَ ليكون الأوّل، كان ما يزال معتمراً عباءته المخمليّة الحمراء. تعرّف أكسل عليه حينما زحف على ركبتيه ورفع وجهه الصغير إلى الأعلى باسطاً يديه. إلاّ أنّه لم يكن وقت لذلك. نهض رئيس الأساقفة ثانية وأخذ ينضو ثيابه عنه تحت سماءٍ مفتوحة أمام الجلاّدين.

حينها دبّ اضطراب مدمّر في أوصال أكسل. إستدار نحو لوسيا التي كانت واقفة خلفه، وقام بدفعها نحو الغرفة. «ينبغي أن لا تري هذا!»، قال ذلك بهياج شديد جعل من لوسيا ترتعد، فعادت لتنطرح فوق السرير.

كان كلّ شيء قد انتهى حينما عاد أكسل إلى النافذة. جسد رئيس الأساقفة كان منطرحاً على الأرض، مكسوّاً فقط ببنطلون قصير وصدريّة، رأسه كان مستقراً على مسافة طفيفة من جسده. العباءة الحمراء... كلاّ، كان ذلك دمه الذي يسيل مهراقاً من تحته.

وفيما كان أكسل يتأمّل تلك الرأس البائسة، المفصولة، تناهى

إلى سمعه أزيز سيف الجلاد وهو يهوي، فأبصر رأساً آخر يقفز من على المنصّة نحو الأرض تتبعه نوافير الدم. كان رأس فينسنت، مطران «سكارا». إيريك إبراهامسن ليونهوفد كان واقفاً وهو ينضو ثيابه. ثمّة شغب في الميدان الآن، العديد يصرخ معبّراً عن ألمه.

بقي أكسل واقفاً عند النافذة مستثاراً ومحتقناً. أبصر نبيلاً طويل القامة، بديناً يرفع ذراعيه ويخبط في الهواء فيما كان يتكلم، لكنّ صوته الجامح جعل من المستحيل فهم ما يقول. عالياً فوق سطح أحد البيوت على الجانب الآخر من الميدان كانت ثمّة وجوه عديدة يمكن رؤيتها عند النوافذ حيث كان الرجل المهتاج فيما يبدو يوجه كلماته إليهم، لكنهم لم يردّوا عليه. أبصر أكسل سحائب رمادية تندفع فوق السقوف، عاجلاً أو آجلاً ستهطل وتملأ فضاء الميدان برذاذها الرقيق.

رآهم أكسل واحداً إثر الآخر يُقتادون، ومن بينهم ميّز جميع ذوي الرتب العالية من أشراف السويد، بعضهم يتعجّل مرتبكاً وهو في طريقه لنزع ملابسه، آخرون تركوا للجلادين شقّ ثيابهم وفعل ما يشاؤون بهم. القطيع ملتمّ على نفسه، مطوّق بالجند المدجّجين بالسلاح. تعرّف أكسل على وجه مايكل ثوجرسن وبعضاً من رفاقه أسفل الميدان.

هدأ روع أكسل من جديد، كان واقفاً يتابع بعينيه كيف أنّ يورجن هوموث يقود الجلّادين ويوجّههم، فيما كان يشير بيده المندسّة في القفّاز، فقد كان حينذاك في مطلق صلاحياته.

رؤوس عديدة الآن تستقرّ على الأرض المدمّاة الآن، مثل سبّاحين يطأون الماء. الدماء تسيل فوق الميدان مكوّنة شكلاً يشابه حرف أبجديّة عملاق. كلّ مرة يذهب فيها أكسل للنافذة تكون هذه الحروف قد تفرّعت بامتدادات جديدة تستدعي تفسيرات مختلفة. مضت الإعدامات برتابة كبيرة. الطقس الكئيب يزداد عتمة أكثر فأكثر، منذراً بمطر كثيف.

القطيع يضمر، الأجساد تضطجع في أكوام.

سحب أكسل نفسه بهدوء. حينما جميع الرجال المصونين، نبلاء المولد، قد قطعت رؤوسهم، والجلاّدون ذوو البراعة المتنامية شقّوا الطريق بين الجماهير، شعر بالدُّوار، لأن ما وقع كان خارج نطاق إدراكه، ينبغي أن يمتلك الملك سلطة مروّعة غير مُدرَكة لكي يسمح بمثل هذا أن يحدث! تخيّله لنفسه، ملك الشمال، الشخص القصير ذو الكتفين المتينتين والذراعين المفتولتين. كان رجلاً يمكنه حمل الأوزار ورفع الصخور عن الأرض أعلى من رأسه المتجبّر. تذكر نظرة الملك التي كانت تتجه مثل رماح مصوَّبة، حاجبا الملك كانا في تبدّل دائم. فكّر في بحّة صوت الملك، كان ذلك عرضاً بسبب كبرياء الرجل. شعر بالتأثر من مرسوم الملك الإستبداديّ فانحنى أمام جبروت جلالته.

في نهاية الأمر تحرّك أكسل متراجعاً عن النافذة ثم أغلقها.

قرر هو ولوسيا أن يتناولا طعاماً. لم تبد لوسيا أي فضول يتعلّق بما حدث. بعدئذ إضطجعا ليناما. كانت السماء تهطل بشدّة في الخارج.

كان وقت الغسق في اليوم نفسه حينما استيقظ أكسل على جلبة تحدث فوق السقف، خطوات شخص يحاول الجري بخفّة، توقف سماع الخطى فوق السقف وتلاشت. فكّر أكسل بالغرفة الخالية في الجملون خارج الفناء. قفز من مكانه وهرول باتجاه السقف.

ما أن فتح باب الحجرة حتى شعر بأن أحداً ما يختبئ في ذات اللحظة داخل الحجرة. بقي واقفاً عند الباب وجال بنظره فيها، كان ثمّة مرقد فارغ في الحجرة، كوّة السقف كانت نصف مفتوحة. نهض شخص حيّ من على السرير، فتى أنيق الملبس ذو وجه شاحب طويل، ترجّل عن السرير وابتسم لأكسل شبه مذعور ومتكلّفاً المرح. كان طويلاً، هزيل

الوركين وثمّة ظلال معتمة تلوح فوق شفته العليا، ثمّة شيء ما كان يبدو ناقصاً في ملبسه الفاخر. فجأة أدرك أكسل أنه بدون سلاح، وفي نفس اللحظة إنتبه للأثر الأحمر الذي طبعه الحبل حول معصمه.

حينها فطن أكسل لما يجري، قفز داخل الحجرة وتحدّث الإثنان في الوقت نفسه. «تعال هنا»، قال أكسل بسرعة. «أنا مطارد»، أوضح الآخر شبه معتذر، «إسمي هو...».

في ذات اللحظة تصاعد عنف القرقعة أسفل السقف، صوتٌ جِلْفٌ هشّمَ الصمت في المنزل. أدار المطارَد رأسه في المكان باحثاً عن مخبأ، مرتبكاً، لكن ليس خائفاً، ورغم ذلك فقد استجمع شجاعته وحاول أن يبتسم، متهيّئاً للجري دون أن يغادر مكانه. وقعُ أقدام فظّة سُمعت على السقف في الخارج. دفع أكسل الغريب بقوّة وكأنه يريد أن يجعله على الأقلّ في الزاوية حيث كانت المكان أشدّ عتمة، تأرجح الغريب في سيره بضع خطوات وما زال شبه مبتسم. بعدها استقام وقطّب حاجبيه. وهنا ولجَ مرتزقٌ جسيمٌ مكسوٌّ بالجِلد والحديد المقعقعِ عبر الباب مثل ثورٍ مغتاظ وعدّته ونِيره على عرقوبيه، سيفه الطويل كان يخبط على عِضَادة الباب ويخشخش في غمده. كان أكسل في قميصه، أعزل، وكأنما عُصف به جانباً. إمتدّت يده نحو السقف المنحني، فكسر قطعة من لوح مهترئ لنفسه، دون أن يدرك ماذا يحدث. خطوة سريعة، إستدارة قصيرة بين الإثنين الآخرين، بين الجاموس والمُهْرِ الصغير. تهشّم لوحه نثاراً حينما خبط خوذة الجندي، سمع شخيره الفائر، وسرعان ما انتهت المعركة تماماً فافترقا عن بعض. خطى الفتى الغريب إلى الوراء، مرتبكاً للحظة وكأنه يسترجع أنفاسه، ثم أطلق صرخة عالية، حادّة من جانبه.

لم يستغرق كل هذا أكثر من ثلاث أو أربع لحظات. المرتزق الضخم، شبه المجنون، وصل إلى بوابة السقف بوثبةٍ واحدة ومرق

عبرها إلى الخارج.

«كلاّ، بحق الشيطان، يا رجل!»، صاح أكسل بشكل غريزيّ. لقد كان يعرف أنّ مسافة أربعين قدماً تفصل لبلوغ الأرض، لكنّه أبصر وجه الجندي الفظّ المتعرّق مباشرة فوق الأُسكُفّة، رآه يلهث بعمق ويدلي نفسه من فوق الحافة. كان متعلّقاً في الأسكفّة بيدٍ واحدة، لحظة وبعدها اختفى. إندفع أكسل نحو البوّابة ورأى الرجل يدبّ مسرعاً بانحراف على امتداد الكورنيش باتجاه البهو العالي في الفناء المعتم.

حينما عاد أكسل إلى الغريب رآه مترنّحاً.

«لقد طعنني»، همس الفتى السويديّ بنظرةٍ معتذرة. دفع صدره بقوّة إلى أمام وضغط بيديه الإثنتين على جانبيه، طرفت عيناه قليلاً كما لو كان يتألّم أو يتضرّع. فجأة أدار نفسه باتجاه موضع السرير الفارغ واستند بظهره على حافة السرير. صيحة ألمٍ واحدة، فحيح حشرجة خرجت عبر حنجرته. حينما وصل أكسل إليه كان قد مات.

في وسط القلب تماماً استقرّت الطعنة. الوجه ما زال يرتعش بعض الشيء، شفته العليا انتفضت بضع مرّات. لم يكن يتجاوز الثامنة عشر من العمر، كان نحيفاً بشكل لافتٍ وكأنه قد شاخ قبل الأوان، ربّما بسبب الجوع خلال فترة الإعتقال الأخيرة. مدّده أكسل وجلس ينظر إليه وكان محطّماً من الحزن، كل دواخله مغمورة بالألم ومشتّتة.

ثمة خطى خفيفة فوق السقف في الخارج، صرَّ الباب، وحين رفع أكسل بصره إلى الأعلى رأى لوسيا. لقد شهدت كلّ ما حدث وركعت بهدوء إلى جانب أكسل، فانثال شعرها فوق وجه الميّت.

أمرٌ واحدٌ جالَ برأس أكسل حينما كان جالساً هناك. ذات ليلة شتائيّة حول كانون نار في غابات «تيفيدن» المتجمّدة، حيث كان

مضطجعاً ودثارٌ ملفوفٌ حول رأسه ويفكر بفقر الإنسان المُرعِب ساعة الموت. كان ذلك عندما وصل بلاغ موت ستين ستور إلى الجيش. إستقبل الدنماركيون الخبر بارتياح كبير، عمّت السعادة على امتداد المعسكر المرتجف من البرد طوال المساء. تكسّر الثلج إحتفاءً بموت ستين ستور في ذلك المساء. النجوم تدلّت بألوان قوس القزح بين قمم الأشجار. تباحثوا بتلذّذ بالطريقة التي مات بها هذا الرجل الخطير. لكن أكسل، الذي رآه بعينيه ذاتها مصاباً فوق الثلج عند «بوغسند» حيث سُرَّ آنذاك بالسقوط المفاجئ لأحد الأعداء - الحصان والفارس إنهارا في صورة الحصان والفارس المعكوسة على مرآة الثلج! - فكّر أكسل بهذا الرجل المتوحّد، الذي مات على السرج فوق غدير «مالارن» المتجمّد، مع ساق مكسورة تحته. لقد مات، فقد كان ينبغي أن يموت.

ينهمر الثلج في الهواء المعتم، أو لعلّها كانت السماء ذاتها تنسكب وتهدّد بالسقوط. إستسلمت البحيرة بحسرة تحت الزلاّجة، التي يشكّ العالم كلّه بقدرتها على التحمّل. حينها تفجّر قلب إنسانيّ بقلقٍ ملوكيّ. أرض السويد الفسيحة تلاشت أمامه مثل الثلج والبحيرة المتحسّرة، قلق ستين ستور الملَكيّ ومرضه وآلامه وجدت نهاية لها على تلك الزلاّجة الهزيلة مثل نشيج طفل صمتَ بعد نحيب، مثل مَهْدٍ سَكَنَ بعد اهتزازٍ. حينما نظروا إلى ستين ستور كان ميتاً. لم يعد الثلج يذوب فوق وجهه. على امتداد البصر لم يكن سوى الثلج والجليد، ستين ستور، يا من تجلس ساكناً، بعيداً من الصحارى المتجمّدة تتناهى أصوات مثل استغاثات واهنة وصدى استغاثات مرنّمة، يا ستين ستور!

عند ذاك المساء أقبل مايكل ثوجرسن. وجد أكسل ولوسيا جالسين عند الجثة وكلاهما ممسك بشمعة. لم يقل مايكل شيئاً، كان وجهه منهَكاً ومتهدّلاً. بعد أن حدّق قليلاً إلى الفتى القتيل الذي كان مضطجعاً فوق

الأرضيّـة إقتـرح إنزاله إلـى الفِناء لكي يمكنه نقله بعيداً. أكسـل ولوسـيا مضيا إلى الداخل واضطجعا، سمعا مايكل يتحدّث بصوت شبه عال مع نفسه.

حينما دخل مايكل إلى غرفة أكسل، بعد أن أبعد الجثة، كان أكسل نائماً. لوسـيا كانت مستيقظة، لم تعر إهتماماً لمايكل، إضطجعت محدّقة بضوء الشمعة منكسرة ومكتئبة، بعدها غادر مايكل المكان.

كانت لوسـيا أوّل من اسـتيقظ في اليوم التالي. الشمعة كانت ذائبة فـوق الطاولة، لكن الوقت كان نهاراً. نهضت وتطلّعت لما حولها، قلّبت عينيها يمنة ويسـرة وكأنها تسـمع أحـداً، وكأنّ ثمّة شـخص كان يناديها. ثـمّ فتحت بيد حـذرة قرن الكبسـولة التي كان يعلّقها أكسـل حول عنقه، أخرجـت رقاقة البرشـمان منها وخبّأتها في كيسـها. كان أكسـل قد أخبر لوسـيا عن كنزه، كما أنّه تحدّث عنه في منامه. صارت لوسـيا الآن أشـدّ حذراً واضطجعت قليلاً، فيما كان أكسـل غارقاً في النوم. إنسلّت خارج السرير، إرتدت ملابسها ومضت هادئة في طريقها.

إرحمني يا ألله[1]

صباح يومٍ رماديٍّ من أيام نوفمبر ظهرت في سماء ستوكهولم، قبل الفجر، العلامةُ الأولى للحياة والحركة، كانت لشبحٍ إنسلّ بضع مرّات فيما كان يطير من منصة المشنقة.

حينما ارتفع النهار أخذ الناس بالقدوم لمشاهدة ما حدث. جثث المعدومين لم تزل مطروحة في الميدان تعوم في بركة من الدماء وأمطار البارحة. الجنود واقفون يحرسون منشّطين أنفسهم بشرابي الشعير والشراب الفرنسي في ذلك الطقس المزعج. بعد الظهيرة واصل الجلاّدون عملهم في مجموعة أخرى ثبتت عليها تهمة الهرطقة وخيانة الوطن.

كان يوماً قاتماً ساكناً. بدا اليوم أقصر من بقية الأيام، إنقلب مرّة واحدة إلى مساء دون أن يبلغ أكثر.

عند الغروب كان موقد الشمس المشتعلة ينفث لهبه عبر الغيوم حتى أنّ كلّ السحائب انكشفت في السماء مثل عين تنفتح ببطء. بعد أن غابت الشمس بقيت السماء صافية وشاحبة لفترة طويلة. بعيداً في عرض البحر ثمة دزينة بقع غائمة، كانت سفن «لوبيك» التي انطلقت بعد منتصف الظهيرة مفردةً أشرعتها. إشتدّ غسق الشمس حُمرةً عند الغرب، السماوت تتفكّر، كان نهايات وقت الغروب الذاوي، وبرودة قارسة خيّمت في ذلك المساء.

(1) يحمل هذا الفصل مطلع المزمور 51 «Miserere» الذي لحنه الموسيقار الإيطالي غريغوريو اليغري في القرن 17. (المترجم)

في غمرة السكون قرعت أجراس كنيسة «سانت نيكولاي» في نغمة حِداد. نعم، نعم! أتى الجواب سريعاً من دير سانت كلارا في «نورمالم» ومن كنيسة سانت جاكوب. ومن «سوندرمالم» رفعت أجراس كنيسة ماريا ماجدلينا أصواتها. وفيما كانت الأجراس تقرع، كلّ بنغمتها الشاكية، رافقها سراعاً أنين الأجراس من الكنائس الصغيرة.

ها هنا ترقد المدينة الآن مثل كومة تراب معتمة فوق الماء. جزيرة البَليَّة، حيث كلّ الأصوات نُواحٌ، حيث الألسنة المعدنيّة تقلق الهواء وتصرخ، لتجعلها تجذب الحسرات تحت السماء الصافية الألم. الهواء ينفخ جيئة وذهاباً مثل كائن حيّ ينتفض من العذاب، رنين العويل يولد باكياً بأعلى صوته ويموت مثل موجة واهنة في الهواء. الشكوى ذاتها ترتدّ راجعة، الهواء يئنّ، الحناجر اللامرئيّة تلهجُ بمحنةٍ لا ترحم، والهواء يضطرب.

بعدما شكتْ أجراس المدينة وتحدّثتْ طويلاً، جلجلتْ فجأة جميعاً في الفضاء بعنف، ضغطت، عصفت. وبصرخة فضاء طويلة واحدة أطلقت الأجراس العنان لجلبتها الممتزجة في الفضاء، صرخة صافية، حادّة، تثب عالياً في الهواء، قرعات جامحة كانت أشدّ نقاءً من أيّ صوت أرضيّ يولد على امتداد الفضاء. كان كما لو أنّ كائنات لا مرئيّة كانت تتقافز في الهواء المصفرّ بلون النار، أعضاء بيض عظيمة تنهار بقوّة البرق فيما حول الفضاء الأعلى وتصرخ للأسفل، تشكو وتنشد.

اجتاز مايكل ثوجرسن الجسر من «سوندرمالم». سمع الأجراس، دخل المدينة وتمشّى في أرجائها. لم يسبق له أبداً أن شعر بصغر المرء الذي يمشي على الأرض، شعر بنفسه في القاع أكثر من أيّ وقت مضى في حياته المقيّدة، أسفلاً. البيوت الحقيرة ترتفع عن القاع أكثر مما يفعله مَن يسير تحتها، رفع بصره باتجاه الزرائب الخشبية البائسة، خفض رأسه وواصل سيره مثل بهيمةٍ تحت النِّير. على امتداد قيعان المنازل في أحد

جانبي الشارع يمتدّ ميزاب يسيل بدمٍ قذر، عتيق ينسكب من أعالي الميدان. الرياح تعصف، الهواء كان عالياً كما لو أنّه كان جائعاً، الطقس بارد، بارد.

إجتاز مايكل الميدان، حيث كان المعدومون يضطجعون كوماً من الأجساد الهامدة، إتجه نحو كنيسة «سانت نيكولاي».

في الخارج، على الدرج، نهض المرضى والمشلولون واستداروا نحو مايكل، منشغلين باستعراض بؤسهم، وحالما نهضوا فاحت رائحة جروح متعفّنة عن ملابسهم.

وقف رجلٌ لفّت كلتا يديه بشاش أبيض، كان التعفّن قد أصابهما منذ زمن، ثم بسط شفتيه ملتمساً صدقة. ثمة فتى تلمّس طريقه متابعاً الصوت وحدّق بثَقبي لحمٍ واسعين داميين من المكان الذي كانت فيه عيناه. فتى أعرج كان يجلس مثبّتاً ساقه العارية على لوح، كان وزنها يزيد عدّة أرطال بسبب الإلتهابات وتفوح بنتنٍ ساخن. كان الدفء على الدرج بسبب هؤلاء الذين كانوا يتعرّقون من الحمّى.

لكن في عمق الظلمة عند أقدام جدار الكنيسة جلس مخلوق، حزمة من أسمال ورأس، لا غير. كان رأس امرأة، مشوّهاً ومتورّماً من داء الاستِسْقاء، كانت من غير أطراف ولا تحرّك سوى عينيها فقط. تنظر وكأنّها تحدق عبر الضباب، وحين نظر إليها مايكل بشفقة روّعته بالتعبير الشيطانيّ المرتسم في عينيها، لعنة شرٍّ بهيميّة تنصبّ عليه وعلى الجميع.

حين ولجَ مايكل الكنيسة شمّ رائحة البخور، كان فضاء الكنيسة يمتدّ في فخامةٍ، الأحجار الثقيلة المربعة بدت تعزف بغموض، كان ذلك بسبب الأرغن الذي تنبثق أنغامه في نعومة وتتردّد عالياً تحت أجنحة العتمة المرفرفة. ليس سوى بضع شموع تشتعل هنا وهناك على المذابح المحتفية.

لم يوغل مايكل في المضيّ داخل الكنيسة، فبقي واقفاً عند زاويةٍ قريبة على الباب، وحين شعر أنّ ساقيه ستنهاران من الإعياء جلس على الأرض في عمق العتمة، وأغلق عينيه.

واصل الأرغن الطنين هادئاً. إنّه يواسي، إضافة إلى أنه يجعل من القلب ثقيلاً. لقد كان ذلك الذي يقف خارجاً كما هو الحال دائماً، لذا كان يسمع الموسيقى المواسية مكتومةً جدّاً ونائية البعد. كان يقف في الخارج متشرّداً.

عندها، حينما كان مايكل يفكّر بهذا، تفجرت الأنغام صاخبةً، وكأنّ كلّ البوّابات الكبيرة فُتِحت! وجوقةٌ من أصوات حادّة تعالت في ترنيمة. كلّ مزامير الأرغن الرهيفة عصفت بعنفوان وتألّقت مصحوبة بأعمق نبرات الأسى وأشدّ النغمات الدامية قتامة. الترتيلة تتصاعد.

غاصّ مايكل في أعماق قلبه. «يا سيدنا يسوع!»، تشكّى ثمّ أسلم نفسه للربّ القدير. شعر وكأنّ عبء سنوات الوحدة قد ذاب.

نعم، لقد كان مستوحداً، لكنّ المستوحدَ مُدانٌ، وهذا الأمر سيتّضح ذات يوم. عبر الأزمان المشتّتة تتخثّر الأفكار، كل الحقائق البسيطة تنحرف عن طريقها وتغادرك. القدرات العظيمة التي تقتفيها في داخلك بكبرياء، وكأنك الفريد في هذا العالم، سيدفنها الإرتياب. أين هي قوّة خيالك إذا لم تكن تسند العالم؟ أنت مثل الآخرين، لستَ الأقوى، لكنك الوحيد في العالم الذي سيكون، نعم، مستوحداً.

وكيف مضت الأمور معك؟ ماذا حدث للرقّة الفطريّة التي كانت تملأ قلبك، للتوق العميق إلى عمل الخير مع الذين أبقوك ساهراً أيام الصِّبا؟ لم تحرّرك الحياة من توقك الجبّار للسعادة، لكنها دفعتك إلى الحقد والانتقام حتى أضحيتَ متشرّداً. وفي النهاية تهذي عن تواجدك فيما يشبه البيت في أشدّ الأماكن غرابةً في أقصى العالم، ثمّ تروح

تتشكّى هناك حيث لا شيء سوى البكاء لتبديد دائكَ العُضال. لكن لا بكاؤك ولا نواحك سيحرران روحك من ألم هذه الحياة.

الأرغن يتدفّق بتحرّر. الألم والبهجة يتصاعدان أخيراً متوحّدين في شكوى سعيدة. أنغام المزمور تجعل من الذهن يسافر في رؤى شافية. القلب يتحرّك فجأة في الصدر بمشيئته الخاصّة الحيّة مثل جنين.

أنصِتْ، كيف أنّ الأصوات الصافية تنشد الوجع والبهجة! الأرغن يصرخ ويعصف، يهمس، أصوات كلّ الكائنات الحيّة تنشد معها، والبُكْم ينشدون بأصواتهم الجامحة، أبواقُ الدينونة تُسمع والناياتُ الناصعة لمملكةِ السماء.

بعدها لمع ضوء، حتى أن درب مملكة الموتى المؤدي إلى الصيف العظيم قد بان للعيان. كلّ الناس المُتعَبين قصدوا معاً إلى هناك، من ميادين الحرب ومن المدن، إنصرفوا عن محاريثهم، أرسوا عند الساحل وغادروا السفن، خرجوا من قبورهم، وقصدوا جميعاً باتجاه ذلك الدرب.

حولهم كانت رياح الخيبة تصفر عاصفةً. سافروا طلباً للرحمة، إذ لم ينالوا سوى الأذى حين كانوا أحياءاً. أسنانهم تصطكّ، كانوا يبكون آلافاً، يعتصرون أيديهم، لأنهم كان معذَّبين في مملكة الحياة. أطلقوا عاصفة من الشكوى في الفضاء فيما كانوا يسيرون، رفعوا وجوههم الشاحبة وصَلّوا بحماسةٍ لرحمة النجوم.

من الأرض المعادية علا صوت يخبر عمّا حدث، أزيزُ الأشياء التي دمّرها الزمن. رياح الذبول السرمدية تهبّ على الأرض من كلّ الأشياء التي تفسّخت. إنّها أشدّ الرياح زمهريراً في بقاع الأرض، الأكثر سموماً من أيّ شتاء كان، تحمل صداها في دواخلها مثل طقطقة إبَر الجليد في فالسها البطيء داخل السَّحَائب، إنّه صدى السنابك والقهقهات والحياة

التي مضت سراعاً، كونسرتات الأنين الهادئ. هش! إنّها قعقعة عظام سرّية، الصوت الموغل في جوفها شبيه بخطوٍ خافتٍ في التابوت.

إهدأْ! سيُعصف بذكرياتك إذا فكّرت، تهبّ نفحة ريح النسيان الجليديّة عليك. لن تسمع سوى نُدَفِ الأغاني في ذاكرتك الشتائيّة. تلاحق غُرزةً عبر وعيك، تجعلك تعي العتمة التي لا تُحتمل.

هكذا يصغي البائسون المتروكون على الأرض، خائفين. يسيرون قطعاناً، ليس بفعل التضامن، لكن مثل بهائم تسير فوق إحدى الجزر في عاصفة حصاد، حيث تندفع إلى أبعد نقطة على اليابسة وتنادي بإلحاح نحو الأرض.

يقيمون في شبه عتمة، حيث لا دفء هناك، يحيا المنفيّون هنا منفصلين غير عارفين للحنان معنى. المبترد سيعمل على أن تعصف على غيره، فالضائع والضاغن سيقطّر الغِلَّ في قلوب رفاقه في السجن. الليالي طويلة وقلقة للمستوحدين، المستضعفين.

لكن مايكل رأى أمير الآلام! سمعه في المزمور. رأى المخلّص والسيّد يأخذ المحزونين بأحضانه. واحداً تلو الآخر تجمّعوا من أعالي الدرب، عارين، مقبولين من الربّ. المخلّص الرؤوف يعزّيهم بدفئه. مايكل يرى جميع الأرواح التعيسة تنال العدل، ها هم ينهضون وينالون نصيبهم من نظام مملكة السماء. الموسيقى تنهمر عليهم. مايكل يبصر جميع من عرفهم أثناء حياته وفرّقتهم عنه السنون، يجتمعون من جديدٍ، أوجُهٌ تعيسة، لم يلق سوى نظرة عجلى على من سقط في سوح المعارك، ها هو يراهم في قيامتهم من جديد. يرى أباه ثوجر نيلسن يقف أمام الربّ وهو يرزح تحت وطأة السنين، كما يشهد بذلك جسده المنهَك. ها هو يرى السماء تنفتح فيخرّ راكعاً لحضور الربّ في قلبه. زحف على ركبتيه فوق أرضية الكنيسة نحو الخارج، حيث انهار هناك مغمياً عليه.

القَدَر الصغير

كان الثلــج يتســاقط. ميــدان ســتوكهولم الكبير يقبع تحت ســجادة ناعمة، لامعة، والثلج يواصل تســاقطه بتدفق مستمرّ بلا انقطاع. لم تخيّم الظلمة تماماً إلاّ أنّ الشموع كانت تتوهّج عند النوافذ.

مـن جميـع الـدروب المؤديـة إلـى الميـدان قـدم أُنـاسٌ بملابـس الإحتفال، ساروا في الثلج الحد ِث العهد بالنزول، وكان الجميع قاصدين الدرج المـؤدّي إلى بهو المدينة. كانت ألواح الزجاج هناك مضاءة لأجل الحفل، فقد أقامت مدينة ستوكهولم مأدبة على شرف الملك كريستيان. حينما انتهت الوليمة في الصالة إندفع الشباب إلى الداخل، فقد انتظروا طويلاً في ضيقٍ خلف الأبواب، الآن حان وقت الرقص.

حينها عزفت الموسيقى. كان أكسـل هو الأول على حلبة الرقص. أرجح نفسه بطيشٍ ساعةً من الزمان، أسـلم نفسه لتجربة الرقص وحدها دون أن يفكّر بمن كانت تشاركه رقصته. حينما غادر الحلبة ليروي ظمأه ونظـر خارجاً كانت الظلمـة حالكة مثل قلب الكِير، نُـدَف الثلج الأبيض إندفعت عبر الباب مثل فراشـات تبحث عن الضوء. إندفع أكسل خارجاً وقطـع بضعة شـوارع مهـرولاً لمعاينة مايكل ثوجرسـن الـذي كان يرقد مريضاً. إلتزم مايكل سريره لأسبوع، وكان يبدو أنه ليس على ما يرام.

في النُّزل المتواضـع، حيث الحيّ الذي يقطن فيه مايكل، جلسـت مجموعةٌ من المرتزقة يشـربون. حيّاهم أكسل حينما مرَّ من جانبهم وهو في طريقه إلى المؤخرة حيث الحجرة التـي كان مايكل يرقد فيها. كانت

معتمة هناك والهواء شديد الركود. مايكل، الذي كان يرقد في حُمّاه، سأله عمّن يكون، صوته كان واهناً ومحموماً. أوقد أكسل شمعةً وضغط على يد مايكل المتعرّقة. «كيف تمضي الأمور؟».

لا يبدو أنها كانت تمضي بصورة طيّبة. كان مايكل يرقد محتقناً وحاجبه يندى عرقاً، هزاله الشديد يترك إنطباعاً مروّعاً. فتح عينيه بجهد شديد وأغلقهما ثانية، كانتا محتقنتين بالدم وكليلتين.

«أوه»، قال أكسل متأثّراً. جلس على كرسي الخيزارن على مقربة من السرير وتطلّع بضع دقائق متواصلة نحو وجه المريض. كان مايكل يتنفّس لاهثاً ويدير رأسه من مكان إلى آخر، وكأنّه يريد أن ينقل نفسه دون أن تكون له القدرة على ذلك. أمسك مايكل ببعض الماء فوقه لكنّه رفضه من خلال زمّ شفتيه.

بدا أنّ مايكل كان مصمّماً على أن يموت هنا في هذه الحجرة المقفرة. إلى هذا المدى قد وصل. على الجدار المبيَّض كان حسامه معلّقاً، حيث أضحى مقبضه بالياً لكثرة استعماله. لكنّ يَدَي مايكل الآن أضحتا خائرتين وكليلتين. شارباه البارزان اللذان شرعا بالتحوّل إلى اللون الرماديّ حول أنفه كانا ملتصقين بالمخاط. جبهته الحاسرة الشعر تبرز حافتها للأمام بشكل غريب، صارمة وذليلة في نفس الوقت مثل أثاثٍ منزليّ غير مريح. وكانت وجنتاه غائرتين.

لم يكن باستطاعة أكسل أن يقول شيئاً. ماذا سيمكن التحدّث حوله؟ كان الوضع عسيراً بما لا يمكن التعبير عنه. ودّ لو أنه جفّف المخاط من شارب مايكل لكنه لم يقرّر فعل ذلك بعد. ظلّ جالساً لوقت طويل يتمعّن كيف يقاسي مايكل مرضه بطريقته الإنطوائيّة الفريدة.

«نعم، نعم»، همهم أكسل بعد وقت طويل ثم نهض واقفاً. فتّش عن نظرة مايكل فيما كان منحنياً ليطفيء الضوء. بعدها أمسك باليد

المحمومة وودّعه متلعثماً ثم ذهب.

خارجاً، في العتمة الحالكة، حيث توجّب عليه إضافة إلى ذلك، أن يضغط عينيه بسبب الثلج. هرول أكسل قُدُماً باتجاه شخص ما، كان يضحك والشخص الآخر يضحك، ضحكة فتاة قصيرة.

سيغريد! سيغريد! صاح أكسل ببهجة وبسط ذراعيه ليلامسها من جديد. لكنه ظنّ من أصوات الخطى التي سمعها أنّ هناك آخرين، فصمت الإثنان، أدرك أنّه اقترف خطأً حين صاح. كانوا قريبين من درج بهو المدينة، وحينما انفتح الباب كاشفاً عن ضوء أبصر مايكل أن سيغريد كانت بصحبة إخوتها إضافة إلى امرأة عجوز. حيّاهم باحترام.

لم يكن بمقدور أكسل أن يعثر على سيغريد، رغم أنه قد فكّر بها بلا انقطاع منذ ذلك المساء الذي رأيا فيه بعضهما. الآن هو غير متأكد في ما ينبغي عليه فعله. لكنّ سيغريد تطلّعت مباشرة بشكل صريح إلى وجهه. نزلا إلى حلبة الرقص. لم تزل سيغريد باردة بسبب وجودها في الخارج، نفثَ فستانها البرد نحو أكسل، شعرها كان مفعماً بالبرد العاطر، وجهها الناضر كان يشرق.

«كيف يمكن أن يحصل هذا، كيف لا يمكنني العثور عليك؟»، همس أكسل بتأثّر مُحرِقٍ أثناء الرقص. سيغريد رقصت برصانة:

ـعم»، قالت الآنسة سيغريد.

الشموع تتراقص بابتهاج فوق الجدران، وكأنّه لم يكن بمستطاع الشُّعَل أن تكون هادئة طالما كانت تمتصّ وتشرب الزيت. الأرضية تهدر تحت أقدام الراقِصَين المترنّحَين. البهو الكبير كان مضاءً بشكل سيئ، الزوايا تقبع في العتمة، خارج الصالة تراقصت الظلال المبتورة الأعضاء بعدد أكبر من الراقصين. السجاجيد المعلّقة تتماوج على الجدران من أثر التيّار البارد. والموسيقى تحتدم، الراقصان يجولان، وثبت الظلالُ

العاصفةُ بقفزة موت خالصة فوق هاوية الزوايا.

«لم أتذكّركِ كما أنتِ عليه»، همس أكسل بودٍّ مقطوع النفس أثناء الرقص. «لقد كنتُ أتذكّركِ بشكل مختلف، لكنّكِ...»، صمتَ طويلاً وبصدر لاهث. «سيغريد!».

سيغريد كانت ترقص حالمة في غموض.

«نعم»، أجابت سيغريد بنغمة ناعمة.

العازفون، ذوي المهارة الفائقة، لم يستسلموا بعد، الكلارنيت دار بلسانه، البوق الصافي زمّر، والطبل حافظ على ثبات الإيقاع.

تواصلت ليلة الرقص بلا تبدّلٍ. رقص أكسل وسيغريد معاً في الأبديّة. حينها لاحظ أكسل كم كان وجه سيغريد شاحباً.

«تبدين الآن وكأنّ الدم يسيل من فمك!»، صاح بقوّة ووقف ساكناً تقريباً. رفعت سيغريد عينيها السوداوين المدوّرتين وأضحت أشدّ شحوباً. سحبها قريباً من جسده بذراع مرتجفة وقادها بشكل بطيء نوعاً ما لمواصلة الرقص.

جلسا فوق كنبة موسّدة عند الجدار. تحدّث أكسل فيما أخذت سيغريد تزداد حيويّة. تطلّعت بشكل صريح إلى أكسل وكأنها تحاول سبره أغواره، فتجاوب معها بحركة غريزيّة من جسده. كان يرتدي صديريّة زرقاء مفتّقة من الأعلى لإبراز الحرير الذهبيّ في ثناياها، وبنطالاً قصيراً أخضر، كان رأس حذائه شبيه بالمطرقة، تمّ مدّه بالعرض من المقدمة. سيغريد كانت ترتدي فستاناً من مخمل أزرق، مفتوحاً من الأعلى لإبراز الخطوط الدقيقة لرقبتها، شعرها الأملس، والذهبيّ كالسنابل، كان يسيل على وجنتيها. جعلت أكسل يرى خاتمها، جوهرة تتلألأ فوق إصبعها القصير، الدقيق.

«لدينا نفس الصنف من الأيادي»، قال أكسل، ثم بصوت خفيض

أضاف «هل تريدين خاتماً منّي؟ لديّ العديد منها، يا سيغريد».

قاطعته سيغريد دون أن تجيب. سألها ثانية. سيغريد قالت «لا» خفيفة ونفضت شعرها إلى الخلف.

«أوه، بلى!، توسّل أكسل مذعوراً من رفضها. بلاغة لسانه كلّت وأعلنت عجزها، فصمت وألحّ بنظرته الطويلة المتودّدة، ثم تحسّر مغموماً.

حينها هزّت سيغريد رأسها دون أن تتطلع إليه. ثبّطت عزيمته فصمت. ضحكت سيغريد على الفور، فتغيّر وجهه. أحنى نفسه مأخوذاً وبدأ يتحدّث بانفعال شديد عن كنزه. ستنال كلّ العُقُود النفيسة، كلّ الأحجار الكريمة، المتلألئة في حضن الأرض، نضرةً مثلما استفاقت من هجعتها في حضن الأرض المعتم. ستحصل على الأساور الثقيلة، السلاسل الفخمة والأصيلة التي لا مثيل لها، لو أنها فقط رغبت في ذلك.

«ألا نرقص؟»، ردّت سيغريد وضحكت. نهضت من مكانها وزفرت وكأنها كانت ضجرة من حديثه.

رقص أكسل مجروحاً، لكنه كان مفعماً بالسعادة، وبهذه الروحيّة جذب سيغريد إليه، حتى أنها ابتسمت له بحبٍّ، بدفء العذارى الفريد. رقصت بيفاعةٍ ورقّةٍ، دانية وقاصية في ذات الوقت.

لكن على هذا النحو مضت الليلة. في كلّ مرّة تمنحه سيغريد أملاً ما يكتئب أكسل عندها بشكل غريب. وحين تعصف، في دلع بناتٍ، بكل طموحاته بعيداً فإنه يقاسي، لكن سعيداً. حينها تعطف عليه وتنجذب نحوه، متخليّة عن تحفّظها. حين يشعر بما يشبه الندم على انتصاره تضحك هي إلى أن يصير تعيساً ومبتهجاً. على هذا النحو الليلة مضت.

عند الثالثة قدم أخو سيغريد وامرأة عجوز، كان عليها الذهاب

إلى البيت. حصل أكسـل علـى إذن بمرافقتهـم. كان الثلج قد توقّف عن الهطول، الليل يخيّم نقيّاً وبارداً. الثلج يضيء. إستطاع أكسـل أن يعرف الآن أيـن تقطـن سـيغريد. عـاد إلى البيـت وصعد نحـو حجرتـه واعداً، بتصميم راسخ، أن يفوز بسيغريد.

مضت بضعة أيام. أكسل أصبح خطيباً لسيغريد. جميع أفراد عائلتها منـذ البداية لم يوافقـوا لأنهم لم يصدّقوا حكاية كنز أكسـل. لكنه ضرب في صدره وأراهم الكبسـولة. هل يمكـن أن ينطق مندل سـباير، أو كائناً من يكون، بمثل هـذا الكذب؟ لِمَ لا يكون هناك ميراثٌ كبيرٌ لإنسـان ما حتى وإن كان دون لقبٍ عائليّ؟ إن كان ثمة عتمة تخيّم على نَسَبه فكلّما ازدادت كان ذلك أفضل. حين يسـتخرج الكنز، رغم أنه ليس مسـتعجلاً علـى ذلـك، سـيمكنه بالتأكيد معرفـة من هو بالضبـط. وها هنـا بالضبط يكمن جوهر القضية، فمَن الذي يقف بجانب إنسـان يشكّ في كونه غير كُفـءٍ لهم؟ الخطوبة عُقدتْ في احتفال عظيم.

... مدينة سـتوكهولـم تنام تحت ثلج نقي واصل سـقوطه ماحياً كلّ أثـر. كل يوم كان ثمةّ حفل صغيـر محدود، وتقريباً كلّ مسـاء يقام حفل رقص في بيت هذا المواطن الثريّ أو ذاك. نصب أكسل سلّماً عند نافذة حجرة سـيغريد ذات ليلة لكنّه سُحب ثانية من قبل أحد أخوتها في غمرة مرحٍ عظيم، توجّب عليه عندها تقديم الشـراب الفرنسي في بهو المدينة. حفلُ الزواج تقرّر عقده في وقت قصير قبل عيد الميلاد.

نعـم، سـتوكهولم تحتفـل تحـت الثلـج المدثّـر. كان دائمـاً ثمّـة محتفلـون في الشـوارع! ذات مسـاء متأخر، حينما كان أكسـل يسـير في طريقه باتجاه البيت، أبصر شـخصَ امرأةٍ في مواجهته، كانت تسـير بطيئاً محاذاة البيوت وتعتمرُ قبعة على رأسها، كانت تبكي بصمتٍ. لم يلاحظ أكسل سـوى أنها كانت فتاة شابّة، لماذا تسير وحيدة في الشارع وتبكي؟

حينما تحدّث إليها لم تردّ عليه، حينها أمسك بيدها فتبعته. مكثت معه دون أن تقول كلمة واحدة. ثمّ سرعان ما انفجرت بالبكاء، ثمّ تحسّرت بلا عزاء طوال الليل. في كلّ مرة يستيقظ فيها أكسل كان يسمع حزنها الصامت، لم يستطع أن يعرف لِمَ هي بهذا القنوط. في الصباح ارتدت ثوبها الأسود ومضت من جديد باكية مثلما أتت.

في نفس اليوم الذي عقد فيه أكسل خطبته على سيغريد قصد إلى مايكل لرؤيته، الذي لم يكن قد تحسّن بعد. لم يعد مايكل يقاسي لكنه كان يهوي في وهن عميق وينحدر سريعاً إلى الأسفل.

لاحظ أكسل أن مايكل أصبح شاحباً بشكل مميت، وكان مايكل كما يبدو مدركاً أن النهاية باتت وشيكة.

بعد أن جلس أكسل ساعة مع المحتضِر في شرودٍ حائرٍ أراد الذهاب. فتح مايكل عينيه وهمس له مودّعاً، لكن حين استدار أكسل عنه ناداه مايكل. أراد مايكل أن يقول شيئاً، إنحنى أكسل فوقه بحذر.

«الكنز... هل تريد أن أقرأ الورقة لك؟»، قالها الرجل المحتضر بصوت لا يكاد يسمع تقريباً.

إنتصب أكسل وعيناه مبللّتان بالدموع، لكنه حين حدّق في مايكل قليلاً بتركيزٍ شديد، قال:

«كلاّ!»، أجابه باختصار ووضوح. ثمّ أدار قبعته بتضايق.

«الآن أنا على كل حال أعتقد... سوف ترى، ستشفى يا مايكل!».

كان مايكل مضطجعاً صامتاً، لكنّ مشهد قفا مايكل عند الباب جعل الغيظ يلتهمه، فأقسم على الانتقام. إشتعلت فيه نيران الحقد من جديد.

صباح اليوم التالي كان مايكل يتماثل للشفاء، واستعاد عافيته.

في الأدغال

لسنتين لم ير مايكل ثوجرسن وأكسل بعضهما. حين تعافى مايكل من مرضه إنحدر نحو الدنمارك ليلتحق بالملك. لكن قبل ذلك كان أكسل قد اختفى من ستوكهولم. تردّد كثيراً أنه اختفى قبيل عيد الميلاد تماماً، بعد مرور يومين على زواجه، ومنذ ذاك الوقت لم يره أحد. كانت حكاية مضطربة، وأثير كلام عن اغماءات بين أفراد العائلة، وأصبحت سيغريد أرملة بشكل مبكّر جدّاً.

أقلّ واحد إهتماماً بهذه القضية، وأكثرهم علاقة بها، هو أكسل، الذي كان غير نادم. كانت القضية بشكل أو بآخر في غاية البساطة، وذلك طبعاً وفقاً لتفاصيل قصّته هو. بعد مرور يومين على زواجه إنطلق فوق جواده في مشوارٍ صباحيّ نحو الريف جنوب المدينة. وحينما كان يفكّر بسيغريد مفعماً بسعادة لا تُوصف، وهو في غاية النشاط والتيقّظ، إنصرف ذهنه إلى التفكير بكريستين التي في الدنمارك. كان فؤاده الذي ناداه لكنّه سمع النداء وكأنّه قادم من البعيد، صرخ فؤاده من فيض غناه بسيغريد، لكنّه سمع الصرخة وكأنّها صادرة عن كريستين. غمرته عاصفة من دفء الحبّ جعلته يطلق العنان لجواده ليعدو بملء سرعته. ذكريات كريستين تلحّ أكثر، عليه أن يراها.

نسي أكسل أنه قد مضت سنة كاملة تقريباً منذ آخر لقاء معها وأنّ مئات الأميال تفصل بينهما الآن، فعدا بجواده في أقصى سرعة غرباً باتجاه طريق الملك. عندما خفّف الجواد سرعته بعد مسير ساعة

متواصلة تذكّر أكسل بالطبع أن الطريق نحو الدنمارك طويل. لن يكون بمستطاعه أن يكون هنالك في الحال، لكنّ اندفاعه المجنون تحوّل إلى قرار رصين، سار بجواده في سيرٍ معتدل متأمّلاً الحال. حسناً، إنّه يقصد السفر إلى الدنمارك لزيارة كريستين، حبيبته من العام الماضي.

عند حلول المساء كان أكسل يبعد عشرين ميلاً عن ستوكهولم. توجّه إلى نزلٍ وجلس لوحده في الصالة. العديد من الفلاحين كانوا في المكان. كان الحديث يدور حول غوستاف فاسا، لكن أكسل لم يكن يستمع للحديث. توجّه رجل بأدب نحوه وأراد سؤاله عن أخبار ستوكهولم، لكن أكسل لم يكن في جعبته سوى القليل. أمّا البقية فقد اتخذوا مسافة منه بعد أن سمعوا أنه كان دنماركيّاً. لم يكن أكسل راغباً في الحديث، فقد كان يفكّر في كريستين.

في صباح اليوم ذاته، على طريقٍ تبعد أميالاً عديدةً، عبر غابات ومدن مغطّاة بالثلج، حيث وجوه الأشياء تتقلّب صورتها، في صباح ذات اليوم الذي قبّل فيه أكسل سيغريد، كان أوّل من استيقظ ورغب بالخروج، لكنّها اعتقدت أنّ الطقس كان شديد البرودة. حينما قبّلها سلّت ذراعيها البيضاوين من خارج الدثار لتطوّق عنقه. كانت رقيقة بشكل مدهش وناصعة. وحين خرج أكسل إلى الهواء الطلق كان عليه الوثوب فوق جواده والإنطلاق به، ثمّ انطلق كالريح، منتشياً بالسعادة.

هكذا الأمور مضت. بعد بضعة أيام، فيما كان يقطع الطريق الذي يفصل بينهما، رغب في رؤية كريستين! في غمرة توقه لذلك فتل أصابعه حتى طقطقت وهو يفكّر بها. كريستين، آه يا كريستين!

كان وكأنّه يرى المزرعة هناك فوق المنحدر مع شجرة التفّاح المائلة وهي معقوفة فوق السقف. البحيرات المالحة ما زالت تحتضن الرمال في أسفلها، مثلما كانت ذلك اليوم من أيام مارس، حينما استدار

من على ظهر الحصان ورآها.

نام أكسل جيداً في النزل تلك الليلة، لكنه استيقظ مرّة فجأة، كان وجه كريستين فوق وجهه تماماً، شفتاها لا تبعدان بوصة واحدة عن فمه. سيغريد! همسَ وعاد إلى النوم.

خبّ بجواده في اليوم التالي في طقسٍ جليديّ عاصف. إمتدّ الطريق في تموّج غير منتظم، مليء بالحصى والعوائق، لكن الجواد حافظ على جريه بثبات. الهواء العنيف أزَّ حول أذني مايكل، كان يقعد بين الضجيج القصّاص لسنابك الجواد ودمدمة الهواء. وكان يغنّي. إنساب صوته مثل تيار ناشز مضافٍ إلى ضجيج الرحلة. كان يخبّ بجواده ويغنّي عبر طنين العاصفة اللاذع، الجليد والحصى يتناثران من تحته. الحقول الثلجيّة تتلامع تحت ضوء الشمس، في مرات نادرة أبصر سقيفةَ خشبٍ حمراء، صخوراً كبيرة مغطّاة بالجليد كانت ترتفع عالياً عن الأرض مثل جماجم عماليق مدفونة. طنّ صوته عبر غابة الصنوبر، أطلق صوته باتجاه الممرّ الصخريّ ثمّ ثانية إلى الخارج. وظلّ يغنّي. كان كما لو أنّه ينوء بحمل مجرشةٍ شرهةٍ تاركاً لأغنيته أن تتلاشى مثل حفنة قمح في أجَمَة الضجيج.

بعد ثمانية، أو تسعة أيّام...فجأة لم يعد يستطيع أكسل تحمّل الركوب مدّة أطول باتجاه الغرب، فارتأى أن عليه المسير جنوباً. لِمَ عليه أن يتبع الطريق؟ لربّما سيكون من الأسهل عليه لو أنّه سافر متعرّجاً، فلوى عنان فرسه عن الطريق وخبَّ به عبر أرض غابةٍ بلا طرقات.

سار بجواده طوال النهار. لكن مع حلول المساء أخذت الأرض بالارتفاع وأضحت صخريّةً. أشجار التنّوب العتيقة المدهشة المظهر تنحني من فوق كُتَلِ الصخور، والأجمات الصغيرة تملأ الفراغات التي بينها، الثلج يطمر كلّ شيء، فكان على أكسل أن يترجّل ويقود الحصان.

لم يكن مشجِّعاً ملاحظة أنّه لم يقطع من طريقه إلى الأمام سوى النزر اليسير. حينما أوشكت العتمة على الهبوط كان قد ولج وادٍ ضيقاً مهجوراً، لكنّة كان شديد الإستواء مما أمكنه أن يمتطي جواده ويسير به على امتداد القاع، فسار قُدماً حتى حلول الليل. بعدها أفلت من الوادي، فسحب أكسل حصانه مواصلاً سيره في قلب الغابة الكثيفة، خطوةً خطوة. إستمر طريقة بالارتفاع، الأشجار تزداد كثافة وكثافة.

الليل كان ساكناً تماماً، الأشجار تنام مدثّرة بالجليد، ما من صوت يُسمع. لم يفكّر أكسل بالحال التعيسة تلك. مضى عليه يومان كاملان، وبدا أنّ قدره قد حتّم عليه أن يجرجر حصانه وراءه في غابة يائسة خلال الليل في غمرة بردٍ عضوض، لقد كانت حياته الآن هكذا.

عند منتصف الليل عثر أكسل على بيتٍ في الغابة، حيث آوى فيه ليلاً.

لكن في هذا البيت بقي أكسل، لأنّ ابنة الحطّاب كانت رائعة.

كيسا كان إسم الرجل، وابنته الشابة إسمها ماجدلينا. حينما هبط أكسل من الغرفة العليا صباح اليوم التالي من عثوره على البيت، كان كيسا قد ذهب إلى الأحراش، وماجدلينا كانت واقفة تطبخ عند الموقد. نظر أكسل نحوها، فتحرّك الإثنان بسرعة نحو بعضهما، مُشَمْشِمين بعضهما مرّة وسرعان ما تشكّلت علاقة حميمة بينهما، توجّه إليها وضحك، منتعشاً بالنوم، وضحكت هي مستعدة للمعركة بمغرفةٍ مرفوعة. بعدها طوّق أكسل خصرها بجدّية وسبر غورها بنظرةٍ عميقة في عينيها. وَهِنَت ماجدلينا تحت وطء نظرته، لكنه قبّلها في عزم. وتعلّقا بلحظة واحدة في عنقي بعضيهما.

حينما عاد كيسا إلى البيت بقي يجول صامتاً فترة طويلة في الصالة الصغيرة، ثمّ أومأ بعدها برأسه عدّة مرّات في الهواء، فهم الشابّان هزّات

رأسه كعلامة رضا. وهكذا كان، إذْ أصبح أكسل صهراً في الكوخ.

«ينبغي أن تنالها»، قال له كيسا بعد عدّة أيّام، فجأةً أنزل فأسه حين كانا واقفين يقطعان الأشجار. تطلّع نحو أكسل وكأنّه قد انتهى أخيراً من حسم القضية التي كان يفكّر فيها طوال تلك الأيام التي مضت.

«ينبغي أن تنالها»، اتّكأ كيسا على الفأس مفكّراً بالأمر. لم يكن الأمر مجرّد صدفة أن يكون هو مَن ينالها، صرّح بذلك مواصلاً حديثه. لقد صادف بصورةٍ عشوائيّة أن كانت له امرأة في البيت، هربتْ بعد ذلك بعيداً تاركة إيّاه وحيداً مع الطفلة التي أنجباها عَرَضاً. سمّاها «ماجدلينا» لأنّه كان إسماً، لكنّه لم يكن إسمها الحقيقيّ، يمكنها لأجل هذا الأمر أن... باختصار، هي وُجِدت على كلّ حال، ومنذ ذاك الحين وهي تجول هناك بذات القوّة والجمال كأيّ إنسان آخر.

«خذها إذن»، قال كيسا. «بسهولة جاءت وبسهولة ستذهب!».

بصق كيسا في راحتيه وطوّح بالفأس باتجاه الجذع. لم يفه بحديثٍ آخر بعد ذلك.

صار الشتاء قاسياً، والبرد شديد الصَّريف. كلّ الرياح ألقتْ بترحالها، وخمد الهواء.

الشمس تتلألأ في كبد السماء ناصعة وباردة عند الظهيرة مثل كتلة ثلجٍ مصقولة في البعيد، وقبيل المساء تغطس في بحيرة دماء معتمة خلف الغابات. هدأة الليالي الطويلة لا تتعكّر إلاّ حينما يطير طائر مُتعَب قريباً بما يكفي ليثير نثار الثلج من على الأشجار، أو حينما يجعل حيوانٌ متوحشٌ عواءَ حزنهِ وجوعهِ مسموعاً في البعيد.

في سقيفة كيسا لم يسمحوا للبرد بالدخول. كانت مبطَّنة بالطحالب من أعلى إلى أسفل، وكان ثمّة فراء خراف للنوم فيها، النيران لم تخمد أبداً، ظلّت تتوقّد بلا انقطاع. عند زاوية الموقد كانت قطع الأخشاب

تقبع طازجة ورطبة من الغابة. الطحالب على اللحاء تصبح حيّة في الحرارة، الأخشاب الملساء أخذت بنضح الرّاتِيْنَج[1] حينما يشرع التجمُّد بالذوبان. الأخشاب تتوق إلى النيران وتبسط نفسها إليها حالما يأخذ اللهب بيديها إليه. الدخان يجول حول الصالة ويجلس على الوجوه فيحسّ المرء بطعم الغابة على شفتيه. نضحت الأخشاب عبيراً فاتناً في النار، كانت شدّة الدخان المنبعث تملأ الصالة بنكهة التوابل.

لكنهم لم يحتفوا بعيد الميلاد كما ينبغي، إذ لم يكن لديهم سوى خبز ولحمٍ عتيق مجفّف. قريباً لن يكون هناك ما يُعلف به حصان أكسل. ولماذا يحتفظ بالحصان؟ سأل كيسا. إمتلأ وجهه بالحياة وأصبح حيويّاً ومتفكّراً في اليوم الذي تحدّثوا فيه عن ذلك. إنتهى الحديث حينها بالإتفاق على نحرِ الحصان، وأخذ كيسا مهمة القيام بذلك على عاتقه. أرجأ القيام بذلك مؤقتاً إلى اليوم التالي وكانت لديه أسرار عديدة في ذلك.

صباح اليوم التالي أيقظ كيسا الشابّين من النوم وقادهما بمهابةٍ إلى الخارج. كان الحصان ينبطح ميتاً خارج الباب، ولم يزل ساخناً. والآن شرع كيسا بنحره، متردّداً بعض الشيء في البدء، لكن فيما بعد، جدّ فيه بنشاط واستمتاع.

حينما أدرك أكسل أنّ كيسا كان وثنيّاً شعر قليلاً بالاضطراب، إلاّ أنه صرف تفكيره عن الأمر ووثب شاحذاً شهيّته، مأخوذاً بلذّة المحرَّمات فتضاعفت شهوته. ماجدلينا ساعدت في ذلك أيضاً، فكدح ثلاثتهم ببراعة.

في غمرة الهدوء قذف كيسا عدّة كُراتٍ من الدم باتجاه الشرق

---

(1) الراتينج: مادة تستخرج من أشجار كثيرة عند شَقّها، وتكون غالباً مختلطة بالصُّموغ والزيوت. (المترجم)

والجنوب. أبدى سعادةً مرتبكة إلى حدّ ما بمقدرته على التقطيع، كيسا، إنّه يشير بطرف السكّين نحو أجزاء الحياة الفاخرة، وما أن تكون في متناولهم حتى يهزّ برأسه «نعم، نعم».

«كان عمره ثماني سنين»، همس وغمز خفيةً لأكسل. وحينما أقرّ أكسل ذلك فتح كيسا يده وأراه العظم الصغير المدمّى الذي استنتج منه عُمْرَ الحصان. كان كيسا منطرحاً وأنفه متجهاً نحو شقّ جوف الحصان، منهمكاً في عمله، ذراعاه ممدودتان حتى المرفقين في جوف الحصان. منبسطاً كان، فلم يكن للنحر أن يكون أروع مما كان، كان حصاناً نشيطاً ومتوقّداً. كان عملاً صعباً، فقد كانت حرارة الحياة مشتعلة فيه وما زالت حتى الآن، لدرجة أنّ المرء يكاد يحرق ذراعه إذا أولجها في جوفه.

قبيل منتصف الظيهرة نادت ماجدلينا من الداخل لتناول أوّل وجبة طعام، أفضَلُ القِطَعِ في الحصان، مسلوقة ومُدخَّنة، إصطكّت أسنان كيسا حالما أبصر اللحم الساخن، فقد كان جاهزاً لوضع أصابعه عليه!

لكن ماجدلينا رمقت أكسل بنظرة محتشمة ووضعت قلبَ الحصان أمامه، كانت قد شوته على نار متوقّدة، ما زال البخار يتصاعد من أوردته. أكل أكسل في البدء وكأنّ شيئاً لم يكن، لكن بعد بضعة لُقيمات بانت عليه أَمَارات الإستمتاع.

كان الطقس جليديّاً ناصعاً وساكناً طوال اليوم، قضوا يومهم جيئة وذهاباً، يشرِّحون ويأكلون أغلب اليوم. رائحة الطعام المسلوق والمشويّ، الشهيّة الفحوى، أنعشت ذكرى الجسد المتبخِّر المبقور حديثاً والأمعاء عندما كانت تؤدّي عملها. دخان الذبيحة ملأ المنزل بأكمله، كان الدخان المتصاعد يتسرّب عبر الباب المنخفض ويتماوج عالياً باتجاه السقف. ذاب الثلج من على العتبةِ التي فوق الباب ثمّ عاد ليتجمّد ثانية كقوالب جليدٍ مدلاّةٍ بُنّيّةٍ ضاربة إلى الحمرة.

على امتداد المساء عادت ماجدلينا وشرعت تخبز فطائر محلاّة بدم الحصان. أضحى الشابّان هادئين تماماً، لكن كيسا لم يعد بإمكانه السيطرة على نفسه مدّة أطول، شرع يحوم ويزدرد ريقه حول الطعام، غنّى وقدّم ايماءات منتشية للشمس والقمر. كان يأكل منذ الصباح تقريباً، ملطّخاً بالصلصة والشحم حتى عينيه، إضطجع الرجل العجوز فوق الطاولة وذراعاه ذات الكمّين الجلديّين تحتضنان النعمة التي بين يديه، كان يمضغ، يحشو الشحم في زاوية فمه، يلوك ويغنّي. كانت ماجدلينا تروح وتجيء، متناولة كذلك بين الفينة والفينة لقمةً صغيرة تضعها بين أسنانها الدقيقة.

... على امتداد الليل الساكن الطويل كان كيسا يحلم في السرير الطحلبيّ على السقف، يضحك ويهذر بالهراء مع نفسه خلال النوم. إستيقظ الشابّان وسمعاه. وذات مرّة في تلك الليلة الحالكة الساكنة سمعا إرتعادةً تنبثق من الغابة خارجاً، فقد هبّت نفحةُ ريحٍ على الأشجار، وحين يسقط الصقيع والثلج القاسي من عليّةِ المنزل يخشخش بنعومة، باكياً عجزه في الغابة.

تطلّع أكسل عبر لوح النافذة الذي كان أخضر فأبصر الحصان ملقىً على الثلج في الخارج وأضلاعه مكشوفة كلّها في العراء مثل حطام سفينة. السيقان المتشنّجة بالجليد ألقت ظلالاً على الثلج تحت شعاع القمر الأخضر.

في اليوم التالي أكلوا من جديد، لأطول مدّة ممكنة، أكل كيسا إلى أن كلّت عيناه. لكن قبل ذلك بثّ في قلب أكسل وماجدلينا الخوف بنوبات جنونٍ خالصة، كان يحملق نحوهما في ذروةِ نَهَمِه، ثم يفقد عقله ويغنّي مقطعاً شعريّاً عن الخيول الميّتة التي تصهل في الجحيم، شَعر لحيته ورأسه منتفش وملبّد كلّياً بالشحم. أطلق بحيويّة أخطر التهديدات

نحو أكسـل وماجدلينـا، وفي ذات الزفير بسـطَ عليهما رأفتـه من جديد، لاهثاً مـن التأثّر، تأمّل مليّـاً في أعماقه، هازّاً برأسـه، فيّاضـاً بالذكريات. سـمعه أكسـل يلفظ عدّة أسـماء تقليديّة لنسـاءٍ، ولم يكن بإمكان أكسـل سوى أن يستحضر صورَ صواحبِ كيسا اللواتي اختفين منذ زمن طويل، ووفقاً لتأثّرات كيسـا العاطفيّة فإنّ الأولى كانت شـقراء وممتلئة، والثانية هيفاء وفاحمة الشَّعر، واحدة منهن ذات عينين بهيجتين، الأخرى مجنونة وملسـاء مثل جـراء الثعلـب... لوَّح كيسـا بيديـه المطليّتين بالـدم وقلبَ بياض عينيه، غنّى فيما كان يحرّكُ الطعام.

حيـن انهار في مكانه حملاه إلى السـرير. كذلـك احتفلوا في اليوم الثالث، بعدها صار كيسـا رصينـاً وعادت الأمور إلـى مجراها الإعتيادي من جديد.

لكنّ الربيع السويديّ قد حلّ. إستمرّ طويلاً بشكل لا يوصف. ذات يوم أشرقت الشمس عالياً وقطّرت لهبها من سماء فاتحة الزرقة، رغم أنه لم يكن ثمة سـحابة واحدة فـي السـماء، الأرض تقبع في رطوبـة ذائبة، الثلج ينهار غاسـلاً بعضه بعضاً، الضوء ينكسـر في المـاء وفي القطرات التي كانت تغمر كلّ شيء.

حيـن حـلّ أوّل يـوم منعـش خـال من الثلـج، مـع الظـلال الهاربة والمياه المتموّجة، خرج أكسـل نحو الغابة. ثمّة طائر متوحّد يزقزق على قمّة شـجرة، حيث السـحائب البيض تنجرف، وبخار الربيع يملأ الهواء. كان الربيع قد انبجس. ثمة رائحة تنبعث كرائحة صيف منسيٍّ في الغابة، العشـب الذابـل، ولحاء الأشـجار الرطب يفـوح باسـتحواذ. أين حصانه الآن؟ أين حصانه الآن؟

أصبح منزل كيسـا ضيّقاً عليه الآن، أشبه بقمرة سفينة بعد شهر من

الإبحار، الصالة تقبع في قذارة محبوسة وروتينيّة. مادلينا كانت تجلس هناك. أصبحت ماجدلينا شديدة النضوج، جميلة كانت، ثمّة حمرة تضرّج وجهها ورقبتها حينما تكون جالسة.

الشمس أصبحت أكثر فأكثر دفئاً. ذات يوم حينما كان أكسل يتفحّص الطقس، إنسابت لفحة دفء على وجهه ووخزة ساطعة تحت جفنيه، أدرك إيقاع الزمن ووعد نفسه بالصيف في الحال. صار مضطرباً، خطر في باله أنّ الصيّف يخيّم في الدنمارك الآن. ذات مرّة خبّ بجواده عبر مروج الدنمارك اللطيفة والتقى بفتاة ترعى الخراف، نصف مغمّضة باتجاه الشمس، أقبلت نحوه ماشيه وأطراف العشب ورؤوس الأزهار بين أصابع قدميها. فيما كانت أميال تفصل بين المرتفعات.

في نفس اليوم غادر أكسل منزل كيسا.

الكبسولة

الآن فيما يخصّ أكسـل، النَّغِل، فقد رُويَ أنّه كان يسافر عبر أرجاء المعمورة فـي أحوال دائمـة التقلّب. قـراره بالرحيل نحـو الدنمارك إلى كريستين ومن بعده بالطبع العودة إلى سيغريد لم يكن الجذع الرئيسيّة في شجرة مصيره، لكنّه أصبح فقط الفرع الذابل بين الغصون القويّة الأخرى التي تغذّي نماء تلك الشـجرة. جال أكسل هنا وهناك مدفوعاً بالإعجاب المتبادل بينـه وبين الفتيات اليافعـات في العالـم. ينبغـي ملاحظة أنّه عبر تجاربه الجميلة تلك صار، شـيئاً فشـيئاً، يعاف أجمـل الفتيات. ليس إلى الحدّ الذي يجعله يتجنّبهن، كلاّ إطلاقاً، لكنه يكون شـكوراً بالقدر الذي يكـون فيه غيـر متخـمٍ، كان يريـد أن ينال نصـفَ السـعادة وربُعَها، حين يتسنّى له الحصول عليها، إضافة إلى كلّها بالتأكيد.

أكسـل، الذي لم يكن يـؤذي أحـداً، كان ذا علاقة طيّبـة مع الناس جميعـاً. كان يتميّـز بأنّـه تبعـاً لطبيعته يحسـب الأمور سـتمضي جميعها بشـكل طيّب على حدّ سـواء، وحين تسـير بصورة مؤلمة على عكس ما قدّر لـه يزهو بجبروتٍ حينذاك، بالضبط، لأنّه يسـتطيع فقط أن ينال، فلا وقت لديه للفقدان. لم يعرف سـوى الربح، فلم يسـبق له أن خسر شيئاً. كان يحمل قلبه أينما حلّ.

إلى الدنمارك قدمَ أكسل أخيراً، وبانتظاره كان الصيف العظيم. بعد حوالي سـنة أو أكثر من رحلته الصغيرة على الجواد عقب عقد قرانه في ستوكهولم، عبر العديد من المصادفات والإنعطافات المتقلّبة، وصل إلى الدنمارك من جديد.

خلال هـذا الوقت حدث الكثير. فالسـويد كانت قد انسـلخت عن الدنمـارك، فلاحت أمـارات العصيان والحـرب علـى كلّ الأصعدة، من جميـع أركان العالم الأربعـة. فقد كان كريسـتيان، الملـك العظيم، على وشك وضع ممالكه على حافة الهاوية.

إسـمع الآن هنا كيف حدث ذلك: كان مايكل ثوجرسـن في سفرةٍ عبر «يولانـد» لأجل الملـك. كان قد قدم مـن «ثيو» وقبلها تـوّاً كان في قلعة «سبوتروب» في «سالنج»، خطر له أن يعرِّج في زيارة خاطفة لبلدته، فهـا هو الآن قريب جدّاً عليها. لم يكن معلوماً فيما إذا كان سـيصل هذه الناحية مرّة أخرى؟ ربما أبداً.حصل مايكل على وعدٍ بإجازة من الملك، فعزم في قرارة نفسه أن يحجَّ خلال بضع سنين إلى الأرض المقدّسة.

في نزلٍ بمنطقة «سـالنج»، ليس بعيداً عن «فالبسـوند»، سأل مايكل عـن أنباءٍ غريبـة. أخبره صاحب النـزل، إلى هذا الحـدّ أو ذاك، بتفاصيل حفلٍ إسـتثنائيّ في موضع يبعد مسـافة ربع ميل على امتداد السـاحل في مدينـة «كفـورن». كان قد بـدأ قبل يوم ويبدو أنه سـيدوم ليـوم أو يومين إضافيين، مع أنه لم يكن سوى حفل خطوبة. حكاية غريبة، لأنّ الخاطب ينبغي أن يملك من المال بقدر القمامة، كان يدعى أكسل ويبدو أنّه رفيع الشـأن. إضافـة إلى ذلـك فقـد كان ضابطاً، لكـن من أين جـاء؟ لا أحد يعرف ذلـك. قيل أيضاً عن أكسـل هذا أنـه كان يملك كنـزاً هائلاً، على أيّ حال فقد حضـر الإحتفال مرتدياً ملابسَ مثل دوق. لكن العروس لم تكن عارية، فقد كانت إينغا، إبنة الثريّ سـتيفن مـن «كفورن». نعم، هما الآن خطيبـان. أُقيم الحفل في فناء المزرعة، وكان بإمكان المرء سـماعه على بعد مسافة نصف ميل من هناك.

هكـذا تحـدّث صاحب النـزل، كان مايكل ثوجرسـن يصغـي إليه، وكان مُصغيـاً شـكوراً. سـأله شـخصيّاً بعـض الأسـئلة فعـرف أنّ زوجة

ستيفن تدعى آنا ميتا. آنا ميتا... وحولها بالتأكيد كانت ثمّة حكاية تدور. لم تكن إينغا إبنةً لستيفن. لكنّ آنا ميتا كانت زوجة لستيفن لأكثر من عشرين سنة ولديها أطفال شرعيّون معه، لذلك فقد نُسيت القضيّة. وبالمناسبة، لم يكن أحد محيطاً بحقيقة الأمر، يقول البعض أنّ آنا ميتا كانت قد اختُطفت وانتُهكت من قبل تلميذٍ جامعيٍّ إبّان شبابها.

التلميذ كان مايكل ثوجرسن. لا أحد يمكنه أن يلاحظ ذلك عليه الآن. كان كذلك أمراً نافلاً. أحد الغرباء كان واقفاً ويثرثر بخصوص مصلحة عمله، أخبره بشكل عفويّ أنه لعشرين سنة كانت لديه بنت دون أن يعرف بذلك. حين أحال صاحب النزل الحديث المناسب إلى شراب الشعير ترك الضيف يجلس لوحده على الطاولة. نعم، كان مايكل يجلس وحيداً، *alienus*[1]، كانت تلك هي لازمته المفضّلة.

Alienus.

كلّ ما قيل عن أكسل كان صحيحاً، كاد يحصل على إينغا، إبنة ستيفن في "كفورن". فبعد أن شاهد الكثير في العالم قدمَ على ظهر جواده لهذه البقعة المحدودة، كان ذلك منذ بضعة شهور خلت. تناهى إلى سمعه صِيْتُ إينغا قبل مدة طويلة في أقاصي الريف، ثم استطاع رؤيتها، وها هم الآن يحتفلون بخطوبتهما في أُبَّهةٍ لا مثيل لها. كان ستيفن من "كفورن" أغنى مُزارِعٍ في المقاطعة، إضافة إلى حصّته في حقل القرية كان يمتلك غابة بلّوط، كما أنّه كان يشتغل بالسِّماكة والتمليح بشكل واسع.

ترك مايكل ثوجرسن حصانه واقفاً عند النزل ومشى على امتداد الساحل. كان المساء سيحلّ قريباً. وصل إلى "كفورن" بفترة أبكر مما كان يرغب. حين سمع نغمات الكمان تنبعث من المزرعة التي أقيم فيها الحفل

(1) لاتينيّة في الأصل، تعني: غريب، دخيل. (المترجم)

توقّف هادئاً متّكئاً فوق سياج إحدى الحدائق ولم يتقدّم أكثر. كان المساء معتدلاً وما زال فيه وقت ليمتدّ أكثر، الليالي المنيرة كانت قد حلّت. الضفادع تغنّي بوفرةٍ في المستنقع، بعيداً من جهة الساحل تتناهى بين الحين والآخر زقزقة خطّاف شريد. ثمّة شجرة بيلسان في مزرعة الكرنب التي توقّف مايكل عندها، كان يعرف الشذى الذي تفوح به أوراقها فانبعثت ذكرى قديمة أصابته بحزن شديد، حتى أنه أصبح خائفاً من نفسه. إستدار ومضى عائداً إلى مأواه في النزل عبر مساء معتدل الهواء.

قبيل ظهيرة اليوم التالي كان مايكل واقفاً في المكان نفسه ثم غادر ثانية. عاد إليه راجعاً بعد منتصف الظهيرة، لكنه هذه المرة إقترب من المزرعة أكثر. في النهاية توقّف على الطريق مقابل البوّابة دون أن يمكنه الدخول. كانت المزرعة مليئة بالعربات، ومن داخل المنزل كانت تنطلق أصوات الإحتفال والتهاليل.

خرج أحد الأطفال من البوّابة، ركض عائداً إلى الداخل وأخبرهم أنّ جنديّاً كبيراً في الخارج. حينما خرج العديد من المحتفلين ليشاهدوه سحب مايكل نفسه إلى الوراء، إلاّ أنه لم يكد يبتعد قليلاً حتى لحق به أحدهم راكضاً خلفه ومنادياً عليه باسمه.

كان أكسل بنفسه. غمره فرح لا نهائيّ باللقاء ولم يمكنه الإستفاقة من دهشته. لكنه سرعان ما انزعج لأنّ مايكل لم يكن راغباً بالتحرّك من مكانه ليمضي معه إلى الداخل رغم أنه قد جاء. لم يمكن لأكسل أن يفهم ذلك. حينها بقيا واقفين يتحدّثان بارتباكٍ في منتصف الطريق، كان أكسل في ملابسه الإحتفاليّة وحاسر الرأس، لا يعرف كيف ينبغي عليه أن يعبّر عن مشاعره الحميمة تجاهه. إنحنى مايكل، كان يدعك الزغب الرماديّ على ذقنه بلا انقطاع ولا يقول الكثير.

لقد تغيّر أكسل، لاحظ مايكل، أصبح أكثر رصانة، لكن بدا وكأنّ

كلّ قلقه السابق قد تجمّع في عينيه اللتين تشعّان بإرادة الحياة.

وفيما إذا كان يرغب أن يصطحبه إلى الداخل، توسّل أكسل من أجل ذلك عشرين مرّة. كان يعرف ميزة مايكل لكنه لا يريد أن يتخلّى عن الأمل. لكي ترى إينغا؟ ينبغي ذلك. سيسعدهم القاء التحيّة عليه. الطاولة مليئة بأطايب الطعام والشراب...

"أضحت أمُّ إينغا مريضة حين تحدّثتُ عنك"، لمّح أكسل بذلك ضاحكاً بشكل خفيف وكأنه يمزح. "تعال الآن! ينبغي أن تشفيها من جديد".

نظر مايكل جانباً في الفضاء بعينيه الزرقاوين، لم يقل "لا"، لكنه لم يكن يرغب بذلك. شدّه أكسل نحوه، لكنّه قاوم ذلك ودعكَ ذقنه مستغرقاً في التفكير.

"نعم، نعم"، تحسّر أكسل خائباً ثمّ تخلّى عن محاولته. إذن سوف يكون عليه أن ينحدر نزولاً ليزور مايكل. إنه ليس على عجلةٍ في سفره بالتأكيد. يجب على مايكل أن يَعِدَ بالبقاء في النزل إلى اليوم التالي. "لكن تعال وحدك!"، قال مايكل بصرامة، بعدها إفترق الإثنان.

حينما انحدر أكسل صوب النزل في اليوم التالي كان مايكل متأهّباً للسفر في الخارج، حصانه أُرسل للعبور بمعدّيةٍ قبيل ذلك. كان متلهّفاً على مواصلة رحلته. نظر أكسل بلطف إلى رفيق سلاحه القديم، وحين لاحظ أنّه كان يفضّل الرحيل إقترح عليه شخصيّاً، لكي يفعل شيئاً طيّباً لمايكل، أن يرافقه في رحلته عبر مضيق "أورسوند".

أبحرا المسافة الأولى في صمت، لم يستطع مايكل التخلّص من إرتيابه. لكن خارجاً في وسط المضيق كانت الشمس تسطع في أقاصي البحر الأخضر، الساحل يمتدّ مغموراً بالضوء ورونق الصيف من أمامٍ وخلف، حينها نظر أكسل في الفضاء وابتسم، لم يكن بمقدوره ضبط

نفسه أكثر. شرع يتحدّث عن إينغا، عن حياتهما كيف ستكون، سيبتاع عزبة، عليه قريباً أن ينبش الكنز بعد كلّ هذه المدّة... إينغا...

تحدّث أكسل، صار صوته دافئاً بلا حدود ومحترساً، تلفّت حوله، كان مأخوذاً بما في أعماقه، بين آونة وأخرى يكركر متأثراً بما يقول. أصبح مضطرباً، هزّ رأسه، نظر مفعماً بالأحاسيس نحو مايكل، نسي كل شيء آخر... ومايكل أحسّ أنّ طيبة هذا الفتى الإلهيّة مثل ظُلمٍ تمّ تقريره بلا قلب.

لاحظ أكسل بصعوبة أنهما قد غادرا العبّارة نحو جهة "هيمرلاند"، ظلّ يواصل حديثه فيما كانا يسيران مترافقين عبر الطريق.

لم يعد مايكل يصغي لما يقوله أكسل، كان يمشي بسرعة منحنياً إلى أمام. صعّدا إلى مرجٍ وسرعان ما أحاط بهما الهدوء هناك. أغوى دفء منتصف الظهيرة هواءً مشبّعاً بشذى التوابل بالإنبعاث من الأعشاب الجافّة تحت قاع الخلنج. ثمّة نحلة تئزّ عبر الطريق. موسيقى الجنادب تصرّ مثل تنفّسٍ لاهثٍ في أجمات الخلنج. عدا ذلك لم تكن ثمّة علامة تدلّ على أنّ الريف كان مأهولاً بالبشر باستثناء الطريق الفسيح الذي كان ينسج آثارَ عجلاته خروجاً ودخولاً أبعد فأبعد متجهاً صوب حافة السماء. على مسافة ميل تقبع مرتفعات "جروبولا". حيثُ السماء الناصعة تقوّس نفسها منبسطة فوق الأرض.

هنا - حينما أصبحا وحيدين تماماً في المرج - حقّق مايكل إنتقامه.

كان من المستحيل عليه أن يغفر لأكسل. لم يكن مايكل قد رأى إينغا في حياته. ولم يكن يفكّر في آنا ميتا الآن، باستثناء نوبات عذابه. لم يكن ليفكّر بشيء آخر غير أن أكسل قد أهانه تلك المرّة في ستوكهولم. نعم، و... نعم، كان كرهه له خارجاً عن سيطرته. لكنّ قلبه

عَلِقَ في حنجرته. شعر مايكل بضعفه يتصاعد في ذات اللحظة التي أقسم فيها على الفعل. كان عاجزاً تقريباً مثل إنسان لا يمكنه قول أنّه يحبّ رغم أنّه يريد أن يقول ذلك. بعد كلّ اعتبار فلم تكن تلك سوى قضيّة مجمّدة، لكن مايكل تردّد من أجل متعته الخاصّة، من أجل عذابه الشخصيّ. كان مُذلاً حدّ القاع، فاقد الإحساس، قلبه يتعرّق. كان ينوء بشعور أنّ كل الكائنات تتآمر ضدّه لوحده. في النهاية أظلمت دواخله رغم أنه لم يمكنه أن يوائم نفسه مع صنيع الظلام. حتى جاءت تلك اللحظة، حين بدا وكأنّ مخلوقاً آخر غيره يقوم بذلك الصنيع.

مضت الحادثة بعدها بهذا الشكل: ترنّح مايكل فجأة ثم انتصب ساكناً، كان يحدّق بأكسل. توقّف أكسل عن الحديث، بعدها استلّ مايكل سيفه ذا المقبضين وتحرّك نحو أكسل الذي كان أعزل، كنس بشفرتِهِ الهواءَ أمامه في عجزٍ غريب مثل طفل فقد السيطرة على نفسه. لكن حينما هوت الضربة على أكسل أصابته اصابةً خطيرة. لم يفه أكسل بكلمة، كان ينظر نحو السيف، محاولاً حماية نفسه بذراعيه، قبض على شفرته بيديه، حينها نال طعنة في ركبته. غنّت الطعنة عبر جميع مفاصله، فرقصت عنقه فوق عموده الفقري وخرَّ مَغْشِيًّا عليه.

أعاد مايكل السيف بطيئاً إلى غمده. مسّدَ لحيته وفكّر متدارساً الوضع، بعدها إنحنى إلى الأسفل ومدّ يده نحو رقبة أكسل منبّشاً حول صدره الساخن إلى أن عثر على قرن الكبسولة. إنتزعها وتمشّى بضع خطوات بعيداً قبل أن يفتحها.

الكبسولة كانت خاوية، وحين أدرك مايكل الأمر طوّح بها بعيداً عنه بين أجمات الخلنج ثمّ أطلق ساقيه للريح منحدراً صوب الشارع.

الأُضحِيّة

استعاد أكسل وعيه بعد مرور بضع ساعات. لم يكن في مقدوره أن يستند على ساقه ويعاني من آلام عنيفة، سحب جسده بضع خطوات إلى الأمام منحدراً صوب الشارع، ثمّ جلس فوق أَثَرِ عَجَلَةٍ وانتظر، تنفّس بهدوء وانتظر. ألمٌ شديد يمزّق رأسه جعل من الصعوبة عليه أن يرى بعينيه. الركبة تختلج من الألم، لم يعد يجرؤ على النظر إليها. أخيراً تخلّص من ملابسه بعزم وتفحّص ما قد أصابه. لم يكن سوى جرحٍ أزرق محدود في مقدمة ركبته، حتى أنه لم يكن ينزف، لكن المفصل كان متورّماً ومؤلماً بشكل لا يطاق.

كان المساء على وشك الحلول. الطيور تصفر باتجاه الشمس الغاربة. نسيمٌ رقيق يهبّ فوق المرج. إلى جانب أكسل تماماً كانت ثمّة شجيرة «عِنَبِ الدُّبِّ»، لكن ثمارها كانت صلبة وغير ناضجة.

تناهى إلى سمعه من البعيد صريرُ عربةٍ كانت قد قدمت من موضع العبّارة. كانت مسحوبة بالثيران، تمضي بطيئاً بها، بطيئاً على نحوٍ لا يوصف. لكن في النهاية إقتربت منه إلى درجة أن أكسل تمكّن من أن يلّوح للرجل. رجاه أن لا يوصله إلى موضع العبّارة وسأله عن أقرب نزل من جهة الشرق، وبما أنّ نزل «جروبولا» كان هو الأقرب فقد تركه ينقله إلى هناك. كان الليل قد هبط حين وصل إلى مقصده، ورغم أنه كان مضطجعاً فوق حزمة كبيرة ناعمة، إلى حدّ ما، من شجيرات الخلنج، إلاّ أنه كان في حالةٍ يرثى لها.

أُوصلَ إلى السرير في حجرة الضيوف الوحيدة في النزل، وهناك غلبه النعاس فغفا.

حينما استيقظ أكسل في الصباح وأبصر الفجر الناصع على زجاج النوافذ، غير منتظر خلاصه من كابوسه الخانق، الشيء الأول الذي شعر به كان جرحاً، أوجاع الساق، شعر بالرعب حينما تحقّق من أنّ الأمر لم يكن حلماً. لكنّه حين تطلّع إلى ساقه دبّت لسعة خوف باردة في أوصاله، كانت الركبة متضخّمة إلى ضعف حجمها الطبيعيّ، حمراء وتختلج. عاود بعدها الإضطجاع وانفجر في البكاء مرتعشاً مثل قشّةٍ في الريح، شبك راحتيه وناح على قَدَرِه، إنسابت الدموع مالحة في زوايا فمه.

قبيل الظهيرة قدم شخص إلى أكسل، رجلٌ صغير أسمر البشرة يدعى زكريّا. كان جرّاحاً متجوّلاً وصادف وجوده في هذه البقعة. حينما تطلّع أكسل نحوه شعر لحظتها بشجاعة أكبر. «صباح الخير»، هتف زكريّا بمرح، صوته كان مثل خشبة. «حسناً، دعنا الآن نلقِ نظرةً!».

إثر ذلك أزاح الدثار بعيداً وأمسك بيديه الإثنتين الرُّكبةَ الجريحة. صرخ أكسل عالياً مرّة واحدة.

«هوه هوه»، هزّ زكريّا قائلاً، واصل فحصه بمخالب قويّة، لكنّ أكسل مدّد نفسه وصمت. «هوه هوه»، إنحنى زكريّا وبدأ يهرهر... هكذا! كان تماماً مثلما اعتقد. إستقام وأخبر أكسل أن عليه شقّ مكان الإصابة، وهذه قضية ليست خطيرة. والآن شرع بالتهيّؤ لذلك، جلب طست ماء وفتح حقيبته.

تابعه أكسل في حرص بعينيه وخرج بانطباع لا يمحى عن هذا الرجل. لونه كان بنّياً يميل للرماديّ وذابل الجلد، شفتاه المسطحتان مرقّطتان، لثته وأسنانه شبه المتعفنة بدت وكأنه قد شرب حَمْضاً أكّالاً. عيناه تومضان باحمرار، وثمّة ظلال بزرقة البارود أسفلهما، الشعر شبيه

بالقشّ الذي أتلفته الرطوبة. حتى شارباه الصغيران كانا ملطخين بالألوان مثل تبنٍ مخمَّر. كان سريع التقلّب مثل عَظَاءة، زكريّا، يداه السمراوان تبدوان كأنهما انغمستا في قذاراتٍ عديدة. وكان ثمّة رائحة تفوح منه، رائحة جافّة وزَنِخَة مثل تلك التي تبعثها العلاجيم والزواحف الأخرى.

قصّ زكريّا خلال ذلك حكاية، فيما كان يضع مباضعه وكلاليبه النحاسيّة بالترتيب فوق كرسيّ الخيزران، كانت ثرثرة فارغة وحمقاء تدور حول لا شيء، ثمّ ضحك، فجأة تدحرج صخبٌ من حنجرته.

«حسناً»، قال أخيراً متّخذاً مظهراً جادّاً، مدَّ يديه ببطء نحو الركبة وتحسّس موضعاً يبدأ منه. وفيما كان يقطع ظلَّ محتفظاً بالصمت.

شعر أكسل في البدء بما يشبه الشلل بسبب تلك الفظاظة العجيبة للألم الذي استعر بين المِشْرَط والجُرح. لكنّه شدَّ من أزره، كاتماً أنفاسه خلال ذلك بكلّ ما أوتي من قوّة، مجبراً رأسه المدوّي على الإنخفاض فوق الوسادة، ثمّ خرّ بطيئاً مغشياً عليه.

حينما استيقظ أكسل أبصر وجه الجرّاح فوقه وسمعه يأمر: «اِزفِرْ! اِشهَقْ!»، كان يظنّ أن الحجرة معتمة، الباب كان مفتوحاً، وثمّة بضع وجوه تتطلّع عبر إطار الباب.

اتكّأ أكسل على حافّة السرير وتقيّأ، ثمّ انهار في السرير من جديد خائر القوى. وكانت أوجاعه، مؤلمة جدّاً، فظيعة جدّاً، تبدو ساكنة إنّما ذات قوّة رهيبة. أوه، كلاّ، أوه، كلاّ!»، لكنها ظلّت تتواصل. تلوّى في السرير مثل شخص سقط في الجليد، هزّ رأسه بوهن، وأنشب أسنانه في بعضها فيما كان يشفط الهواء إلى صدره المائج. رطّب بلسانه شفتيه اللتين كانتا شبه محترقتين أو مشوّهتين.

«هس هس هس»، هدّأه زكريّا الذي كان واقفاً يحرّك عصيدةً سوداء مع بعضها في وعاء من صلصال. «ستسكن أوجاعك قريباً، أنظر،

ها هنا مَرْهَم جيّد، إنّه يتكوّن من سبعة وسبعين عنصراً مختلفاً، كلّ قوى الطبيعة تكمن فيه، حين نضعه الآن فوق الجرح، هوه هوه...».

دهـنَ زكريّا الجرح بالمرهم، فيما غرق أكسـل فـي غيبوبة جديدة. حينما عـاد إلى وعيـه ثانية كانت السـاق مشـدودة ومربوطة إلـى جانبه. سكن الجرح الملتهِب قليلاً، وكأنّ جوعه الأوّل قد أُشبع. لكنّ صمته لم يدم طويلاً. زكريا كان قد رحل.

إضطجـع أكسـل بقيـة اليـوم غارقـاً فـي الآلام، الآلام التـي تخبط سـويّة على رأسـه، أو بالأحرى في إعياءٍ شـديد. جُلب لـه الطعام، فأكل فيما كانت الحمى تنهش جسـده وأسـنانه تصطكّ، مستعجلاً الإنتهاء من طعامه، ثمّ سارع فيما بعد إلى إغلاق عينيه والكفاح من جديد.

حينمـا فتح عينيه بعد سـاعات توقّـع أن الليل قد حـلّ. لكنه أخطأ الظن، فقد كان وقت ليالي الصيـف البيضاء. وحينما رأى أنها كانت ليلة نيّـرة أدرك، كما لـو أنّه كان فـي رؤيا، طبيعة عذابه. كان يقاسـي بشـكل إسـتثنائيّ، الرُّكبةُ تنبض بالألم وفقَ إيقاعٍ، وكأنهـا مخلوق ضبطَ هجومه وفق نظام ما. كان وحيداً، ينشـج من أعماق قلبـه. إضطجع يقظانَ طوال تلك الليلة المضيئة، يزداد مرضاً ومرضاً.

لكن حينما بزغت الشـمس شـعر بايقاع ينبض عبر قلبه، نشيد قوّةٍ، شـعر بنفسـه مثل إلهٍ، كلّ نبضة دمٍ تجدّد وعي الألـم في رأسـه. كان مثل صَخَـبٍ هادر مـن حوله، رغم أنّه كان يضطجع في سـكون تـامّ، «كلاّ يا إلهـي!»، كم هـو مُهَدِّىءٍ سـماع ذلك مثل هتـافٍ في الفضـاء! إضطجع ونمت قوّاه بضخامة، مستشعراً قرار موته الرهيب.

نهض أكسـل في السـرير مستفيقاً من النوم لأنّ ثمّة ذُوِيّاً كان يشعّ مـن موضع مـا على إحـدى فخذيـه، وكأنّ المـوت قد وضع فمـه هناك

ومصّهـا. تفصّد العَرَق منه. لكنّه كان يرتعش من الإرهاق، فكان أن انهار من جديد.

رأى وجوهـاً تحلّق فوقـه. حالما انقشـع الرعب عنـه ركض أرنبٌ بـرّي باتجاهه، عيناه كانتا تنتفخـان. طنّت ذُبابة فَـرَسٍ بأجنحتها المعدنيّة فوق الدثار، ضجيج طنينها يتصاعد! أغنية طاحونة حجريّة! وأكسل تقبّل رعبه، غارقاً في الرضوخ. لكنه استيقظ معيداً إكتشاف عذابه.

جاء زكريّا ونزع الرباط عن موضعه. زمّ شفتيه مع بعضهما ممتعظاً، كان ثمّـة التهاب هائل فـي الجرح. قطـعَ قليلاً من جديد وصفـقَ مَرْهماً قويّاً جديداً فوقه. بعد ذلك قعد عند السـرير وشـرع يقصّ حكاياته. شعر أكسل بتحسّن، لم يعد الألم يحاصره بشدّه، فاستراح...

بمـاذا تحدّث زكريّا؟ حكاية مبهجة صغيرة عـن مدينة غريبة جاءها ذات مـرّة عبـر انحداره داخـل المانيـا. كان النـاس كلّهم مُعاقيـن هناك، وإذا رغب إنسـان باجتياز هذه المدينة حيّاً فيتوجب عليه أن يوثق إحدى ساقيه إلى الأعلى ويزحف عبرها على عكّازتين. لم يكن هناك من شيء إضافيّ يُقال.

نظر أكسـل إلى وجه زكريـا كما ينظر عبر الضبـاب، تلك الضحكة اللامبالية، فكّر أكسل، أنّ الجرّاح كان يشبه خنفساءً عملاقة.

سـمع أكسل حكاية مختصرة أخرى. كانت تدور أيضاً حول إحدى تلك المدن المحصّنة في أقصى ألمانيا. زكريّا كان قد سـافر عبرها فرأى سـكّانها ينتقّلـون فـي الشـوارع كأنهـم مسـحورون، الأبـواب والبوّابات تجذبهم إليها، أو يُعصف بهم بعيداً. لماذا؟ لأنّ هناك كلباً مجنوناً وحيداً يجول وسط الشوارع والزَّبَد يرغو في فمه.

غفا أكسل بشكل خفيف.

حكى زكريّا أُسـطورة. كانت تدور عن راهبٍ كان يسافر عبر طريق

مختصر نحو أورشليم. مرّ في البداية قرب بحيرتين رائقتين واجتاز رابيةً صغيرة وبعدها دار حول حفرة. وبعد رحلة طويلة، صاعداً هضبة ونازلاً أخرى، وصل إلى جبلين كبيرين أبيضين، حيث ألقى عصا ترحاله ليستريح هناك. بعدها سافر لمسافة أميال عبر أرض مرتفعة، في البدء صاعداً وبعدها نازلاً. من على القمّة أبصر الحديقة الجُثمانيّة[1]. بعدها وصل إلى أورشليم.

... فجأة أصبح أكسل مستيقظاً تماماً عند شيءٍ رواه الجرّاح. وتطلّع جذلان في الوجه المتبدّل الألوان.

ثمّ لم تكن سوى حكاية مقرفةٍ عن فتاة من هولندا. كانت قد قدمت إلى زكريّا وطلبت منه باسم سيّد منزلها أن يعطيها عَقّاراً ضدّ الفئران، كانت فتاة عامرة الصدر، كبيرته، في العشرينات من العمر، من النمط المبكّر النضوج تحديداً، الفوّار فعلاً. وكان هناك أيضاً - إنتبهْ إلى هذه النقطة - ثمّة نوع من الكسل فيها... كانت من النوع الذي يشبعه الحبُّ المُحَرَّم فترةً من الزمن ربما نصف عام، لا تقبل الخطأ. أنظرْ، بعد يومين إستدعوا زكريّا لكي يقوم بتشريح جثّة. وإذا هي ذات الفتاة بالضبط. كانت حاملاً. هوه هوه هوه. إبتلعتْ ثمانيةَ أوزانٍ من سُمِّ الفئران، ذات المقدار الذي استلمته منه تحت حُجَّةٍ مُزيّفة. كانت مضطجعة فوق طاولة. وتبدو ميتة، مثلما الربّ القدير ذات مرّة نفخ الروح فيها، لو نفخ فيها القدير من جديد لأحدث انتفاخاً كبيراً فيها.

هنا فرقع زكريّا من الضحك. كان مثل تدحرجِ كَومِ حَطَبٍ على الأرض فجأة.

لكنّ أكسل تطلّع إليه في رعب عميق. لم يستخلص من روايته

(1) الحديقة الجثمانيّة: حديقة تقع خارج القدس، وهي الموضع الذي أعتقل فيه السيد المسيح، وتعرف أيضاً بموضع الآلام. (المترجم)

شـيئاً غيـر أنّه أبصـر تلك الجثّـة الميّتة فـوق الطاولـة. وتذكّـر إينغا التي قطفت زهرةً من الحقل ومشـت وهي في يديها مثل شمعةٍ... إلى جانبه. كلّ كيانـه انتفض رافضـاً، هذا غيـر ممكن، إبعـد، إبعدْ! أطبـقَ مَحْجِريه الملتهبين واستدار بوجهه صوب الحائط، كتمَ أنفاسه وبكى.

الموت الدنماركيّ

أكسل، الفتى الخالي البال، أسلم الروح مساءاً تحت سماء مفتوحة، الساعات الأخيرة من عمره كان في يقظة كاملة.

بعد اليوم الثالث من إصابته بالجُرح مرضَ على نحوٍ مهلك. وكان متعباً من الأبديّة. حينما شعر بالحمّى الأخيرة جعلهم يحملونه خارجاً، صرخ مثل حيوان في اللحظات التي كان فيها بين أذرعهم. الآن جلس على كرسيٍّ خارج المنزل طوال اليوم.

حينما فتح عينيه تحت وهج الشمس - كان البطّ يتنزّه قرب البئر - أبصر مايكل ثوجرسن، كان واقفاً هناك لبعض الوقت.

«ألم تتحسّن؟»، سأله العجوز التعيس. هزّ أكسل رأسه بلا مبالاة وأغلق عينيه. بعد فترة طويلة، حينما رفع بصره، رأى مايكل لا يزال واقفاً هناك حتى الآن.

كان الحرّ سالقاً وساكناً. الشمس تتلألأ فوق إناء خزفيّ على الأرض.

«النحلات، إنّها تحتشد»، قال قرويّ أليفُ الصوت من أمام باب النزل. كان ثمّة سرب نحلات يحلّق في الهواء الناصع البياض كما الثلج فوق حديقة الكُرُنْب، كانت تتموّج قريبة من الشمس مثل غيمة كُرويّة حيّة، تتوتّر منتشرة، ثمّ تتكاثف منكمشة من جديد حول نواتها المحتشدة، وبين حين وآخر تصبح لا مرئيّة تماماً في لهب الشمس، حيث يئزّ القيظ منحدراً من هناك.

سمع أكسل مايكل يقول أن الكبسولة كانت فارغة. «لم يكن فيها أيّ شيء، يا أكسل!»، لكن أكسل لم يكن مبالياً. لم يكن يخالجه الشك خلال حياته بأنّ الوثيقة كانت في حوزته، لكن بما أنّه الآن سيموت فلم يعد يقلقه إن اختفت.

«ألن تسامحني؟»، توسّل مايكل في تعاسة عميقة. ولم يكن يزعج سوى رجل محتضر، لم يتحرّك أكسل. بعد قليل لاحظ أنّ مايكل قد رحل.

صار أكسل يفكّر في إينغا بشكل مستمرّ الآن. هل تراهم نسوه؟ إنّهم لم يأتوا إليه. لم يكن قد بعث بخبر لهم، لكنّه كان يؤمن في هدوء أنهم سيعثرون عليه على كلّ حال. منذ مدّة قصيرة لم يكن راغباً في رؤيتها، لكن الآن... لماذا لم يعثروا عليه؟ لقد كان بإمكان مايكل أن يعثر عليه! لماذا إذن لم يرَ أيَّ واحد منهم؟ بكى في قرارة نفسه. جلس ساكناً تماماً. ليس ثمّة من فَرَجٍ، لم يعد بإمكانه حتّى ابتلاع ريقه كي يطفيء الجذوة التي كانت تتّقد في صدره. كان ريقه قد نشف تماماً.

فيما بعد، قبيل الظهيرة إستيقظ أكسل وسط شعور بالتحرّر من الأوجاع!

نعم، غمره شعور عظيم بالامتنان حتّى احمرّت وجنتاه. واصلت الآلام نأيها بعيداً! شعر بخلاصهِ يستمرّ ولم يستطع تحمّل سعادته الداخليّة. حافظ على هدوئه في غمرة وهنه اللامتناهي وتلاشى حرّاً من الآلام بشكل يثير الدهشة. بين آونة وأخرى كان قلبه يثب في صدره بهدوءٍ مثل طفل مُتعَبٍ يبهج نفسه للذهاب إلى السرير ويضحك ناشجاً.

أصبحت أفكاره أشدّ وضوحاً، الأشياء المنسيّة حضرت في ذاكرته، تذكّر الماضي والحاضر في الوقت ذاته دون أن يشعر بالألم. آلام

الذكريـات قد غادرتـه. لا مرارة في المـوت. ليس صعباً جـدّاً أن تموت قبل أن تحين لحظة الموت.

تذكّر أكسـل واقعةً حدثت فـي طفولته، حينما كان شـديد الإعتداد بنفسه حتى أنّ المعاملة القاسـية، الضرب كان يناسبه أكثر من الملاطفة. الحَجَر العملاق ما زال هنالك بلا شـكّ، ذلـك الذي ثُبِّت عليه ذات مرّة لأكثر من ساعة، كان الحجر يزن طنّاً على الأقل، في غمرة غضبٍ أعمى رغب برميه علـى صبيّ آخر، وحين لم يتمكّن مـن زحزحته عن الأرض بقي معلّقاً فوقـه مُطبِقاً فوق يديـه وقدميه مثل نملةٍ سـاخطة. كان عليهم دحرجته عنه. ما أقصر الزمن الذي مرّ!

فكّر أكسل في الشجارات العديدة التي تورّط فيها. تذكّر أكسل أحد الضفـادع الذي زحف أثناء المطر وعتمة المسـاء على بطنه عبر أعشـاب القُرّاص مثل كشّافٍ. تذكّر الموضع المهترئ على كُمِّ سترةٍ كان يمتلكها ذات مرّة. إنّه يموت فيما الأشـياء البالغة الصغر تقبلُ بتُؤَدَةٍ إليه، الأشـياء المنسيّة التي تؤلم مثل الحديد الحامي، لكنّ فظاعة الذكريات تتوحّد مع الشعور السعيد بانتهائها. هكذا ماتَ أكسل حيّاً مثل ثلجٍ يذوب. لقد سار نحو موته حيّاً...

إينغـا! أو هوه هوه! لقد أصبحت نائية، رغـم أنّه تذكّرها عند موته. حبيبتي إينغا، وداعاً! لكنّ الموت ليس صعباً.

عشيّة أحد الأعياد المقدّسة كان الفلاحون في «جروبولا» يستعدّون للإحتفال. عند الظلام، غسق الصيف الرقيق شرع بالحلول إنقلبت السماء إلى اللون الذهبيّ، والأعشاب تندّت. سنابل القمح الخضر الثقيلة تتدلّى وكأنّها فـي كعكة فوق الحقـول الخصيبة، حيث يفوح عبق شـهوانيّ من رؤوس كلّ تلـك الآلاف من سـنابل القمـح الغضّة. عند أسـفل المروج

بمحـاذاة الجدول كانت العجـول تخور باتجاه الفتيـات الحلاّبات. بعيداً فـوق مرتفعات مـروج «جروبـولا» كان ثمّة نقطة قبالة السـماء السـحيقة الغـور، كان أحد الصبيان الرعـاة في طريقه للهبوط مـن هناك مع حلول المساء.

كان الوقت مسـائيّ الهدوء والبرودة المعتدلة فوّاحة تحت السماء، حتى الغسـق بدا أخضرَ وكأنّ الهواء كان بحـراً للخصب. كلّ الأصوات تتهادى ناعمـة نحو الأذن. كلّ صيحـة تأتي من البعيد تنبئ عن السـعادة فـي المكان الـذي انطلقـت منه، لتسـتحيل إلى رنيـن حبورٍ يشـقّ طريقه تحت السـماء اللانهائيّة. لا ينبغي هبوط الليـل، فالزمن الآن زمن الليالي النيّرة.

وبعد أن سيقت الأبقار إلى داخل الحظائر وتناولت عشاءها الربّانيّ في سلام، تجمّع سكّان «جروبولا» الطيّبون مع بعضهم في جادّة المدينة خارج النزل. ثمّة موسيقى تنطلق من كمانٍ وحيد يغنّي كما لو أنّه صوت إنسان.

شـخص أو آخر يقف لبضـع ثوانٍ متطلّعـاً نحو هـذا الغريب الذي كان يجلس خارج النزل، متّفقين بأنّه لا يبدو على ما يرام.

سـرعان ما انسـحب جميع الناس فـي المدينة، الكهول والشـباب، باتجاه الكنيسة، حيث سـيقام الإحتفال. عازف الكمان سار في المقدّمة. باسـتثناء امـرأة عجوز بقيت فـي النزل من أجـل المريض. جلسـت عند الباب مـع دولاب الغَـزْل تغزل السـاعات خروجاً ودخـولاً دون أن تثير أدنى ضجيج.

الزمن يمضي. من فوق الكنيسـة تنبثق بين آونـة وأخرى موجة من الأصـوات الواهنة. هبّـة ريح قادت الضجيـج المتصاعد معهـا بعيداً عن هناك، الضحكات، صيحات الراقصين.

فتح أكسل عينيه شبه واعٍ بوجوده مثلما كان ورأى أنّ الليل كان ساطعاً.

إنّهم يغنّون في الكنيسة هناك. كان بالإمكان سماعهم يطرقون السدّادة عن أحد براميل شراب الشعير. غنّوا عالياً وباستهتار هناك، حيث يرقصون جميعهم في حلقة. الحفل صار عاصفاً، حتى أنّه كان يُسمع على مسافة بعيدة من جهة الريف.

فتح أكسل عينيه مرّة أخرى ورأى الليلة الساطعة.

السماء كانت مثل وردة بيضاء.

في البعيد هناك، على مسافة ميل كانت نيران البهجة تشتعل فوق أحد المرتفعات.

ثمّة طائر صامت يحلّق مجتازاً بسرعةٍ ومواصلاً طيرانه باتجاه الغسق المعتدل. شجرة الصفصاف عند البئر تنحني بوداعة بكلّ أوراقها الناعمة البيضاء في تلك الليلة النيّرة. سربُ فَراشٍ رقيق، رماديّ البياض يخفق في هواء الليل. السماء كانت تسطعُ بأضواء النجوم. أطبق أكسل عينيه.

فحلّق في عامودي عبر الليلة الساطعة وهبط على متن سفينة السعد. كانوا يشقّون عباب البحر تحت ضوء القمر والنجوم. وبعد أن أبحروا بيسرٍ طويلاً، وصلوا إلى أرض السعد. الأرض الخفيضة ذات الصيف البهيّ. ها أنت تشعر، مغلقاً عينيك، بالعبير الحلو للأرض المعشوشبة، الأرض ناعمة وخضراء مثل سرير غضٍّ في البحر، سرير الولادة، سرير الموت. السماء تحدودب عليه بعشق، السحب تقف ساكنة فوقه، الأمواج تقترب وتربّت على كتف الساحل المتوهّج. بحران أزرقان يخطبان ودّ الشواطئ، حيث الرمال الناعمة، وقاع البحر المعشوشب الرقيق مزخرفٌ بحَصى كرويٍّ متعدّد الألوان. على الأرض كان ثمّة خليج، لا يمكن أبداً

نسيانه، فهنالك كانت دعائم الشـمس تنتصب. سواحل الأرض والجزائر تسـتعرض حسـنها المدهش في البحر. الخلجان تغنّـي، والمضايق يبدو كبوابّات نحو أرض الغنى. كلّ شـيء هنا ملـوّن بعمق، الأرض خضراء، خضـراء، والسـماء تلتقي بالبحر فـي اندمـاج أزرق. إنّهـا أرض الصيف العظيم، أرض الموت.

الملك يسقط

قبل أن يحصل مايكل على إجازة ويتوجّه نحو أورشليم بدأت أوقات الملك العسيرة، كان مايكل بصحبته في بعض منها، فقد كان معه في تلك الليلة التي أبحر فيها الملك عبر المضيق الصغير.

دفع الملك كريستيان ثمن فعله الرجوليّ الآن، الأحجار التي طوّح بها في الهواء أخذت بالتساقط فوق رأسه. قوّة الملك تنتقم لنفسها.

القوى تنتقم لنفسها. القوّة والثِّقل تقودان بعضهما... خذْ وزنين متكافئين في يدك اليمين واليسار، وإذا كانت ذراعك اليمنى هو الأقوى فستشعر بثقل الوزن فيها! حيثما تكثر الشروط في قانونٍ ما فإنّ قانون الثقل هو الأكثر شروطاً. الذراع الأضعف سيسهل عليها السقوط.

السقوطُ أبديٌّ على الأرض، كلّ كائن حيّ خُلقَ والثقل في نظام تكوينه، الإنسان، الذي انتصب، معرّضٌ للسقوط. الأقوى هو المقاومُ ضد السقوط على الأرض.

الرجل الأقوى يتبع الخرق، نعم، الحمّال الأقوى يكون هو الأثقل. الأقوى يحمل السعادة، طالما كان يقف على الأرض الرؤوف، المعطاء، الأقوى يحمل المعاناة والألم، إذا كان يقف على أرض الحسد. هو وحده يعرف الرغبة، هو وحده يعرف شيئاً عن الشقاء.

لكن على الأقوى أن يتعلّم أيضاً أن السعادة والألم هما شيء واحد على هذه الأرض المُنجِبة والمميتة. عليه أن يتعلّم أن الحياة هي الفناء، والفناء هو الحياة. عليه أن يعرف أنّ رغبة الحياة متآكلة، أنّ مولّد

المشاعر هو انهيار المشاعر، أنّ استعمال القوّة هو نهاية القوّة. يصوّب الأقوى نحو السماء، وذات يوم ستمطر الأحجار فوق رأسه.

ولكي يتقدّم الأقوى في ذاته ويتعلّم التحوّلات، يضع الشكّ على جانبه. فقط الأقوى يمكنه أن يمضي مع الشكّ، لأنّه ينبثق من القوّة، التي تنهار. إنّه يرافق القوّة لأنّ القوّة هي شرط العجز.

الشكّ، إنّه يمضي بين القوّة والعجز. إنّه الوسيط الكافر بين الحياة والموت، يقف مبدّلاً إنحيازه إلى أحد الجانبين، مستمدّاً حياته من سير تلك العملية الخرقاء التي ستخسر. الشك يظهر للإنسان وجهه المقرف، من المرّة الأولى التي يخطيء فيها وثبته. بعد ذلك يكون في جوهر العمليّة. الأسد ينسى ملوكيّته حينما يخطيء في وثبته ويذكّر بالأفعى السامّة التي تزحف على الأرض.

الشكّ تذكير من قبل الأرض ذاتها، التي تلد وتميت، تعطي وتأخذ، تلك تريد ولا تريد. الشكّ أكثر إيلاماً من الموت، لأنّه غير مشخّص، لا شيء، فراغ، والموت يشفي، لكن الشكّ مسموم، موت مبكّر لا شفاء له. والشكّ ينمو حينما يدير المرء وجهه باتجاهه، يبصر المرءُ الوجهَ الأبكم والصفيق ينمو. الشكّ هو مرض الروح الوحيد الذي يزول من خلال الإعتراف.

أُنظرْ، الدنماركيّون شكّاكون لأنّ التاريخ الدنماركي عبارة عن تاريخ إنهيار قبيلة قويّة. وهذا الشكّ الآن هو المرض الوحيد في الروح الذي سيضمحلّ عبر الإعتراف، ذلك هو قَدَر الدنماركيّين، إنّ ما يبدو هو العقار الشافي الجذريّ يقتل أملهم إلى الأبد.

الملك كريستيان وصل إلى هذا الحدّ. المآسي الكبيرة تجلّت للعيان. كانت تتوق إلى القوّة، قوّته. والآن حان وقتها.

رأى الملك النذير المرعب.

يروي التاريخ باختصار عن أثقل ليالي الملك. كان ذلك في العاشر من فبراير من عام 1523، ليلة الشكّ واليأس، كانت تنحدر من السابع من نوفمبر عام 1520، حينما إنهارت قوى الملك. نعم، حينما تلاشت قوّة الملك فيما كان يستخدمها.

إستلم الملك كريستيان إخطار التنصّل الذي قدمه النبلاء الدنماركيّون له حينما كان في «ريو»، مرفقاً بنقضهم لضمان الولاء له. كان موقفه غاية في الصعوبة. لكن حينما تكون قضية الملك غير قابلة للإنقاذ فذلك لأنّ خططه الجبّارة قد إنهارت من حوله. كان قد احتلّ السويد بالوسائل الشرّيرة وضمّها إلى سلطانه عن طريق العنف، وها هي تنتزع نفسها الآن بحماس من قبضته، كان قد حكم الدنمارك بمهارةٍ ورعونة، لذلك تجرأوا على التمرّد الآن، فمن يكافح ينلْ.

في النهاية الآن، حاول الملك البحث عن تسويةٍ مع عمّه الذي كان يطمع في المملكة، قطع رحلات صعبة ذهاباً وإياباً حول «يولاند»، كتبِ وفاوضَ من دون جدوى. كان مُنهَكاً، كلّ سياساته رست على شواطيء المستحيل. حينها أصابه القنوط.

في مساء العاشر من فبراير تخلّى عن قضيّته. صعد على متن عبّارة ليبحر متجهاً نحو «فين»، فهذه الجزر لم تتخلّ يوماً عن ولائها للملك، والنرويج كلّها ما زالت تؤيّده حتى الآن، لكن يبدو أنّه يعرف أنّه قد تخلّى عن قضيّته، قضية الدنمارك، حينما تخلّى عن المفاوضات وأبحر مغادراً «يولاند». المضيق الصغير كان هذا الماء الذي اجتازته العبّارة «كارون».

كان مساءاً قارساً، لا معتماً ولا مضيئاً، ولم تك تمطر، لكنّ الهواء كان سميكاً من شدّة الرطوبة. مضّى الملك في العبّارة عند قلعة «هونبورغ» وبرفقته عشرةٌ من رجاله. كلّ شيء مضى هادئاً، باستثناء

إصعاد الأحصنة على المتن الذي سبّب بعض الإضطراب. بقيّة حاشية الملك ظلّت على اليابسة لكي تتبعه في اليوم التالي، كانوا يقفون مع مشاعل على امتداد الساحل حينما انزلقت العبّارة فوق مياة المضيق المعتم.

جلس الملك في ذيل العبّارة، كان في إمكان الجميع رؤية وجهه على ضوء المشاعل المنبعث من مقدمة السفينة، وكانوا يعرفون خلجاته لكن أحداً منهم لم يفه بكلمة. إلاّ أنهم حين أبحروا لمسافة ما خرق الملك بنفسه الصمت بملاحظة يوميّة إلى حدّ ما، فقد سأل عن التيّار والإنجراف. كان صوته رابط الجأش، يبدو وكأنّه بلا نبرة فوق متن العبّارة المفتوحة، حتى أنّ الذين كانوا برفقته تأثّروا بشكل غير طبيعي وخافوا، فظلّوا صامتين.

بعد فترة قصيرة رغب الملك أن يستعلم عن الحصان الذي كان يعرج ذلك اليوم، أجاب مايكل ثوجرسن بأكبر إسهاب إستطاعه. وصمت ثانية. كان الماء يجيش حول العبّارة، في مقدمتها كان يقف رجل حاملاً مشعلاً، وكأنّ الأمواج كانت تريد الوصول إلى الضوء. من حين إلى آخر تستدير العيون صوب المشعل لترى فيما إذا كان يواصل الإشتعال كما ينبغي، كانوا يجلسون عند دَرابزين المركب وظهورهم نحو الماء. الصمت يثقل عليهم، يرزحون به جميعاً.

«نحن لا نريدكم أن تظلّوا صامتين»، قال الملك فجأة بنبرة خفيضة يشوبها شيءٌ من الوعيد الخَطِر في صوته. «ذلك يبدو عصياناً»، أضاف مجروحاً وغاضباً.

حينها أفرغ أغلب الرجال ما في جعبتهم، جمّعوا أفكارهم وشرعوا بسؤال بعضهم عن أسعار الدروع، عن عدد المرّات التي كانوا فيها في «هامبورغ»، وأيّ شي آخر أمكنهم قوله. لكنّهم كان يتحدّثون

مثـل المرضى الذين يتحدّثون عـن التيّار الهوائي فـي النافذة وهم يعنون المـوت. وحيـن انطلقـت ألسـنتهم كيفما اتّفـق، هـدأ مـن روع الملك. حافظت الأصوات على ارتفاع معنوياته مثلما يحدث لفتاةٍ وجدت نفسها تمشي لوحدها في الغابه بصحبة رجل غريب، فتراها تتحدّث، وتتحدّث، لتَسمعَ صوتَها البائسَ يتردّد في أعماق الغابة.

جـدّف ملاّحو العبّارة بثبات، كانوا يجلسـون مدثّرين بفرو الخراف الرطب وهم يتمايلون فوق المجاديف، قلانسـهم الصوفيّة تظلّل أعينهم، كانوا مضطربين من الملك وأعينهم الممتثلة لم تفارق وجهه. الجياد في منتصف العبّارة حافظت على هدوئها بقدر ما تستطيع، لكنها كانت تنخر بحِيرةٍ عند اقتراب الماء منها قالبةً محاجرها البيض في عيونها. المشـعل يضيء بتقطع داخل القارب المقيَّر، الوعر. بدأت الأحاديث الآن تنسـاب بصورة طبيعيّة فوق متن المركب.

وتُـركَ الملك لينصرف إلى نفسـه بسـلام. ما دام سـاحل «يولاند» على مرمى البصر فسيظلّ يشعر بالهدوء إلى حدّ ما، من هناك شدّ رحاله! لقد تخلّى عن قضيته. كلّ تلك الألوف المؤلفّة من التفاصيل والتعقيدات فـي تدابير حكمه المحطَّمـة جالت الآن مرّة أخرى في رأسـه من جديد. تمعّن في موقفه كلّه، حسـب عوامل الزمان، درس الإحتمالات المتعدّدة والبدائل، وحين أبصر في غمرة مسـعاه المؤلـم النتيجـة، توجّب عليه أن يحني رأسه ويدع القضية ملقاةً.

لكـن حيـن خفتـت نيـران المشـاعل علـى اليابسـة وغاصـت عـن المشـهد، حينما كانت العبّارة تقبع في المضيق المفتوح، حيث لا يمكن تتبع سرعتها، أصبح الملك مشوَّشاً. وحين لمح الأضواء في «ميدلفارت» جالت بخاطره الأرض التي غادر. لقد كانت مملكته، رأى الدنمارك مثل رؤيا صارت حقيقة في البحر، حزمة بِقاعٍ من جميع الألوان، وطن.

إنّها لحقيقة سرمديّة أنّ الدنمارك تقع بين بحرين أزرقين، خضراء عند الصيف، صدئة في الخريف وبيضاء تحت سماء الشتاء. السواحل الدنماركيّة تتثنّى بإغواء، الحقول هناك تستدير بحميميّة، تكتسي بالقمح ثمّ تنضيه عنها من جديد. الشمس تطوف فوق التلال عند مضيق «ليمفورد»، حيث الرياح الغربيّة تهبّ بأُلفةٍ، الخلجان الصغيرة والفرعيّة تستعيد الدنمارك مئات المرّات، ويتجلّى مضيق «أورسوند» مثل بوّابة للوطن المُنتَهى. من هنا تتدفّق الجداول باتجاه البحر، وتنمو الغابات قرب البحار، ها أنت ترى نورَساً، تلمح أرنباً برّياً جالساً في المرج، شمس واطمئنان، تلك هي الدنمارك.

وبما أنّ الملك كان قد غادر بلاده، نظراً لأنّه أدرك تماماً أنّه تخلّى عنها، لذا فقد أصبح التفكير في الدنمارك قويّاً في قلبه، حتى لم يكن بمقدوره تركها.

«إستديروا!»، أمرَ الملك فجأة وانتصب في العبّارة واقفاً. صمت جميع من كان معه وكأنّ لهم فماً واحداً، المجدّفون ظلّوا منحنين على مجاديفهم ساكنين وهم يحدّقون. ألقى عليهم الملك كريستيان بأمره ثانية بنبرةٍ نفاذ صبر لكنّها هادئة. إمتثلوا للأمر وجعلوا من العبّارة الثقيلة تستدير على أعقابها في عرض البحر، وسرعان ما ابحرت باتجاه ثابت راجعةً خارج المضيق فيما أخذت أضواء «ميدلفارت» بالتلاشي. لم يغامر أحد منهم بسؤال الملك عمّا يعنيه، لكنّ الجميع شعر بالارتياح الشديد وذلك ما جعلهم يصمتون حتى تذكّروا الأمر السابق للملك فارتأوا أن يواصلوا أحاديثهم.

سرعان ما تنامت شجاعة الملك ما أن استدار على أعقابه، لأنّه الآن يعود لأهدافه الملكيّة، مشاريع عمره، وحالما انبعثت تلك في دواخله حتّى شدّت من عزمه. في عمق قراره المطلق هذا بالإبحار عائدين نحو

«يولاند» ثانيـة كان يكمن إيمان بأنّ الصعوبات ستُذلَّل، إنه يركّز تفكيره الآن فـي خططه فقـط. تطلّع قُدُمـاً إلى شـمالٍ موحَّدٍ، تراءى له السـلام والولاء المطلق الذي سـينعم به وسـط الممالك. صادقَ في قرارة نفسـه على الترتيبات التي سينفّذها، تفكّر في القوانين والإصلاحات التي سنَّها فوجدها مفيدة. تذكّر مشـروعه في حرف الشـريان التجاري من «لوبيك» إلـى داخـل أقاليمـه، تمعّن ثانيـة بـالأذى المفرط الـذي حـلّ بامتيازات النبـلاء، شـعر بالإرتيـاح من فكـرة مدن الأسـواق التـي سـيتمّ تطويرها، والفلاحين الذين سـيكونون أحراراً في قطف الثروات من باطن الأرض. أبصـر في دواخله إقطاعيّـات مملكته تمتدّ مثل هضابٍ ووديان شاسـعة، ورأى الحدّ الذي يمكن أن ترتفع إليه الأولى وتنخفض فيه الثانية إلى أن تصلا لنقطةٍ تتسـاويان فيها بضغطة واحدةٍ راسـخة على عاتق الميزان في قبضته المسيطرة. وبعد ذلك...

إذن إسـبَطرَّ الملـك هنريك على العرش فـي بريطانيا، بـأيّ حقّ؟ كانـت إنجلترا تعـود للدنمارك مـن قبل. الأسـاطيل الدنماركيّـة أبحرت نحو تلـك الوجهة في زمن سـابق، الشـمال الموحَّـد يمكنـه بالتأكيد أن يدير مخالبه من جديد نحو الغـرب. أموال كثيرة وكثيرة - حينما القانون والاتحـاد والتجـارة والزراعـة تسـتقطب الذهب إلـى الشـمال - العديد والعديد من السـفن والمرتزقـة... ولتهذر العاصفة والطقـس بما يريدان، فقذائف المدافع الدنماركيّة ستثلم جبين «دوفر»[1].

كان القيصـر كارل فـي ألمانيا صهراً للملك، وهـو يعرفه جيداً ولم يكـن معجباً به. كمـا أن الملك فرانسـوا في فرنسـا لم يكن رجـلاً مميّز الشـخصيّة. لا يهـم، إن كان عليهـم أن يظـلاّ جاثميـن علـى عروشـهم، حيث هما الآن، فسـيتحتّم علـى الملك كريسـتيان أن يتنافس معهم على

(1) Dover: مدينة ساحلية تقع جنوب شرق إنجلترا وتطلّ على بحر الشمال. (المترجم)

الممالك التي تقع في العالم الجديد، التي بسطها كولمبس تحت أقدام أوربا: سفينة، سفينة. فللشمال حصّته المستحقّة وينبغي أن ينال حصّته. من هناك ستجري الأموال والسلطة الجديدة والسفن الجديدة، الجديدة. ينبغي على الشمال أن يمضي أبعد، بِبُعد العوالم التي يتوجّب عليه احتلالها.

نعم، لكن يقين الملك تلاشى حالما أبصر أرض «يولاند» ثانية. لم يكن هنالك من ضوء على الساحل، والعبّارة تمضي قريبة من الأرض، حتى أنّ الساحل وقلعة «هونبورغ» برزا فجأة للعيان في تلك الليلة الرماديّة. كانت اليابسة مدثّرة ببقايا جليد متناثر، غِربان وزِيغان تحلّق ناعقة من أعالي الأشجار العارية. في القلعة كان كلّ شيء مطفأً، الليل يجثم ثقيلاً ورطباً فوق كلّ شيء.

كان وقع مشهد الساحل الراسخ على الملك مثل لطمةٍ. شعر بحجم حقيقة كون هذا البلد في عصيان. حقيقة لا تقبل المزاح. ولأنّ الوضع الميؤوس منه قد تجلّى له ذات مرّة بما فيه الكفاية فإن السبيل قصيرٌ الآن لاستعادة ذات الإقرار المرّ من جديد. كان هنالك ما يكفي من الإنطباعات، الذكريات التي أعانت على إحباط الملك، خبرات كلّ تلك السنين التي كان فيها على رأس السلطة. مِحَنٌ لا نهائيّة، خيبات، حسابات يوميّة وتوتّرات على امتداد سنين عشر. إحتلّ السويد مرّتين بحدّ السيف، وكلّفه ذلك غالياً وبصورةٍ لا تعوَّض في مختلف المجالات، وأين أوصله ذلك الآن؟ من أجل الدنمارك ضحّى بقدراته إلى أقصاها، ليلاً ونهاراً، وكان شكرهم له هو الإطاحة به مثل عَشّارٍ محتال. هل كان هنالك ما يمكن فعله مع هذا الشَّعبِ الحَرُون؟ في كلّ مزرعة من مزارع مملكته الممتدّة ثمّة عناد، في كلّ رجل كان ثمّة قِصَر نظرٍ يجب عليه أن يحاربه أو يخادعه. كلّ شيء كان من أجل هدف لا

أحد يمكنه أن يراه. كانت معركة غير متكافئة. لم يكونوا سوى مجموعة من الرؤوس المتصلّبة، وحده كان صاحب الأفكار الملوكيّة. كانت معركة ضدّ السلاحف. أمّا الآن، فالواطئون والمسحوقون، أولئك الذين أراد الرفع من شأنهم، لا يرون أبعد من لحظة الحاجة، ها هم الآن يغادرون أكواخهم من «سكاجن» إلى خليج «فايلا» بفؤوسهم ومَذاريهم لأنّه رغب بوضع ضريبة عليهم من أجل إنقاذ المملكة. كلاّ، لم يكن في الإمكان فعل شيء. الرؤوس الصغيرة والرقاب الغليظة منتشرة في كلّ أنحاء الدنمارك، قلوب مُغلَقة وجيوب، عنجهيّة، فجاجة، غباء.

ما أن ربط النوتيّة العبّارة إلى الرصيف وشرعوا بمدّ القنطرة للنزول حتى أمرهم الملك بالإنصراف عن الأمر والإبحار نحو جزيرة «فين» من جديد. كان صوته خائراً، لكنّهم حين تباطأوا صبَّ عليهم جام غضبه. ساد صمت الموتى بين مرافقي الملك. وفيما أبحرت العبّارة للمرّة الثانية نحو «فين» لم ينبس أحد ببنت شفةٍ هناك.

حين وصل الملك إلى «ميدلفارت» غادر العبّارة على وجه العجلة ومضى صاعداً نحو أقرب منزل. كان الوقت منتصف الليل، فطرق الباب على الناس، إرتباكهم كان شديداً. طلب الملك قضاء الليل عندهم، وحين تمّ تهيئة المنزل لذلك جُلبت إليه شمعة فجلس ليكتب. رغب بأن يقوم بمحاولة أخيرة فكتب رسائل إلى العديد من المحرّضين على العصيان. القرف الذي أصابه من الدنمارك ومن الوضع كلّه الذي كان فيه حينما أبصر ساحل «يولاند» زال عنه في نفس اللحظة التي قرّر فيها أن يعود من هناك إلى «فين». حينما أكمل كتابة الرسائل في «ميدلفارت» شعر بالهدوء وغمر قلبه أملٌ سرّيٌّ.

تناول الملك قليلاً من الطعام مساءاً مع أمبروسيوس مُجلِّد الكتب الذي كان برفقته تلك الليلة. تحدّثا بحيويّة لساعةٍ، الملك أصبح

متحمّساً ونسي أمبروسيوس كذلك نفسه. كان ضدّ كلّ شكل من أشكال المفاوضات وأراد دفع الملك لحشد الجيوش في الجزر والشروع بإبادة الكلاب الحقيرة في البلاد. كان أمبروسيوس يرتعد عند التفكير بالغوغائيين الدنماركيّين.

«نعم، نعم، نعم»، قال الملك مقرّاً بصواب كلامه. لكنّه كان زائغ النظر، غير مُصغٍ. دخَّنت الشمعة فوق الطاولة في الصالة المتواضعة الغريبة. كان الوقت بعد منتصف الليل. مضى الملك نحو النافذة وفتح مصراعيها مستطلعاً حالة الطقس، كان الليل كما هو، رطباً وملبّداً بالسحب.

«نعم»، قال الملك ملتفتاً إلى النافذة، دار بضع دورات حول نفسه، بعدها توقّف ونظر إلى الأعلى، هزّ رأسه، لقد انتهى من قراره. أمبروسيوس، مجلد الكتب، كان متحجّراً.

«سننحدر إلى هناك، هذا هو قرارنا»، قال الملك في صوت عميق. بعد نصف ساعة كانوا في عرض البحر.

وكان تصميم الملك لا مفرّ منه. فكّر مستشرفاً على امتداد الطريق نحو «يولاند»، كان في فكره يخبّ بجواده متجهاً إلى «فيبورغ»، لأنّه اتخذ الآن أثقل القرارات وأصعبها على الإطلاق، أن يعقد صفقة! نعم، سوف يتخلّى عن حقوقه في سبيل الهدف النهائيّ. وسيمكنه الإنتظار لحين استعادة السيطرة فيها... سيدعو الطبقات الرفيعة للإجتماع في مجلس نوّاب «فيبورغ» ويعدهم بالإمتثال وتنفيذ ما يرغبونه.

فيما كانت العبّارة تكدّ شاقة طريقها فوق الماء كان الملك ينهمك أكثر فأكثر في هذه الأفكار. وفقط \الآن أدرك حجم الخطأ الذي اقترفه ذات مرّة في ستوكهولم حينما ضرب ضربته. لم يكن إثماً، ليس بغلطة، كان أمراً يتوجّب فعله... لكنّه كان عملاً غير صائب مع ذلك لأنّ عواقبه

أضحـت وخيمة جـداً ومدمّرة. لقد نسـي أن يأخذ بالإعتبـار آراء أتباعه، تلك حقيقة رغم كونها خرقاء. مـن الآن فصاعداً عليه أن يأخذ بالإعتبار أيضـاً نزعة الإنتقام عند صغـار الناس، الغباء والجهل، مثلما حين يسـدّد المرء فوق الهدف وفقاً لمسـار سـقوط السـهم. سـوف يتفـاوض مقدّماً تنازلات! إذا اسـتردّ سلطته من جديد ستكون فرصة مناسبة لتقليص عدد الرجال الطيبيـن الذين سـيحظون بامتيازاتـه، مخمّناً عددهـم بمائة رأس دنماركيّ، إنتقاها بنفسه، وسيذعن لها.

لكنّ الملك لـم يمكنه إجتياز المضيق. في منتصـف الطريق أصابه الوهن. شعر بثقل كبير في فؤاده، إستولى عليه الإرهاق والإرتباك. حينما وصلوا تقريباً لساحل «يولاند» أعطى الملك أمره بالعودة من حيث أتوا، أراد التوجّه نحو «ميدلفارت» والنوم بهدوء بقية الليل على الأقلّ.

لذلك أبحـروا باتجاه «فيـن». نعم، لقـد كان هو الـذي يغير وجهة إبحاره. وفيما كان يرتعد محطّماً، خائباً ومهزوزاً بشدّة، أصابه الرعب من حيرتـه المهلكة. أدرك، فيمـا كان يمخر البحر جيئة وذهاباً، كم يسـتحيل عليه إتّخاذ قرار حاسم بالتوجّه صوب إحدى الضفتين. كان الشكّ يخبط بعنـف في قلبه، لقد لمسَ ذلك، وما زال يكبر في دواخله أكثر فأكثر. لم تعد القضية بذاتها هي محور شـكّه، كلاّ، بل كان شـخصه بالذات. أقدار المملكـة، تحـرّكات الجيـوش، الحرب والحـرب المضادّة، تضـاءل كلّ شيء وأصبح قضية في ذهن الملك، وكان هو مدركاً لذلك. هكذا أطاح الشكُّ بالملكِ أرضاً ولـم يترك منه شـيئاً حيّاً غير بقيّةٍ من إنسانٍ محمومٍ، مرتبك.

ومرّة أخرى عاد الملك على أعقابه مُبحِراً حينما أبصر الأضواء في «ميدلفارت». لأنّه حينما أدرك مدى حيرته، أصبح مستنزَفاً وعاجزاً، خالياً من الأمل نهائياً، حتى أنه شـعر بضربٍ من الهدوء يحلّ عليه، ضرب من

الشكّ. أصبح متأكداً من شكّه، وهذا التأكد كان حاسماً، حتّى أنّه بشكل غريب معكوس أمسك بالأمل من جديد.

مع ذلك فقد تلاشت قواه. وحينما اقترب من «يولاند» أدرك بأنه لن يكون رجلاً في الدنمارك مُستقبَلاً، لأنّ الدنمارك جعلت منه شخصاً شكّاكاً. كان عليه أن يهجر البلاد، مثلما يهجر الإنسان إمرأةً شهدت هزيمته. فأبحر عائداً إلى «فين»، عليلاً من الحزن والألم.

لكنّ العبّارة لم تكد تجتاز منتصف المضيق قبل أن يتوجّه الملك نحو «يولاند»، الدنمارك، مثلما يتوجّه الإنسان نحو امرأة شهدت عجزه. لأنّ على الإنسان أن يستدعي نهوضه من المكان الذي هزم فيه. يمكن للإنسان أن يهزم الأرض كلّها، لكن قبل ذلك عليه أن ينتصر ثانية في المكان الذي شهد هزيمته، وقبل ذلك لن يعرف للإنتصار طعماً. جعلهم الملك يعودون ويبحرون باتجاه «يولاند»، لكنه كان متعَباً ومذعوراً، كان في غاية البؤس الذي يمكن لإنسان أن يكونه.

تلك كانت ليلة قنوط الملك كريستيان.

لقد حطّمته. أبحر جيئة وذهاباً حتى مطلع الفجر. وحين بزغت الشمس كان على جانب جزيرة «فين»، وهناك بقي، لأنّه بالصدفة كان هناك.

كلاّ، لم يكن الأمر صدفة. ولم تكن قد بزغت الشمس التي وضعت نهايةً لحيرة الملك المفجعة. كلاّ، كان مكتوباً أنّ الشكّاك، دائماً، دائماً سينتهي مهجوراً، سينتهي بترك القضيّة التي كانت موضوع شكّه تسقط.

الكنز

فـي عام 1523 قصد أربعة من المرتزقة الألمـان أحد التجّار اليهود في أمسـتردام وأبرزوا له وثيقة كانـت مكتوبة بالعبريّـة، تقضي دفع ثلاثة آلاف قطعـة ذهب. كان الطلب حقيقيّاً لا غبار عليه، وكان التاجر يحتفظ بالمال في أمان، لكنه جادل في أنّ الأموال، وفقاً للوثيقة، ينبغي أن تُدفع بالتحديـد إلى أكسـل أو أبسـالون، حفيد مندل سـباير الـذي أودع المال عنده.

أوضـح المرتزقة مـع ذلك أنهم قـد حصلوا علـى الوثيقـة من فتاة إسمها لوسيا، وهي بدورها قد حصلت على الوثيقة من المالك الأصلي. بعد أوضحوا الأمر إدّعوا إنّ الأموال ينبغي أن تدفع لحامل الوثيقة.

حيـن امتنع التاجـر عن تسـليم المال رفعـوا القضية إلـى المحاكم التي أعطتهم الحـقّ، فدفع إليهم المبلغ الكبير ثلاثين ألفاً من ذات القطع الذهبية المنقوشة التي أودعها مندل سباير في زمنه عند التاجر.

تقاسم الجنود النقود وسافروا أثرياءً كلاّ لوجهته الخاصّة.

إقتنـى أوّلهـم، حالمـا اسـتلم حصّته مـن الكنـز، عربة ثيـران لنقل البضائـع، قادهـا برويّـةٍ وقُتل فـي الليلـة ذاتها في قريـة تبعـد ميلين عن أمستردام.

الثاني عجّل بالعودة إلى موطنه عند نهر الراين ودفن كل النقود في موضعٍ هناك، مات وحيداً في بؤسٍ شـديد دون أن يسـتخدم قرشاً أبيض منها.

الثالث قامر حدّ الإملاق في «تورينو» بعد مضي ثماني سنين.

الرابع لم يحالفه الحظّ أيضاً، مات من الغِنى، حفلات وتبذير وهو في السابعة والتسعين من العمر.

أمّا أكسل فقد كان يرقد ميتاً بهناءٍ في مقبرة «جروبولا».

إينغا

كانت إينغا مفعمة بالحزن، تعصر يديها وتنوح على خطيبها ليلَ نهار. تحدّق باكيةً عبر الخليج باتجاه «هيمرلاند» من نافذة حجرتها كلّ ليلة. كانت الليالي ساطعة، السماء مشرعة على مصراعيها طوال النهار والليل.

إينغا كانت مفعمة بالحزن. سمع أكسل نواحها وهو في قبره بمقبرة «جروبولا»، حينها رفع رأسه المرهَق من تحت التراب الرطب وانتصب واقفاً. كانت الريح شديدة العصف في فناء المقبرة المفتوح، بين القبور ثمّة جوادٌ أكتَع يخبّ منذِراً بالويل والثبور، صاهلاً بصبرٍ وراءه، لكنّ أكسل مضى عبر البوابة وتابوته على عاتقيه.

سار مجتازاً المروج باتجاه الخليج، منهكاً، منهكاً، عبر ليالي الدنمارك المنيرة. السماء كانت بيضاء وصفراء، والأرض ترقد مدثّرة بالغسق. الخليج يضيء، الجروف تمطّ نفسها حول «سالنج» باطمئنان.

في أقاصي المروج كان ثمّة رجل ميّت يسير في دائرة، يقف ساكناً ويتطلّع في غمٍّ نحو أكسل إلى أن غاب عن ناظريه مع تابوته في الطريق المغمور ليواصل بعدها الدوران في وحدته من جديد.

خبّأت الشمس قرصها تحت الأرض في الشمال، حيث السماء ما زالت صفراء. الريح تهبّ محمّلة بقطرات الندى وشذى الزهور الثقيل، الناميات كلّها تغفو حالمةً بالخصب.

وصل أكسل إلى «فالبسوند» ورأى كيف تتابع الأمواج بعضها بعضاً

بإخلاصٍ هناك، واصل سيره دون توقّفٍ حتى وصل إلى «كفورن».

توقّف وهو في كفنه أمام باب حجرة إينغا وطرقهُ، كان في غاية الإرهاق.

«إنهضي يا إينغا، دعيني أدخلْ».

سمعت إينغا الصوت لكنّها ظلّت مضطجعة وهي تصغي. صفرت الريح بنعومة في ثقب الباب. ربّما لم يكن ذلك سوى الريح المشرَّدة تناشد خارجاً؟ بعدها نقل أحدٌ ما خطواته على عتبة الباب في الخارج ثمّ قرع الباب بلطف.

«إنهضي يا إينغا، دعيني أدخلْ».

نهضت ودموعها الساخنة تنهمر وشرعت في نحيبٍ لا يمكن التحكّم به. لكنّ الذعر أصابها فتأنّت. كانت تفكّر فيما لو أنّه كان أكسل.

«أتستطيع التلفّظ باسمِ يسوع؟»، سألت باكيةً من الداخل. «حينها سأفتح الباب».

«نعم أستطيع»، أجاب صوت أكسل. «نعم، أستطيع التلفّظ باسم يسوع تماماً مثلما كنتُ أفعل من قبل. باسمِ يسوع، يا إينغا، دعيني أدخلْ».

فتحت الباب مرتعشة ورأته واقفاً في الخارج يرزح تحت تابوته الأسود في رداءٍ طويلٍ مهلهل، رأت أنّه كان أكسل فعلاً.

لكن حين جلسا مع بعضهما لم يكن عند أكسل ما يمكن قوله لتعزيتها وتسكين روعها. أجهشت إينغا بالبكاء بكلّ ما فاضت به جوارحها، كان فمها مفتوحاً، التأثّر هزّ فؤادها. بكت إينغا طويلاً وبإصرار، أيقظت اللذّةُ القاهرةُ في الحزن كلَّ قواها، حتى أنّها لتكاد تتحطّم.

الليلة كانت هادئة، لا شيء سوى عصف الريح. بكت إينغا، بكت، كانت في منتهى النشوة، وها هي الآن تمشّط شعر أكسل. كانت تواصل بكاءها، لكنّه بكاء تتخلّله الضحكات. كان شَعر أكسل بارداً، رأسه كان بارداً مثل شاهدةٍ في حقل.

«شَعرُكَ مليءٌ بالتراب والرمل»، قالت إينغا بسعادة وعيناها مغرورقتان بالدموع. «ثمّة حصى صغير على قفا يديك».

قلب أكسل يديه الميّتتين متفكّراً. نعم، ويوجدترابٌ في فمه أيضاً.

«يا لكَ من باردٍ!»، صاحت إينغا، وجشَّ صوتها من شدّة القشعريرة التي دبّت في أوصالها من أخمص قدميها إلى قمّة رأسها. شعرت بالإرتياح، بكت وضحكت، ثمّ أخذت تشهق. ظلّت تمشّط وتمشّط، فيما كان أكسل يحني جبهته باتجاه حبيبته.

الليلة كانت هادئة، التوهّج الأصفر المنبعث من الشمال يجلّل ألواح النوافذ. الريح تهدهدُ في الخارج.

«قُلْ لي، كيف يبدو قبرُكَ تحت التراب الأسود؟»، سألته إينغا بمحبّةٍ، مفعمة بالقلق والإشفاق. كانا يجلسان سعيدين معاً في تلك الليلة الحميمة، في حجرة ساطعة. «ولماذا تصطحب تابوتك معك؟».

«أصطحبُ تابوتي معي لأنني بدونه سأكون مشرّداً، فهو بيتي»، ردّ أكسل بصدق. «أنا سعيدٌ في قبري. أشعر بالسعادة حينما تشعرين بالسُّلوان، يا إينغا. حينما تغّنين وتكونين سعيدة، حينها أنسى همومي. بلى، تابوتي مليء بالورد، أغفو على الورد في عتمة الفردوس. مدهش أن أستريح في التراب، حينما تغنّين في صالتك وأنتِ سعيدة».

«دعني إذن أجيء معك!»، توسّلت إينغا تحت عاصفةٍ من البكاء. «خُذني معكَ تحت التراب».

«حيـن تحزنين وتندبين، يـا إينغا، حينما تبكين، يفيـض تابوتي بدمٍ كثيـف! حينها يصبح القبر مرعبـاً. عزيزتي إينغا، لمـاذا تتوقين لي؟ على الموتى أن يظلّوا مدفونين، لماذا تندبينني؟ أنا مَيْت، لماذا تحبينني؟».

قال أكسـل ذلـك بصبرٍ وبقـوّة الفصاحة التـي كان يحملهـا، فلقد نمت حكمته إلى ما لا يقاس، كان صوته أجشّـاً مـن كثر تجاربه التي لن تستعاد.

«ألن تقبلني؟»، همسـت بصوت لا يكاد يسـمع، أدنت نفسـها إليه وهي ترتجف. ظلّ جامداً في مكانه لا يتحرّك. حينما رغبت ببثّ الدفء فيه ألصقت قلبها على قلبه محاولة إشـعاره بالحنـان، لكنّه لم يكن حيّاً. نادته باسـمه في وهنٍ معتقدة أنّه قـد أغمي عليه لكنّـه كان راقداً يقظان، نعم، لقد كان ينام مستيقظاً.

ومضى الليل.

«صـاح الديك الآن معلنـاً النهار»، قال أكسـل. لكن إينغـا لـم تكن تريده يذهب.

«أضحـت السـماء بيضـاء الآن، علـى جميـع الجثث أن تعـود إلى التراب»، قال أكسـل شـاعراً بالاضطراب. لكنّ إينغا أراحت رأسـها عند قلبه الميّت.

«صـارت الآن ألـواح النوافـذ حمر، الشـمس تسـطع قريبـاً»، قالها أكسل متعلثماً بصوت خالٍ، ممحوّ الرنين. «عليّ الآن أن أعود إلى باطن الأرض».

لكـن بعد أن ذهب أكسـل بقيت إينغا فـي حيرة شـديدة، حتّى أنّها نسـيت وصيّتـه، هرولت وهـي تعصر يديهـا خلفه ولحقت بـه في جوف الغابـة الظلمـاء. تبعته تبكي عنـد كلّ خطوةٍ حتـى خرجا مـن الغابة عند السـاحل المفتـوح. حينهـا رأت أكسـلَ يتلاشـى، فيمـا كان الـدم والماء

يتدفّقان من فمه.

«خذني معك!»، توسّلت إليه مضطربة من الأسى والرعب، فأخذها معـه فوق المضيق الذي كانت مويجاته تضيء. كانت السـماء تلتهب من جهة المشرق فيما كانا يسيران فوق المرج.

وحيـن توقّفا في سـاحة المقبرة، وارتفعت الشـمس، رأت إينغا في ضوء الفجـر السـاطع أنّ عيني أكسـل تلاشـتا، إضمحلّ خـدّاه من على عظـام الوجنتين، وتفتّتـت قدمـاه العاريتان اللّتـان كان يقـف عليهما من خشونة الأرض.

«مـن الآن لـن تبكـي علـيّ أبـداً»، قـال أكسـل لمعشـوقته منهَـكاً وقشعريرة في صوته.

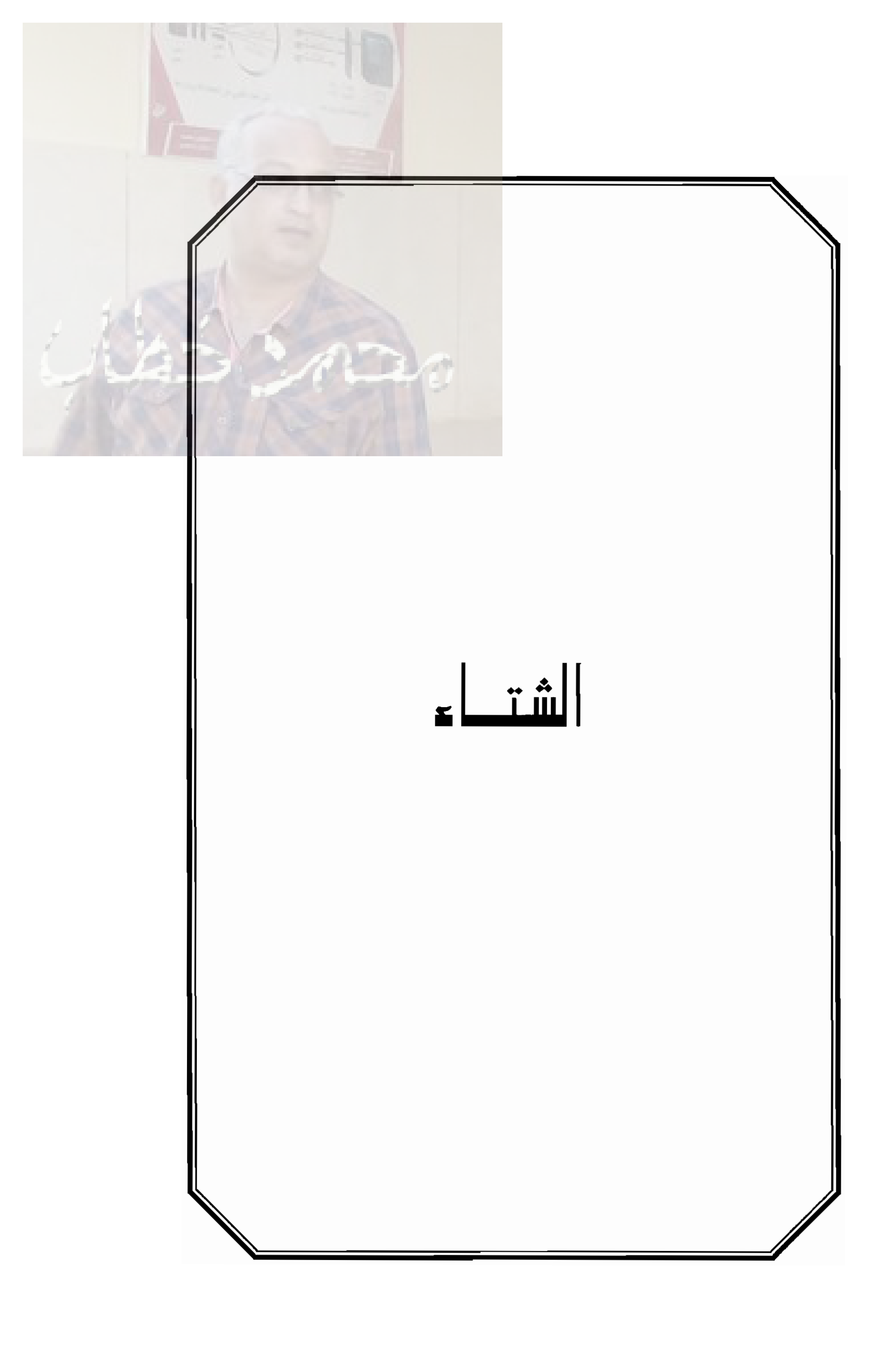
«لا تبكي دائماً علـيّ!»، ترجّاها في إلحـاحٍ، إلاّ أنها لم تكن قادرةً على تركه.

ضحك أكسل بهدوء.

بقي واقفاً هناك قليلاً في غمرة تفتّته، في سلطانه.

«أُنظـري إلى السـماء»، قال ضاحـكاً برقّةٍ مليئةٍ بتـوقٍ لا حدود له، نعم ومليئـة بالتوق، كان منهكاً حـدّ الإعياء وتوّاقاً إلـى الأرض. «أرأيتِ كم كانت الليلة سعيدة!».

حدّقت إينغا في الفضاء باتجاه النجوم الشاحبة، فيما الرجل الميّت كان يهبط لباطن الأرض، ولم تره بعدها ثانية.



الشتــاء


محمد خطاب

العودة إلى البيت مرّة أخرى

وصل كهلٌ إلى أعالي الهضاب جنوب «جروبولا» يعتمر قَلَنسُوة الحَجِيج على رأسه وثمّة صَدَفة مَحارة معلّقة في خيطٍ حول عنقه. طوى ذراعيه حول عصاه وبقي واقفاً لوهلةٍ محدّقاً نحو الوادي، ذراع المضيق والتلال الخفيضة. كان مايكل ثوجرسن.

عاد إلى البيت من جديد. كانت البقعة كما هي لم تتغيّر لكنّها أضحت أشدّ انخفاضاً كما تراءت له. كان ذلك في سبتمبر، الشمس تشرق بفتور. العصافير والزّرازير تطير في أسرابٍ حول بيادر القمح في البلدة التي على الجانب الآخر من الوادي. عند أسفل مجرى الجدول يقع مسقط رأس مايكل. رأى أنّ منزلاً كبيراً جديداً قد بُنيَ جنباً إلى جنب مع المنزل القديم. وكانت ثمّة حقول لم تكن قد فُلِحت من قبل، تتصاعد على امتداد الجروف. أمازال نيلس حيّاً؟ فكّر مايكل.

نعم، ما زال نيلس حيّاً إلى الآن، لكنّه أضحى رجلاً كبير السنّ. صادف أن كان نيلس لوحده في الصالة حينما قدم مايكل، كان جالساً عند نهاية الطاولة نعسان وشعره الأشيب يتخلّله القشّ والهَشيم، كان قد استيقظ لتوّه من قيلولة منتصف الظهيرة. تحاشدَ الذبابُ على حافّة قدح شراب الشعير وحلّق يئزّ في الهواء حينما دخل مايكل.

حينما أبصر نيلس أخاه في ثياب الحجِّ رسمَ علامة الصليب على صدره دون أن يفوه بكلمة. إستولت عليه المفاجأة بطيئاً وشيئاً فشيئاً أخذ يشعر بالسعادة. جلس مايكل هادئاً، تحدّثا قليلاً بصوت خافت كي

لا يشوّشا هدوء المنزل.

«الصبيـان هنا وهم نائمون»، قـال نيلس. «مرحباً بـك يا أخي! هل أنـت تعبان؟ نعم، ينبغـي أن تكون كذلك. هل أنت عطشـان؟ يا للذُّباب البشع! لحظة واحدة».

سـكب نيلـس جِعَـةً طازجـة وجلـس ثانيـة للحديـث. كان مفعمـاً بالسـعادة في أعماقه، علامات الأسـئلة والتعجّب تتبـادل مواضعها على شـفتيه بذات الشـكل الغريـب الأخرق الـذي كان يتميّـز به دائمـاً. لكنّ عينيه، بالمناسـبة، أصبحتا أكثر حيـاةً في نظرتهما وأكثر تحـرّراً من ذلك النيلس الذي يذكره مايكل مـن الماضي، لكنّه بالتأكيد صار كذلك رجلاً معتمداً على نفسه في هذا المكان منذ عدّة سنين.

«نعـم، العجـوز قد رحـل الآن، أبـاك وأبـي»، قالها نيلس فـي نبرة خافتـة حينما خطر الأمر ببالـه. «ليس قبل بضعة أسـابيع من وجودك في البيت ورؤيتك إيّاه تلك المرّة، حتى حملناه ليرقد بسـلام. كان ذلك منذ اثني عشر عاماً، نعم، لقد كان رجلاً عجوزاً».

لم يقل مايكل شـيئاً. الذباب يطنُّ ويدبّ فوق الطاولة المثلّمة. «لم أكن لأتصوّر أنك سـتلجُ بابنا مـرّة أخرى»، ضحك نيلـس وتجنّب نظرة مايكل، لكنّه حدّق فجأة نحو أخيه متأثّراً: «نحن الإثنين هَرِمنا أيضاً».

رفع مايكل وجهه إلى الأعلى مفكّراً وهزّه موافقاً.

تحـدّث نيلس عن أشـياء أخـرى حيث أصبـح أكثر حماسـة الآن. نهض من مكانه.

«لكنّك قد جئـت يا مايكل!»، قـال له. «ينبغي أن يكـون اليوم يوم الذكرى. سأنادي على الآخرين».

وقـف نيلس علـى عتبة البـاب الحجريّة ونادى بصـوتٍ جَذِلٍ على أولاده، ثلاثة أسـماء: أندرس، ثوجر، وينس. جلس مايكل داخل الصالة

ونظر حوله محرّكاً سيقانه المرهَقة. «نعم، حسناً»، تناهت أصوات أبناء نيلس من خارج الحظيرة، فقد أوقظوا على نحوٍ مفاجئ. صرخ أحدهم صراخاً حاداً لأنه استفاق خائفاً، وسمع مايكل ضحكة نيلس الخافتة خارج عتبة الباب. حالما فتح الباب المؤدّي إلى المطبخ حتى ولجت زوجة نيلس إلى الداخل. الأبناء ظهروا تباعاً واحداً بعد الآخر، كلّ يحدّق بعين واسعة نحو الحاجّ الجالس على التخت. كان ثلاثتهم فتياناً ناضجين.

«أنظروا إلى عمِّكم!»، قال نيلس مبتهجاً. تفحّص مايكل وجوه الفتيان وتعرّف فيها على ملامح العائلة جميعاً.

حضر الطعام إلى الطاولة، وفيما كان مايكل يأكل جلس جميع أفراد العائلة حوله. نظر مايكل بحميميّة نحو العائد إلى البيت وسعدَ بشهيّته في تناول الطعام، الزوجة والأولاد جلسوا بتحفّظٍ صامتين فيما كانوا يحدّقون في مايكل بلا انقطاع في فضول ودّيٍّ شديد. كان مايكل يأكل ويجيب على كلّ سؤالٍ يوجهه إليه نيلس.

«والصَّدَفة الكبيرة، ماذا تعني؟»،

«إنّها من أورشليم»، قال مايكل. «نحن نأكل منها ما يقدّمه لنا الناس خلال الطريق».

«أها، هكذا إذن»، صمت نيلس مفكّراً. نظر فجأة بحياءٍ وحنان نحو أخيه، رغب بسؤاله عن شيء لكنّه صرف النظر عنه منصاعاً لأمر لم يكن يفهمه. جلس قليلاً يفكّر.

«حسناً، نعم. ستظلّ معنا بالتأكيد لفترة من الزمن، ينبغي عليك أن تحدّثنا عن العديد من الأشياء، فقد رأيتَ الكثير في حياتك».

بعدها حدّق نيلس بثباتٍ إلى الأمام. فجأة جلس متصلّباً مُديراً ظهره إلى الجدار:

«ثمّة أمر ما يجري هنا في هذه البقعة»، قال نيلس بصوت خفيض. «لعلّك سألت عن ذلك؟».

نظر مايكل من فوق الطعام وهزّ برأسه نافياً، لكن نيلس جعله من خلال ملامحه يفهم أنّ عليهما التحدّث عن الموضوع فيما بعد. كان الآخرون يعرفون ما يرمي نيلس إليه، خفضت زوجته نظرتها إلى الأسفل فجأة وملامح الرعب ترتسم على وجهها، فيما اكتسى ثوجر، إبن نيلس الأكبر، بتعابير صارمة ويقظة مثل رجلٍ يوشك على القفز.

عند منتصف الظهيرة كان نيلس ومايكل خارجين يتجوّلان في المزرعة مستطلعين. لم يعد نيلس يعمل في مصهر الحدادة كثيراً، فلقد ابتاع أرضاً وفلحها وها هو الآن يجلس فوق مزرعة شاسعة. مزرعة «ألكر»، كما تُدعى الآن، كانت واحدة من أكبر الأملاك على ضفاف الجدول. ذات مرّة، كانا واقفين بصمتٍ في أعالي الحقل، شعر نيلس فجأة بالإضطراب لكنّه سرعان ما تمالك نفسه. التقط قشّةً من بقايا الحصاد وتحدّث بنبرة هادئة روّعت مايكل:

«نحن موشكون ومقبلون على حرب»، قال ذلك وصمت برهة زافراً الهواء بضع مرّات خارج أنفه قبل أن يواصل حديثه بصوت إعتياديّ إلى حدّ بعيد:

«نعم، أنت على غير دراية كبيرة بالوضع، لأنّك كنت خارج البلاد مدّة طويلة. بلى، ستنشب الحرب، وستشمل هذه البقعة التي نحن عليها هنا، عليك أن تصغي الآن...».

بعد ذلك شرع نيلس بتوضيح الموقف. القلاقل في البلاد قد تطورت كثيراً، قام النبلاء باحتجاز الملك وسجنوه في قلعة «سوندربورغ»، الملك كريستيان، لكنّ الفلاّحين الآن في جميع البلاد يدعون لإطلاق سراحه من جديد. يريدون أن يأخذوا القضيّة على

عاتقهم، سكّان «فندسيسل» قرّروا ذلك منذ أمدٍ طويل، كذلك في «سالنج» شرع الفلاّحون بتجميع أنفسهم.

«أمّا نحن الباقين هنا في «هيمرلاند» فلا رغبة لدينا في أن نكون آخر من يشارك»، جاهر نيلس بذلك فيما كان يحاول السيطرة على إنفعالاته بصعوبة. «لقد شرعنا في شحذِ الفؤوس».

مرّر نيلس يده فوق عينيه اللتين كانتا تلتهبان وتتنحنح بعنف.

«تعال إلى هنا، إتبعني، لديّ ما سأريك إيّاه!».

سبقه نيلس ماشياً باتجاه البيت وقاد مايكل إلى المصهر الصغير، حيث كلّ شيء كان كما هو منذ أيّام ثوجر.

«كنّا منشغلين جدّاً في الآونة الأخيرة»، همس نيلس. «لكنّ أندرس وثوجر شاطران كلاهما في استعمال المطرقة. صنعنا العديد من المناجل للناس، كما أُتيحت لنا أيضاً فرصاً للإهتمام بما نحتاجه، أنظرْ هنا الآن!».

جلب نيلس فأساً كبيرةً حديثة الطَّرْق من الزاوية. ما زالت شفرتها تعكس ألوانَ قوس القزح بعد تحميتها.

«لقد صنعنا العديد من هذا الصنف»، قال نيلس بخفوت. مدّ يده ملتقطاً واحدة أخرى.

«أنظر، هذه فاسيّ الخاصّة، هل يمكنك التعرّف عليها؟ لقد وضعتُ فيها فولاذاً جديداً».

تعرّف مايكل على الفأس، كانت لأبيه كما يذكر.

«لم يكن العجوز يريد مفارقتها»، قال نيلس. «لأنّها انتُزِعت من يدِ جَدِّي حينما سقط ميتاً على مرج «أوجورد» في إقليم «هان». كان ذلك منذ ثلاثة وتسعين عاماً خلت. حينما حارب الفلاّحون وهُزموا شرَّ هزيمة. يجب ألاّ ننسى ذلك الآن».

"ثوجر، أندرس، ينس!"، نادى نيلس بنبرة ذات سلطةٍ خاصّة وسرعان ما برز الفتية الممشوقون في اللحظة ذاتها تقريباً. حينها رفع نيلس رأسه العسير على التصنيف ووضع يده على فأس أبيه. كان الأولاد متحلّقين حوله وينظرون بتوتّرٍ نحو وجهه. لم يقل شيئاً، لكنّهم فهموا ما يرمي إليه.

خفض مايكل عينيه. لم يكن يريد أن يرى أخاه بقلبِ المحارب. كما أنّه شعر بالخِزي المرِّ في قرارة نفسه. لكنّه تذكّر الأب الذي كان رجلاً فاضلاً.

في الأيّام التالية قدمَ العديد من الناس إلى "ألكر" نيلس بأداة أو عدّة أدوات راغبين في تحويلها إلى سلاح. حدثت نقاشات حامية أثناء ذلك لكن بشكل عام كانت هادئة ومقتصرة على ما يمكن أن يحدث مستقبلاً. خرج مايكل بانطباع أنّ لنيلس الكلمة الفاصلة بين سكان المنطقة. كان هنالك رجل آخر، على أيّ حال، من أعالي "جروبولا" يدعى سورين بروك، الذي كان هو القائد المعترف به. لم يكن بمقدور العجوز ثوجر أن يكون سوى الرجل الأوّل لا غير فيما لو حدث هذا في أيّامه.

سرعان ما تنامى الإضطراب مع مرور الوقت. كلّ يوم تقريباً كان يشاهد المرء فارساً ما وهو يحلّق بجواده عبر الطريق الريفيّ، أو يصادف جمهرات من الفلاحين الذين لم يلتقهم سابقاً. هكذا كان الوقت يمرّ حتى نهاية شهر سبتمبر.

"يمكننا توفير ملابس أخرى لك بسهولة"، قال نيلس ذات يوم لمايكل وهو يفضي بما كان يشغل باله منذ مدّة طويلة. إبتسم مايكل.

"فيما لو رغبتَ أن تنضمّ إلينا". وقف مايكل وقد قُدِّم له طقم ملابس كامل.

لكـن مايكل هزّ برأسـه. وفيمـا كان يقلّب الأمر في رأسـه، خالجه شعور بأنّه كان قد هَرِم.

"كلاّ يـا نيلس"، أجابـه برصانـة. "كلاّ، لقد خضتُ معـارك بما فيه الكفايـة في أيّامي، حتى حينما كنتُ في مواضـع لا علاقة لي بها. لكنني مُتعَب الآن. هنالـك مِن الرجال الناضجين الآن مَـن كانوا أطفالاً صغاراً حينمـا بدأتُ الخدمـة كجنـديٍّ. كلاّ، إذا توجّب عليّ أن أقـوم بمنفعةٍ ما للملك فسـيكون ذلك بوسـيلة أخرى. لكن يمكنـك أن تدعني هنا لأرى كيف تمضي الأمور".

هزّ نيلس برأسه مُحبَطاً لكن متفهمٌ.

مضـت بضعـة أيّام هادئـة. كلّ شـيء كان جاهـزاً، والجميـع ينتظر فقط. كانوا يشـعرون أنّ الحرب سـتندلع من الخارج لكن لا أحد كانت لديـه الفكـرة عن الكيفيـة التي سـتصل بها إليهم. يسـرّح نيلـس كلّ يوم شـعره الناعم الرماديّ كلون الحديد بالمشـط المبلّل وكأنّه في مهرجان. لـم يعد هنالك الكثيـر من الأعمال فـي المزرعة أكثر ممـا هو ضروري. الأولاد كانوا خارج البلدة في أغلـب الأوقات برفقة الفتيان الآخرين في أعالي "جروبولا". زوجة نيلس تحوك الجوارب، جالسة طوال اليوم مثل كائنٍ يتنفّس بصعوبة، يستقيم ويتقوّس فوق التخت.

خلال تلك الايّام القليلة تحدّث نيلس ومايكل كثيراً حول الأب مع بعضهما. شـغل نيلس نفسـه بالمزرعة جيئة وذهاباً مسـتغرقاً في استذكار العجـوز ثوجـر. كان مايكل يرافقه جنبـاً إلى جنب وهو في عبـاءة الحَجّ البيضـاء مصغياً بكلّ جوارحه إلى جميـع الوقائع الصغيرة التي جرت في الزمن الفائت. ما أن شـرع نيلس بالحديث حتى تحـوّل إلى راويةٍ متوقّدٍ بدفئه الرقيـق الخاصّ، حتّـى أنّ كلّ حكايـة صغيرة كانـت كافية لتأجيج مخيّلةَ مايكل الذي من جانبه لم يتفوه بكلمةٍ واحدة تقريباً.

في الأيام الأخيرة تحدّث نيلس عن أمرٍ كان مؤجّلاً لأطول مدّة ممكنة، لأنّه يتعلّق بشخص مايكل. قبل أكثر من سنتين تقريباً حين قدم شخصان غريبان من "سالنج" وكانا يسألان عن مايكل. الأوّل كان شبه عجوز، عازف كمان سكّير يدعى جاكوب والآخر صبيّة صماء بكماء كانت برفقته. قطعة صغيرة مريضة وغريبة إلى حدّ ما. أفصح جاكوب عن أنه أخذها لأن ما من أحد غيره كان راغباً في ذلك. كانت إبنةً لفتاة إسمها إينغا ولرجل كانت له - ربّما - منزلة معينة، إسمه أكسل وقد مات مقتولاً، يقال أنّ جثمانه يرقد الآن في مقبرة "جروبولا". الآن يرغب جاكوب بمساعدة الصبيّة الصغيرة في العثور على قريبٍ لها يمكنه أن يعتني بها. أمّا لماذا كان يسأل عن مايكل فلأنّه...

هنا قطع نيلس حديثه وحدّق في أخيه وكأنّه يريد أن يجعله متهيّئاً لما سيقوله له.

"نعم، آنا ميتا قد توفّيت"، قال له بعطف.

لم يحرّك مايكل ساكناً. كانت ضربة موجهة له، لكن كما لو كان في انتظارها مئات السنين، ولم يتأذّ منها. كان يعرف ذلك، أو لعلّ هذا الجزء من إدراكه كان ميتاً.

"نعم"، واصل نيلس حديثه أخيراً. "وكان ذلك منذ مدّة طويلة، فقد مضى على موتها الآن عدّة سنين. لكنّني أعتقد أنّ عليّ أن أقول لك الآن ما الذي جاء العازف من أجله. لقد أوضح لي أنّ الفتاة، التي تدعى إينغا، إنّما كانت إبنتك من آنا ميتا. إنتَ إذن الآن جَدُّ الفتاة الصغيرة التي كان يصطحبها جاكوب معه. قال أنّ اسمها: إيدا. كانا هنا لبضعة أيّام ثمّ رحلا، لا أعرف إلى أين".

صمت نيلس تاركاً لمايكل لملمةَ نفسه، وبما أنّ مايكل لم يفصح بشيء فقد واصل نيلس حديثه:

"فالقضيـة، كما تـرى، هي أن سـتيفن من "كفورن" لـم يكن يحب إينغـا، إبنة زوجته، رغم أنّـه كان يعاملها بإنصاف كمـا يفعل الأب. لكنّ الأمور سارت بشـكل سـيءٍ معها، فالرجل الذي حَظِيَتْ به - والذي لم يكن الناس يعرفون من هو - قد لقي حتفه. نعم، لقد قضى نحبه...".

صمت نيلس وتنهَّد عدّة مرّات قبل أن يكون بمسـتطاعه الإستمرار في الحديث:

"قبيـل أن يحظيا ببعضهمـا تقريباً، أمّـا هي فقد توفّيت على سـرير الولادة. كان ذلك عنـد ولادة إيدا. لكن بما أنّ آنا ميتـا كانت قد توفّيت أيضـاً فلـم يعد سـتيفن يرغـب فـي رعايـة عائلتهـا الفرعيّة. وهكـذا فإنّ جاكوب العازف تولّى رعاية إيدا".

صمت نيلس.

"يمكننـا بالأحـرى الإنتظـار حتـى رؤيـة سـتيفن مع جميـع أولاده حينمـا يحين الوقـت"، أوضح نيلس بعد ذلك بقليل مغيّـراً فكرته. "لديه سـتّة أولاد مع آنا ميتا، إضافة إلى بعض البنات، بُلْهٌ كبارٌ جميعهم وبعمر أبنائي".

كانـا خارجـاً في الحقـل عندمـا حدّثه نيلـس بذلك. الظـلاّم خيّم. الآن صمـت الإثنـان كلاهما مدّة طويلة. سـار مايكل ورأسـه مخبوء في القلنـ[illegible]. مضى نيلس عبر الحقل ليدفع ببعض الخراف. حينما عاد ثانية وقف صامتاً بجوار مايكل ورغب أن يقول شيئاً غير أنّه لم يستطع.

"ماذا تريد أن تقول، يا نيلس؟"، سأله مايكل بحدّة.

"لقد سـمعتُ كلامـاً"، تردّد نيلـس وهو يتحدّث فـي صعوبة بالغة. "إن كان ذلك حقيقة، بالطبع لن تغيّر من الأمر شـيئاً بالنسـبة إلي. لكنّني أريد التحدّث عن ذلك، إذ قد يقيّض لنا أن نفترق. الناس في "جروبولا" يقولـون إنّ مَن قتل أكسـل ذاك هو أنـتَ - صِهْرك الشـخصيّ بطريقةٍ أو

بأخـرى – لكي تسـتولي على نقـوده. لقد كنـتَ متواجداً علـى كلّ حال فـي المنطقة ذاتها تلـك الأيّام، لكنّني لـم أرك تأتي إلـى منطقتنا. هل هذا صحيح يا مايكل؟".

"نعـم"، أجاب مايكل بذات الهدوء والإسـتخفاف الذي كان نيلس يعرفه عنه منذ الزمن القديم، والذي ينحني له الآن أيضاً على الفور.

"إذن قـد تكون لكَ أسـبابك"، قالها بصوت خافت ومسـتريح. "لا أريد التدقيق في ذلـك، لكن كان ينبغي عليك ألاّ تطـأ عتبة بابي. هنالك أمور كثيرة لا يمكن لي ولأشـباهي فهمها. دعنـا نذهب إلى البيت ونرى ماذا أعدّت الزوجة للعشاء".

حينمـا كانا واقفين خـارج البيت المعتم همسَ لـه نيلس على وجه السرعة:

"إذا قيّـضَ لك أن تعيـش من بعدي، يا مايكل، فسـيكون عليك أن تضع عينك على الذين هنا".

"بلى"، أجاب مايكل بصوتٍ موحشٍ. ثمّ ولجا إلى الداخل.

الديك الأحمر

في ذات الليلة أبصر الناس في «جروبولا» المَزارعَ وهي تشتعل في أعالي «سالنج».

لكنّهم لم يعرفوا حتى الآن ما الذي يجب أن يفعلوه. عند منتصف الليل لمحوا المشاعل تتحرّك عند المضيق، وبعدها بساعةٍ رَسَت ثلاثة زوراق كبيرة محمّلة بمسلّحين من فلاّحي «سالنج» عند «فالبسوند». تقافزوا من على مراكبهم إلى الضفاف مطلقين صرخات صاخبة، كانوا يقهقهون وينشدون، العديد منهم كانت تعوزه الرصانة. لكن حينما سمع فلاّحو «هيمرلاند» صيحات أناس من طينتهم يصهلون ويخورون أخذت الدماء تغلي في رؤوسهم أيضاً.

أخذت الأجساد تهيج وتجيش في عتمة الظلام على ضفّة الساحل. ستيفن من «كفورن»، الذي كان يقود أهالي «سالنج»، إصطحب معه سورين بروك كمستشارٍ له. ودون أن يعي أحد منهم كيف حدث ذلك تحرّك الجمع كتلةً واحدة، ثمّ زحف الفريقان المتّحدان جميعاً باتجاه الريف.

بقي مايكل في البيت بالمزرعة. إضافة إليه كانت هناك زوجة نيلس فقط، لكنّها ذهبت باكية نحو الفراش. مضى مايكل صاعداً فوق الرابية. الحرائق الأربع في أعالي «سالنج» تتصاعد وتنخفض. لكن أحد الأماكن كان فيها الإشتعال على أقصاه حتى أنّ بصيص اللهب ظلّ يخفق على امتداد الطريق المؤدّية إلى المضيق. أبصر مايكل الجملونات

البيض المواجهة لجهة الغرب في أعالي «جروبولا» تضيء وتأتلق بسبب إنعكاس لهب الحرائق عليها. عدا ذلـك كانت الليلة هادئة. لكنّ الطبيعة أخذت في استعراض جانبها الوحشـيّ، فالإنعكاس الملتهب على الماء والغيوم كان مُروِّعاً. في هذه الليلة ستُقلب العديد من الحسابات الخاطئة الدمويّة رأساً على عقب.

كلّ الأصوات المنبعثة من حشـود الرجال خفتت. لكن مايكل ظلّ يشـعر بالمدى الـذي وصلوا إليه. وبعـد أن إنقضت سـاعة على رحيلهم عرف أنهم قد اقتربوا من «موهولم». أرهف السـمع باتجاه المزرعة لكنّه لم يسـتطع الإمسـاك بأيّ صوت. بعد عشـر دقائق من الإفتراق إسـتطاع أن يميّـز ومضة قانية من خلال الظلام في البقعـة التي تقع فيها المزرعة. إشتعلت بسرعة، ضرب سـيف اللهب المقوّس عالياً في الفضاء. سرعان ما أبصر ألسـنةَ اللهيب تتقافز من خلال النوافذ، أضحـت المزرعة مرئيّةً في غمرة الوهج الذي كانت تغذّيه، تصاعد الدخان كثيفاً، أسـوَد مخضرّاً في الليل. وبدون أي صوت يُسمع.

بعدها جلـس مايكل وبدا الوقـت وكأنّه بلا نهاية بالنسـبة إليه. بعد قليـل شـعر بالنعاس يـدبّ فـي عينيه فانحـدر نحـو المنـزل ومضى إلى الصالـة وألقى بنفسـه على التخـت. كان الفجر قـد بزغ حينما اسـتيقظ. زوجة نيلـس ما زالت مضطجعة وتبكي تحت الدثـار. مضى مايكل نحو الرابيـة فرأى مـن هناك أنّ النار قـد حوّلت «موهولم» إلى هشـيم. دخان عظيـم ينبعـث مـن الأرض وثمّة ما يشـبه الهالـة الحمراء بلـون النحاس كانت تحلّق محيطة بالخرائب كلّها، بقايا جدران حالكة ومتشظّية ظهرت هنا وهناك مـن خلال الدخان. كانت لحظات الدقائق الهادئة التي تسـبق الشـروق. الدخان ينتشـر على امتداد الجـدول والوادي ثـمّ يزحف بطيئاً باتجـاه الغـرب. حينما اسـتطاع مايكل شـمّ رائحة الحريق أحسَّ بلسـعة

النار التي شبّت، فأخذ قلبه يخفق بعنف.

لكنّه حينما إستدار رأى حريقاً عاتياً جديداً يبعد قليلاً عن ناحية الشمال. ينبغي أن تكون تلك المزرعة في «ستينرسليو». تواثب اللّهبُ أبيض ولا مرئيّاً تقريباً في سطوع الفجر - لهبٌ عارٍ - والدخان تكاثف مثل عجلةٍ دوّارةٍ عاليةٍ في الهواء فوق المكان.

إرتفعت الشمس في كبد السماء. سمع مايكل السَّمك وهو يتخاطف خلف الذباب في أسفل الجدول.

بعد نصف ساعة قدم ينس، إبن نيلس الأصغر، إلى البيت. كان مايكل قد رآه يأتي مهرولاً من ناحية الحقول البعيدة وظلّ يواصل هرولته بلا توقّف. شفتاه كانت شديدتي الجفاف، حتّى أنّه لم يكن بمقدوره إطباقهما فوق أسنانه، فيما كان صدره يعلو ويهبط مثل مِنفاخ النار. حين وصل المزرعة إنهار فوق الينبوع وكَرَع الماء من حوض البهائم. حين نظر إلى فوق لاحظ مايكل من عينيه أنّه قد شاهدَ دماءً ممّا أفقده السيطرة على نفسه.

«أين هو أبوك؟»، سأله مايكل بحدّة.

«إنّه بخير»، أجاب ينس. «وهذا ما أردتُ قوله لأمّي».

كان الفتى مشوّشاً. لم يمكن لمايكل إستخلاص أيّ معلومة يعوّل عليها منه. دفنَ ينس وجهه في حوض الماء من جديد.

«يمكنك الآن العناية بوالدتك»، قال له مايكل مستحثّاً ثمّ عجّل مهرولاً على امتداد النبع باتجاه «موهولم».

كان الفلاّحون قد غادروا المزرعة حينما وصل إلى هناك. لم يبق منهم سوى حفنةٍ يتسكّعون هناك في هدوء شديد شاغلين أنفسهم بالأمتعة التي تمّ إنقاذها من المباني المحترقة. تعرّف مايكل على واحد منهم، كان من منطقته، وسأله الخبر، فأجابه الرجل بلا اكتراث

عظيـم: «نعـم، لقـد أحرقـوا المزرعة، كمـا يمكنـه أن يرى، ولـم يسـتمرّ المشـهد طويـلاً. الآن كل الذين كانـوا هناك مضوا لإشـعال الحرائق في «ستينرسليو». حينما يعودون ستقام ولائم الأكل والشراب». أشار الرجل نحو أكوام لحـمٍ وبراميل تمّ جلبها إلى الخـارج. كانت الحرارة لا تطاق قرب هذا الخلاء الملتهب.

«هل كان هنالك من أحد قام بالدفاع عن نفسه؟»، سأل مايكل.

«نعم، هذا صحيح. فالسـيّد قد بلغته مسـتجدّات الموقف قبل فترة طويلـة فهيّأ العديد من الرجال في المزرعة. لكنّ المعركة لم تدم طويلاً، فقـد كان الفلاّحـون أكثـر عـدداً، وكان بإمكانهـم التقـدّم مباشـرة داخل المزرعـة واجتياح قصر مالـك العزبة لأنّه لم يكن محصّناً. أوتا إيفرسـن وأولاده قتلوا في الحال إضافة إلى رجالهـم في المزرعة. البقيّة الأخرى المتبقّية من عائلة السـيّد كانت محظوظة بالهـروب. فقدَ الفلاّحون دزينةً من رجالهم وتشـوّه العديد منهم. سـتيفن من كفورن أصيـب بعيار ناريّ حالما وطأ المزرعة».

تطلّع مايكل حوله. كان أحد الرجال يمشي ويجمع الرّصاص الذي كان يقطر ذائباً من على السـقف ويتصّلب فوق الأعشاب، لم يزل ساخناً بعد، فشـرع يلعن وينفخ على أصابعه. الآخرون كانوا مشـغولين بالتقاط ومراقبة أشياء المزرعة التي أحرقوها قبل قليل.

«ماذا فعلتم بالجثث؟»، سأل مايكل.

«إنهـا مطروحة فـي حديقة الكرنـب»، أوضح أحد الرجـال عرضاً. «سوف نلقي بها خارجاً حالما يعود سورين بورك».

مضى مايكل متوجها للحديقة على امتداد الجدار الساخن المدخّن فرأى دزينة من الجثث البشـريّة ممدّدة في صفوف فوق الأعشـاب تحت أشجار التفّاح. كانت مسجّاة بعناية وفق نظامٍ - الفلاّحون مع بعضهم في

صفٍّ والسيّد مع رجاله في صفٍّ آخر. لم يستطع مايكل التعرّف على أيّ من الفلاّحين باستثناء ستيفن من «كفورن». كان رجلاً شديد البأس، كانت صدريّته مزيّنة بأزرار فضّية ويرقد في نهاية الصفّ. على بعد بضع خطوات منه كان أوتا إيفرسن يضطجع وولده الصغير مطروح قريباً منه وكلاهما كان مهشّم الرأس. أبصر مايكل ندَّه اللدود من الزمن الماضي فانقبض قلبه في صدره. شعر كيف أنّ كل شيء يتلاشى مع الزمن، ها هو اللاشيء من جديد الآن. جلس على العشب بين جثة ستيفن وأوتا إيفرسن. نعم، كانا ميّتين، مضطجعين بجراحهم المتّقدة. الفلاّح البدين كان مسجّى وذقنه مضغوط إلى الأسفل فوق عنقه وبطنه إلى جانبه، كان أحدٌ ما قد أسدل جفنيه. لكن أوتا إيفرسن كان يرقد بعينين مفتوحتين على وسعيهما فيما كانت مقلتاه ذاويتين. كان أوتا إيفرسن أصلع ولحيته بيضاء. ملامحه التي جعّدتها الحياة تفصح الآن عن الإستياء المُرّ في الموت. إلى جانبه وتحت ذراعه الميّتة يستلقي واحدٌ من أولاده، جبينه ورأسه مهشّمان بشدّة، ثمّة شاربان صغيران فوق شفتيه شبيهان بشاربي أوتا إيفرسن أيّام صباه.

ها نحن ثلاثتنا هنا، يا آنا ميتا. فكّر مايكل، كان فمه ينفرج دون أن يصدر منه أيّ صوت كما لو أنّه سمكة تختنق فوق العشب. ها نحن قد اجتمعنا – ذلك الذي أحببتِه، وذلك الذي أحبَّكِ، وذلك الذي تزوّجتِ به. يا آنا ميتا، ها هنا جميع رجالك!

الهزيمة

في أواخر المساء جاء نيلس ومعه ثوجر وأندرس. كانوا غارقين في الغبار والوسخ من أعلى رؤوسهم إلى أخامصهم. ونيلس، الذي لم يعد شاباً، كان يجرجر نفسه بصعوبة إلى الأمام. فبالإضافة إلى «موهولم» و«ستينيرسليو» فقد ساهموا بإحراق إحدى المزارع التي تبعد مسافةً إلى الشرق. لكن نيلس لم يكن سعيداً بكلّ ما حدث. ألقى بنفسه على السرير وحدّث مايكل بما حصل.

«لستُ مرتاحاً لذلك»، قال محطّماً. «كان بإمكاننا الإبقاء على «موهلوم»، لكن الذنب ذنب أهالي «سالنج». قالوا بإن القوم الذين من «هيمرلاند» هنا كانوا أوّل من بدأ تلك الحوادث في «سالنج» فقاموا بردّ الجميل. حسناً، لم يكن سيّدنا إيفرسن في نهاية الأمر بتلك الأهميّة، لكن تراءى لي على أيّ حال أنّه كان رجلاً مسالماً حينما أجهزوا عليه. هناك قضى ستيفن نحبه! أوه، واصلنا مهمتنا بشناعة، وكان من الصعب تمييز من الذي هوت عليه فأسي ومن الذي سلم منها، السيّد في «ستينرسليو» ظل يخور مثل خنزير حينما أجهزوا عليه. لكننّا الآن قد بدأنا، لا أنكر ذلك، وعلينا الآن أن نواصل ما بدأناه. سنتجه صباحاً شمالاً ونتجمّع مع أهالي «فندسيسل». بلى، لكنني كنت أعتقد أنّ الحرب شيءٌ آخر، تيقّن من ذلك».

في اليوم التالي رحلوا، وكان مايكل بصحبتهم، بقي ينس في البيت للعناية بوالدته والمزرعة. ستمضي الأمور معه بسلام بالتأكيد،

فكّر نيلس، فجميع السادة في هذه البقعة التي يقيمون عليها لقوا حتفهم، وربما كان ذلك أمراً مستحسناً بعد كلّ ما فعلوه.

وهكـذا خـفَّ الفلاحـون الآن فـي كلّ أنحـاء «يولانـد». كان زمناً مضطرباً، مضت أربعة عشـر يوماً والحشـود تطوف من موضع إلى آخر، تحرق وتصخب دون أن تعـرف للأمور مَخرجاً ولا مَدخلاً. كانت قضية آثمة جـدّاً، حينما يُقتلَعُ الفلاّحـون من أماكنهم ويُقذفـون خارجاً مُطلَقي العِنـان. طالما يعرفون بعضهـم فهنالك نوع من التضامـن، لكن إذا كانوا من بقعتين مختلفتين فهم شـبه أعداء تقريباً. حين تتوحّد جماعتان تحت أمرة قائد واحد فسـتكون إحدى الجماعتين علـى الأقلّ لا تثق به، حينها يبـدأ بقيـة قوّادهم في الخـلاف. ما ينقصهـم هـو قائد واحد منـذ البداية. حين تجمّعت الحشـود من جميع أنحاء شـمال «يولاند» إسـتلم القبطان كليمنت زمام قيادتهم. كانوا ستّة آلاف رجال مزوّدين بنفس العدد تقريباً من الأسـلحة المختلفة حينمـا تجمّعوا عنـد بلدة «سفينسـتروب». هناك التقوا بالنبلاء، الذين كانوا ستمائة فقط لكن على ظهور جيادٍ ومدجّجين بالدروع. أحرز الفلاحون النصر.

كان مايكل ثوجرسن يقف على التلّة في ذلك الصباح من صباحات أكتوبر وأبصر كيف سارت أمور النبلاء على نحوٍ كارثيّ. إقترب الفريقان من بعضهما عند الغروب. لم يملأ حشداهما المحيطَ حولهما كثيراً، كانا أشبه بلطختين كبيرتين، معتمتين، غير متساويتين تنزلقان نحو بعضهما في الريف المترامي الأطراف وتحت السـماء الفسـيحة. الطبيعة من جانبهما لم تشاركهما الحرب، كان الصباح رماديّاً، الأرض باردة بعد المطر. نظر مايـكل نحو التلال الخفيضة المتعرّجة وفكّر فـي أنّ الأرض وحدها هي التي تبقى، فيما تجتازها الأجيال مثل ظلال الغيوم.

تلاحم بعدها الجمعان لكنّ جمـع النبلاء كان قليلاً. أمكن لمايكل

من مسافة بعيدة أن يلمح الفلاّحين وهم يتجمهرون في حشودٍ حول كلّ فارسٍ من الفرسان ويضربونه قاذفين به عن سرجه بكل معنى الكلمة. كان مدى الرؤية جليّاً، فرأى مايكل كيف كان الغبار يتطاير من ملابس النبلاء تحت الدروع حينما يخبط الفلاّحون عليهم بلا رحمة. من حين لآخر كانت الريح تحمل الجلبة فوق التلال، حيث كان مايكل يقف. تناهى إلى سمعه الطنين الذي يحدث حينما تقرع الفؤوسُ دروعَ الفرسان وخُوَذهم. لكنّ النبلاء أثخنوا الفلاّحين جراحاً أيضاً قبل أن يتعرّضوا للهزيمة. دائرة المعارك تتسع وتتسع، مواسير البنادق القليلة صمتت تماماً. حينما أطيح بأحد النبلاء وأوسع ضرباً تجمهرَ الفلاّحون حوله وفوقه بكثافة الذباب الذي يتساقط على قطعة السُّكّر، بدأ العديد من النبلاء في النكوص بأحصنتهم مفكرّين بالعثور على ملاذٍ.

أسفل الهضبة، حيث يقف مايكل، كان ثمّة فلاّح أجيرٌ يسير ويحرث. لم يكن راغباً بإيقاف حصانه فيما كانت المعركة تضطرم هناك، كان بمستطاعه الحراثة في يسرٍ ومراقبة المعركة في آنٍ معاً.

بعد مدّة تخلّى النبلاء عن القتال كما كان منتظراً أن يفعلوا، وفرّوا بأقصى سرعتهم في تسابقٍ نحو الجنوب بأدنى الريف. لقد وثقوا هذه المرّة بقيمتهم أكثر مما ينبغي ونسوا أنّ الجميعَ سواسيةً تحت الفأس. قضى العديد من النبلاء نحبهم في تلك الموقعة.

لكن تلك كانت هي المرّة الأخيرة التي يخوض فيها الفلاّحون الدنماركيّون معركةً لهم فيها الحقّ بالقتال، لإنّها صارت المرّة الأخيرة التي ينتصرون فيها. بعد شهرين سقط حقّهم وصاروا مُدانين كمتمرّدين لأنهم خسروا الحرب. ومع هذا الحدث كفَّ الدنماركيّون عن أن يكونوا أحد شعوب الشمال.

كان يوماً محزناً. أبصر مايكل الفلاّحين وهم يدافعون عن «ألبورغ»

ويقاسـون الهزيمة. كان الشـتاء قد حلّ والطقس في منتهى التعاسـة. قاد جـون رانـزاو النبـلاء الذيـن صـارت الآن قوّاتهم أكثـر عـدداً، لكنّه كان يصحب معه إضافة إلى ذلك مرتزقته الألمان المسلّحين بالبنادق.

ثمّ شـرعوا فـي عملهم بعزيمـةٍ. اتّسـعت محاجـر الفلاّحيـن على وسـعها أمام كلّ تلك الأسـلحة الناريّة الحديثة التـي وجّهها جون رانزاو نحوهم. كلّ رصاصة، تأتي مشـعّةً صوبهم، كانت عدوّاً لا يمكنهم رؤيته ولا لقـاءه. أفقدتهم البنادق شـجاعتهم، فلم يكونوا يعرفـون حرباً أخرى غير تلك التي يواجه فيها الرَّجُلُ الرَّجُلَ، كما أنّهم لم يُلقَّنوا أيّ حسابات استراتيجيّة من قِبَل آبائهم. في النهاية تلاحم الفريقان في قتالٍ ضارٍ كانوا يتحرّقـون فيه إلى اسـتخدام قبضاتهـم العارية، لكن الوقـت كان متأخّراً، فالمعركة كانت خاسرة منذ زمن طويل.

كانت الحال ميؤوساً منها، لكنّ الفلاّحين شقّوا طريقهم مثل الغُرَيْرِ وسـط الكلاب، حينما أدركوا ما يحـدث قاتلوا باسـتماتةٍ، تضاعفت قوّة كلّ رجـل منهم إلى قوة ثلاثـة رجال، قَصْقَصـوا قوى النبـلاء تقريباً إلى قصاصات بمناجلهم وسـكاكين التشريح حالما تكون في متناول أيديهم. لكنّهم سرعان ما تشتّتوا. حين تمّ تطويقهم سرت فيهم رباطة جأش، فقد انتهوا.

فـي خاتمـة الأمـر كان هنالـك ألفٌ مـن فلاّحـي «فندسيسـل» لم يتمكّنوا مـن عبور خليـج «ليمفيورد» والوصـول إلى بيوتهـم، فقد أُجهز عليهم. ضيّـقَ المرتزقةُ المدرَّبون الخناقَ عليهم وتركوا النبلاء يدعسـون عليهـم. كانوا هنالك محشـورين مع بعضهم، يضربـون ويطعنون حولهم فيمـا كان المنتصرون يجهزون عليهم، إنتحبوا في غمرة الطقس الشـتائيّ العضوض، تساقطوا وهم يشهقون فوق الثلوج برؤوس مهشّمة.

في النهاية ذادَ الحشـد القليل عن نفسـه بجنون، بصيحات غاضبة،

نشجوا مصطكّي الأسنان، لكنّ السيف كان فوقهم، الحديد والرصاص ضربَ مخترقاً معاطفهم المصنوعة من جِلد الخراف نحو أجسادهم المرتعشة، الدَّبابيسُ[1] كانت تهشّم أسنانهم مندفعةً عبر قلانسهم مفجّرةً رؤوسهم، لم يكن هنالك من رحمة، تركوهم مصروعين حتّى آخر رجل منهم.

لو أنّ الملك كريستيان قتلَ النبلاء جميعاً في ستوكهولم بدلاً من تلك الدزينة القليلة منهم لما وجِدَ مَن يتأسّف عليهم بعد ذلك. أُثيرت التساؤلات عبر التأريخ عن أولئك القتلى، لكن لم تنبجس حسرات ذات شأنٍ على هؤلاء الألفين من البشر الذين دمّرهم جون رانزاو على أعتاب «البورغ». لقد تمّ سحق الفلاّحين بكل ما للكلمة من معنى، حتّى أن هذا الإجحاف لم يبق له في التاريخ من ذكر. بعد هذا القتال خيّم سكونٌ ثقيل فوق «يولاند».

لم يعد الكثيرون إلى بيوتهم في «جروبولا». نيلس ثوجرسن سقط عند «ألبورغ»، إبنه الأكبر لقيَ حتفه عند «سفنستروب». بحث مايكل عن جثمان أخيه خارج «ألبورغ» وغطّى وجهه بالتراب. سقط نيلس مثل أيّ رجلٍ باسل، مهشّم الظهر بقذيفة مدفع.

أندرس، الإبن الأوسط، قدم إلى البيت بالأنباء شائخاً وضامر الوجنتين. تولّى فيما بعد أمر المزرعة كقِنٍّ تحت أمرةِ سيّدٍ جديد في «موهولم».

(1) الدبّوس: هراوة ذات رأس معدني مليء بالمسامير. (المترجم)

الزّمَن

ويمضي الزمن. الزمن يقبض على الزّمام. الأيّام تمسك بتلابيب بعضها، والسنوات تتسع مثل آفةٍ مُعدِيَةٍ تحرّك قوى الإنسان من وراء حجاب. الناس الذين يشرعون بالمضيِّ في طريقٍ لن يقطعوا منها سوى منتصف البداية، فما أبصروه على المدى البعيد يجعل من الزمن يرتمي مثل نفايةٍ تحت أقدامهم. سنونٌ وأيّام مضت على ما حدث، صار الكهولُ من الناس يتحدّثون عنه كما لو أنّه ذكريات. المحاولة الأولى المتعثّرة تخلّى الزمن عنها، إلاّ أنها ستكون حقيقة نهائيّة حينما يعصف قرصُ الشمس بناره ورمادِهِ في قَرْنٍ قادمٍ جديد. طُمِرَ الرجالُ منسيّين في باطن الأرض، لكن مسعاهم إلى الفعلِ بقيَ شامخاً مثل أنصابٍ غامضة على امتداد الطريق نحو الزَّمن السَّرمَديّ. سيبدو تاريخهم مثل منظر طبيعيّ بعد الطوفان، حيث الرُّكام والأشجار السود العارية الجذور تغطّي الأرض المعجونة بالملح والوحل على مدى البصر.

غوستاف ترول – أُصيب بجرحٍ مميت في معركة «أوكسنبيرج» فهوى في مكانه. إضطجع باسطاً ذراعيه فوق الأرض وهو بكامل سلاحه، مدرَّعاً بالحديد من قمّة رأسه إلى أخمص قدميه. شعر بروحه يتنازعها الألم والسعادة الداخليّة. دفعه شعوره بدنوِّ أجله، بسبب جرحه المميت، أن يفكّر في زمنه وصنيعه. أحسَّ بغضب حارق يعتوره لأن يُقطَفَ على هذا النحو، إلاّ أنّ اضطرابَ روحه كان عنيفاً حتى أنّه، مُنهَكاً وتعيساً، إستقبل الموت بترحاب. كان هنالك معنى في نهايته، لأنّ هنالك سلسلة من الأشياء التى لا معنى لها قد انتهت إلى خاتمة معقولة.

لم يخالجه أيّ شعور بالندم عدا ندمه على ما لم يفعله. ها هنا يضطجع ولم يصل في مسعاه سوى إلى نقطة البدء رغم أنّه كان رجلاً عجوزاً. لقد جعل من نفسه وحيداً من أجل القضيّة، وهو الآن يموتُ وحيداً كما كان. إطارُ حياته يُطبقُ دون أن يطوّقَ شيئاً غير الزوال والخسران. من الممكن أن يقال عنه أنّه في سبيل هدف مجهول عزل ذاته ونصّب من نفسه عدوّاً لكلّ الأحياء. حينما أحسّ غوستاف ترول بقبضةِ قدره، شعر بحلاوة الإذعان، كان يرقد دافئاً ومطواعاً، وحين شعر بحمّى الموت تعتريه إستسلم لأوّل مرّةٍ في حياته.

حملوا المطران بعيداً وهو فاقد الشعور، ولم يستعد وعيه ثانية. كان يرقد في بيت محروسٍ مثل سجين، والناس الذين يغدون في المكان ويروحون كانوا يسمعون قهقهة المطران الصاخبة. يرنون إليه وهو مسجّى بخدود حمرٍ وفمٍ مثل شيطان. كان يهذي، عيناه المتّقدتان مفعمتان بنظرةٍ متفحّصة فوق طبيعيّة ومحذِّرة. منذ بداية معركته مع الموت سمعوه وهو يتنهّد أو يولول بوحشيّة مثل طفل حَرون، كان يضطجع طوال اليوم وينشج لفترات تتخلّلها فواصلٌ تطول وتطول مثل مدٍّ وجَزرِ الحياة فيه. دام احتضاره ليومين. أصابته نوبة من الفزع حينما فتح شفتيه ولعن أشباح الموت التي تهيّأ له أنه رآها.حينما يطبق الموت على خناقه تتوتّر أعضاؤه وتنتفض مثل قوسٍ معدنيٍّ، أو يضطجع متصلّباً تحت الإنقضاضات معقودَ الجسد أجمعه ومتحجّراً مثل صخرةٍ. في الليلة الأخيرة سكن في الألم وانفجر في ولولة صاخبة. مات وهو يصرخ تحت وطأة سباق وحشيّ إنطلقت فيه أعضاؤه كلّها.

بعد معركة «أوكسنبيرج» تحطّمت المقاومة في جزيرة «فين». لم يبق الآن سوى الشيلانديّين الذين أودعوا حيواتهم وممتلكاتهم في يد الملك كريستيان. لكن حين تمّ إخضاعهم بدورهم كان جون رانزاو قد

احتـلّ البلاد كلّهـا. توجّب عليه إنتـزاع كلّ قطعة من البـلاد وضمّها إليه مثلمـا يوثق المرء قوائم حصان عنيد الواحدة تلـو الأخرى. الدنماركيّون ذاتهـم، الذين تخلّوا قبل عشـر سـنين عن الملـك أصبحـوا الآن، بذات الروحيّة، يسـعون لإعادته إلى العرش أو الموت دون ذلك. الدنماركيّون متقلّبون بالقدر الـذي هم فيه عنيدون. خضعت كوبنهاغن للحصار سـنةً كاملة. خلال الأشـهر الأخيرة تقهقروا فيها إلى أدنى دَرْكٍ يمكن للإنسان أن يصـل إليه، توافقـوا فـي البداية على تنـاول طعـام الوثنيّيـن المُخزي والزبّالين، الخيول، القطط والكلاب، بعد ذلك إلتهموا شاكرين من ذات صنوف الطعام أدناها من القوارض وآكِلات الديدان: الفئران والخنافس. في النهاية أشـبعوا بطونهم بطريقة حيوانيّة بالجِيَف والفَضَلات الأخرى. مات الأطفال على صدور أمّهاتهـم اللواتي كنّ يرزحن دائماً تحت وطأة جـوعٍ مسـعور، كما لم يكـن هنالك من نقص فـي الناس الذيـن يخرّون موتى أثناء وقوفهم أو سيرهم. وبعد كلّ ما قدموه من تضحيات ومقاساةٍ لا توصـف لكي يحتفظـوا بالمدينة لأجـل الملك، بعد أن لـم يعد هناك من حرمانٍ إلاّ وذاقوه، ولا ألم إلاّ وجرّبوه، أسـلموا المدينة لكي تكتمل دورة العَبث العظيم.

أمبروسـيوس مجلّد الكتب، صديق طفولة الملك كريسـتيان، الذي لم يعرف التهاون في شدّة حرصه على قضيّة المَلِك، إنتحر بالسُّمِّ! حياته وطاقته إستدارت عائدة على نفسها مثل خطّ سير البُمرنغ[1].

بعد سنة توفّي ينس أندرسـن بلديناك منفيّاً في «لوبيك». منذ السنة الماضية كان هادئاً، إذ كان يرزح تحت سنين كهولته، إضافة إلى أنّه كان مُقعَداً. ينس أندرسـن، الذي لم يوفّر أحداً طوال حياته، أُسـيئت معاملته

(1) Boomerang: خشبة مثنية تعود للمكان الذي انطلقت منه عند رميها، تستعمل كسلاح للصيد في أستراليا. (المترجم)

بإفراط من قبل أعدائه حالما صار فـي متناول أيديهم. كان رجلاً عجوزاً حينما صبّـوا، في تعطّشٍ تليد للإنتقام، جامَ عذابٍ طويل ووحشـيٍّ على شـخصه. سـخريّته اللاذعة، التي كان في ريعان شـبابه يوجهها ضدّ الله والعِبـاد، عادت عليـه الآن في جسـده حينما أصبـح مُقعَداً. عـرّوا رجُلَ اللهِ السـاقطَ حتى الجلد ومسحوا على جسده بالعسـل وأجلسوه خارجاً تحـت الشـمس هدفاً للذبـاب والبعـوض. أنظروا إليـه، أنظـروا إلى هذا المخلوق الضخم، الذي سَـلَبه الزمن، عارياً تباركه أسـرابُ الحشـرات! أنظـروا المطران العظيم والجنديّ، تاجر الثيران الذي لا يكلّ، المسـتهتر بالملـذّت ورجـل القانـون! المُشَـعْوِذ، الألمعـيّ، الـذي ينفـث السـحر والكتاب المقدّس من على زرٍّ سـرجه! لقد هجره الزمن، الزمن إنسحب بعيـداً عنه. كان هذا الخراب ذات مرّة عبقريّاً لا يُقهَر وداهيةً جسـور. ها هو الآن سحابة دخان واطئة مقرفة كانت سالفاً شُعلةً من الأهواء.

ينس أندرسـن، لقيطُ الطبيعة الملوكيّ الموهوب، كان رأسه مُستقَرّاً لأنجح توافـقٍ بين اللاهوت والقانون وُجِدَ فـي الدنمارك على الأطلاق. كمـا أنّه، وفقاً لظـروف زمنـه، كان جماليّاً بـارزاً أمكنه أن يختـزل حياته وفلسـفته في مقطوعتيـن شـعريّتين صغيرتين فحسـب باللاتينيّـة. أولهما كانت نقشـاً جافّـاً على ضريـحٍ والثانية تفصـح عن كومـة دُوبيت هزيل، تسجّلان لائحة عذاباته.

لكن قصيدة ينس أندرسن العجفاء تنطوي على حقيقة! كانت أبياته تشابه الهيكل العظمي للتاريخ البشريّ. إثنان منها يخشخشان هكذا:

Os, dentes, nares, genitalia, brachia dantur

Torturis, quibus adjunge manusque pedes.

أمّا الملك فقد مضى عليه الآن عدّة سنين حبيساً في "سوندربورغ". منذ معركة "ألبورغ" تقاسم مايكل الحبس مع الملك، وحصل لقاء ذلك

على ستّة ماركات لوبسكيّة في السنة.

الآن بعد أن حصل مايكل على هذه الوظيفة الثابتة كسجينٍ مشتَرَكٍ مع الملك كيّف نفسه على العيش بهدوء. طوال حياته كان مايكل يشعر أن قدره مرتبط بقدر الملك. لقد ترافقا في مسيرتهما بشكل أو بآخر، إذ كان مايكل يقترب من الملك بنفس الدرجة التي ينحدر الملك فيها!

أربعون سنة مرّت منذ رأى مايكل الملك أوّل مرّة كأميرٍ ذي ستّة عشر ربيعاً حينما كان يتنقّل في حوانيت التجّار الأثرياء في كوبنهاغن. كان شَعر الملك أرجوانيّاً بلون الشراب الفرنسي آنذاك، واليدان مازالتا ملساوين لم يرسم الدهر خطوطه عليها بعد. ها هو الآن يقف بشَعرٍ رماديّ كالشتاء، أشعثَ مثل عُشٍّ مهجور، ويداه الناتئتا العظام منسوجتان بالغضون والأوردة المتورّمة.

جاكوب وإيدا

في الوقت الذي ألفى فيه الملك ومايكل نفسيهما على هذا المنوال تحت أقصى درجات الحراسة المشّددة بين جدران قلعة «سوندربورغ» المحصّنة، كان ثمّة متشرّدان يجولان حول الريف، جاكوب العازف والصغيرة إيدا.

كان جاكوب رجلاً في عمرٍ مُلتَبِسٍ، كما لم يبد عليه أنّه قد كبر في السنين الأخيرة التي كان يجول فيها مع إيدا. لكن إيدا، التي كانت طفلة عندما غادرا «كفورن»، كبرت على طرقات الريف ثمّ استوت آنسة عذراء تحت السماء المنبسطة.

إنحدرا من «سالنج» في ذات اليوم الذي دُفنت فيه آنا ميتا، الجدّة، في أعماق الأرض. حين كانت آنا ميتا تضطجع بلا حول ولا قوّة في سريرها وهالة الموت المقدّسة تحيط برأسها الضامر العجوز، كان فحوى نظرتها الأخيرة متعلّق بحفيدتها إيدا. جميع أبنائها الكبار كانوا يتحلّقون حولها، لكنّ نظرتها كانت تفتّش عن إيدا. وبعد أن ووريت التراب أمسك جاكوب بيد الفتاة الصغيرة العزلاء ومضى معها بعيداً عن المقبرة.

كان ذلك في اليوم الذي رجعت فيه طيور الزَّقزَاق عائدة إلى المنطقة. تناهت إلى سمع جاكوب صرخاتها الطازجة حينما اجتازا المستنقع. كان الهواء طلقاً حولهما، فمضيا حرّين باتجاه الشرق، نحو الشمس البيضاء، الساطعة فوق الأرض الذائبة. التلّة، التي كانت إيدا الصغيرة ترنو إليها طوال مرحلة طفولتها والتي كانت تقع عند المدى

الأقصى، حيث تستريح الشمسُ على أعمدةِ السحاب، إجتازاها عابرين، نعم، لقد تجاوزاها تماماً، وها هي الآن بقعة مجهولة تستدير بصورة عجائبيّة أمام ناظري إيدا مثل بوّابة مؤدّية إلى العالم.

وصل جاكوب وإيدا إلى «جروبولا»، حيث سأل جاكوب عن مايكل دون جدوى. هو في الأرض المقدّسة، إن لم يكن قد مات، أوضح له نيلس، فواصلا تجوالهما في الأرجاء عازفين.

قضى جاكوب وإيدا يومين في «موهولم» يسلّيان قاطني المزرعة بالموسيقى. عائلة السيّد لم تشهد ذلك. إيدا الصغيرة كانت تعزف على المثلّث[1] مع كمان جاكوب، كانت تبصر الإيقاع على يديه وتعزف برقّة متناهية رغم كونها لا تسمع شيئاً. لكن ذات مساء طلع السيّد بوجهه الكالح الشحيح وطلب منهما حزم متاعهما، لم يكن راغباً في سماع زقزقتهما. وهكذا أعاد جاكوب رزمَ كمانه في جِلدِ الثعلب من جديد ومضيا يداً بيد خارجين من المزرعة. كان مثلّث إيدا يجلجل عند حزامها حينما تسير، مثل خلاخيل صغيرة.

ومضيا في الريف صوب الشمال مجتازين المروج. كان الربيع قد حلّ، الأرض ترقد باردةً، والشمس تعيد دورتها اليومية. يكون نهارٌ آخر باسمٌ لا يلبث أن يتدثر بالرمادي. الغيوم تسافر في سباق مع الريح. كان المطر يهطل صباحاً، والأرض تتندّى مساءً. إنه طقس متعب؛ رغم ذلك لا زال جاكوب وإيدا يأملان.

غسل المطر شَعر إيدا فوق وجهها، شَعرها الشاحب، والشمس جفّفته من جديد، فأضحى شعرها جَعْداً وضّاءً فوق رأسها. إستمرّ المطر طويلاً، قطعت إيدا الشوارع وهي تحدّق قُدُماً بعينيها البيضاوين تحت

(1) المثلّث: آلة من آلات النقر الموسيقيّة، قوامها قضيب من فولاذ ملويّ على شكل مثلّث. (المترجم)

شَعرها الخَضِل، الذي كان شاحباً كالكَتّان.

«إيـدا ذات الشـعر الممطـر!»، ردّد جاكـوب مع نفسـه ونظـر إليها بابتهاج.

كلّ طيور الدنمارك عادت إلـى الوطن الآن. الزُّرزور يصفّر بعاطفة في الصبـاح حينما تتلألأ حافّةُ الشـمس في الأعالي وتمحـو الجليد عن المـروج. القُبّـرات ترفـرف بأجنحتهـا صادحـةً فـي ذرى الأعالـي فـوق الحقول القاحلة. الريح تعدو بين الأعشـاب الذابلة في منحدرات التلال مموّجـةً الميـاه الزرقاء القارسـة البـرودة في الحقـول المحروثـة. بواكير الزهـور الصّفر تطـلّ بعيونها من تحـت الأرض، السـنونوات تمتطي في صمـتٍ متن العاصفة الشـرقيّة. ثمّ حلّ الهـدوء أخيراً. ليـال دافئة ونماء. شـرعت العَلاجيم في النقّ بصوت لجوجٍ ومبتهج في الجداول الصغيرة. أضحت الأرض خضراء، والضفادع تنشـد أغاني المسـاء السـرمديّة التي تترنّم بالنماء والخصب على الأرض.

إخضوضرت طرقات الريف، حيث يسـعد إيدا أن تسير لأنّ هنالك الكثيـر الذي ينبغـي عليها مشـاهدته. قطفت زهرات «ذيـل القطّ» البيض ورفعتهـا نحو شـفتيها، ممسّـدة خدّيهـا بها، ضفرت لنفسـها شـريطاً من القصب الـذي كان يبهجها إقتلاعه مـن الجذور. أبصـرت إيدا الحملان حديثة الولادة في الحقل، التي لم تك تستطيع النهوض على قوائمها بعد فهي ترقد بين رؤوس الخراف الخفيضة.

صارت الأيّام أدفأ وشـعاع الشمس أشدّ تألّقاً. في أوّل مايس عزف جاكوب وإيدا للراقصيـن في «ألبورغ» وجنيا نقـوداً كثيرة. إبتاع جاكوب قبقابين خشبيّين جديدين لهما، ثمّ واصلا سفرهما وهما في أحسن حال. كان الناس يعشـقون سـماع الموسـيقى، لذلـك لم يكن الإثنـان في عوز لطعامٍ أو مأوى على الإطلاق. وعلى هذا المنوال وصلا إلى «سكاجن»،

حيث رأت إيدا البحر الفسيح. كان الرمل هناك أنصع وأنعم من أيّ مكان شهدته في حياتها. وحينما بلغا نهاية اللسان البحريّ أنشد جاكوب الأغنية التي نظمها عن نفسه وعن إيدا. لم يكن هنالك من مستمعين غير النوارس التي كانت تحلّق على مقربة منهما.

كان جاكوب يضحك ويمدّ يديه باتجاهها فيما كان يغنّي. لمحت إيدا مناقير الطيور المفتوحة، لكن دون أن تسمع شيئاً، ولا حتى هدير البحر وخرخرته تحت هذا الطقس الرائع. الأغنية، التي أنشدها جاكوب، كانت هكذا:

أعطِ مأوىً لمُتعَبَين
جائِعَين وبائسَينْ
قادمين من البعيد.
أعطِنا مأوى!

دروباً كثيرةً قطعنا
شوارعاً طويلةً عبرنا
ولم يزل أمامنا المزيد
أعطنا مأوى!

قريتنا من أجمل القرى
ترابها من أطيب الثّرى
وطيرُها ملوّنٌ عجيب
أعطنا مأوى!

إذا شككتَ في حكايتي

هيّا تعالَ واسأل ابنتي
لكنّها بكماء لا تجيب
أعطنا مأوى!

بعد أن أوغل جاكوب وإيدا في السير شمالاً، بالقدر الذي أمكن لهم فيه أن يجوبا الدنمارك، عقدا صداقة وثيقة مع قبطان، وأبحرا معه لشهرين رائعين. وصلا إلى جزيرتي «ليسو» و«أنهولت» فانبسطت التلال الخضر تحت ناظريهما حول مضيق «رانديرز»، بعدها أرسوا في المضيق، حيث كان الفلاّحون يمضون إلى الساحل ويصطادون، حيث غالباً ما يبدون محلّقين في الهواء بفعل انعكاس صورهم على صفحة الماء. لقد كانت أيّاماً طويلة.

لكن حينما انصرم الصيف واستحالت الحقول كلّها على امتداد الرّيف صفراء، شرع جاكوب وإيدا برحلة طويلة مع القبطان نحو جزيرة «شيلاند». نزلا على شاطئ «هلسنغور» وعزفا هناك لأيّام لقاء هِبات طيّبة. غالباً ما كان جاكوب يشرب حتى الثمالة ويغنّي جائلاً في المدينة. وفيما كان يستغرق في نومه من السُّكر كانت إيدا تخبّيء نفسها في حقول الجاودار قرب البلدة. ضفرت قَشّاً يانعاً في شعرها وحمّمت يديها بالغبار الساخن.

ذات يوم تفجّر هياج غير اعتياديّ في البلدة. عجّل الناس كلّهم بالإنحدار صوب الميناء مظلّلين عيونهم بأيادهم، يتحدّثون بحماس متحاشدين مع بعضهم وهم يشيرون بأصابعهم نحو جنوب المضيق. ثمّة ثلاث سفن كبيرة قاتمة قادمة تمخر من هناك عبر العاصفة الشديدة، وكان أصغرها يرفع بيرقاً أحمر يرفرف على ذروة السارية. سرعان ما تجمهر كلّ من كان قادراً على الزحف أو السير صوب «هلسنغور» عند أسفل الشاطئ، وهناك سرت مشاعر غمٍّ عميقة بين أوساط الجموع،

رغم أن القليل منهم فقط كان يعرف لماذا. كانت السفن الحربيّة الثلاث تنساب في صمتٍ مميت فوق مياه المضيق الضحضاح ذلك النهار الشحيح بضوء الشمس من أيّام أغسطس. استمرّت في إبحارها ساعتين قبل أن تصل إلى «هلسنغور».

سأل جاكوب رجلاً عمّن يكون الذي قدمَ مبحراً فعرف أنّه كان الملك كريستيان بشخصه. أمكن لبعضهم أن يروي أنّه قدم من كوبنهاغن، حيث كان يعقد مفاوضات مع مستشاري الدولة بعد سنوات منفاه الطويلة في هولندا والنرويج، لكن لا أحد يعرف ما هي وجهته الآن. شعر الجميع، على كلّ حال، أنهم الآن موشكون على خسرانه.

حينما أدارت السفن الشراعيّة الثقيلة الثلاث دفّتها صوب البلدة، فاردةً أشرعتها المنتفخة في الريح، إنطلقت صيحات متفرّقة من هنا وهناك باتجاهها منبعثة من أوساط الجموع المحتشدة على الشاطئ. بدا وكأنّ السفن قد خفضت من رؤوسها محنيةً مقدّماتها الكليلة للأمواج. لم يرفع أحد قبّعته هناك، ولا إطلاقة مدفعٍ سُمعت ولا حتى أيّ إشارة.

لكن جميع سكّان «هلسنغور» تبعوها لمسافةٍ على امتداد الشاطئ، كما انضمّت إليهم جماعات أكثر، الفلاّحون من مناطق السواحل والبقاع الأبعد الذين لمحوا السفن، كانوا بالمئات، كهولاً وشبّاناً، ركضوا ملوّحين ومنادين على امتداد أطراف الشاطئ، حتى وصلوا إلى النقطة الأقصى. هناك توقّفوا، هناك ظلّوا محتشدين في جمعٍ كثيف عند الحدّ الذي أمكنهم بلوغه قريباً من الماء.

«وداعاً أيها الملك كريستيان!»، هتف أحد الكهول. الذين كانوا واقفين قريباً منه وسمعوا صوته الواهن فتفجرت دموعهم مردّدين الهتاف.

«وداعاً!»، إنطلقت الصيحة موحَّدة مثل دويّ عاصفة، منطلقةً من

جميع الذي كانوا هناك مرّة واحدة. صمتوا قليلاً متلهّفين على متابعة السفن بنظراتهم. سُمعت تنهّدات وحسرات. تدافعوا بالمناكب مع بعضهم ولوّحوا للسفن الراحلة. تصاعدت بعدها صيحاتهم الحزينة من جديد، لكنّ السفن الآن كانت تمخر في البعيد والهتافات صارت أضعف وأشدّ وهناً:

«وداعاً أيها الملك كريستيان!».

في نهاية الحشد ثمّة امرأة عجوز، كانت تعاني من صعوبة الإلتحاق بالجمع. ها هي الآن تقف مستندة على عصا أمامها وهي تهزّ برأسها من التعب. وجهها البرونزيّ الموميائيّ الشكل كان مؤطّراً بوشاح، كانت تبكي، نعبت بصوت عال حينما عصف الهتاف:

«وداعاً أيها الملك كريستيان!».

كانت تقف وظهرها الواهن قد أحناه الزمن، لم يكن طولها بأكثر من ياردةٍ واحدة، إرتجفت ونشجت على هذا الحزن المشترك، رغم أنها كانت في عمرٍ يصعب الفهم فيه. كانت تلك الجدّة العجوز إبنة مندل سباير، سوزانا.

إرتفع العويل للمرّة الأخيرة:

«وداعاً أيها الملك كريستيان!».

إنتزع جاكوب العازف كمانه من جِلد الثعلب وعزفَ نغماً حزيناً، لكنّ دموعه انهمرت على ابتسامته التي رسمها قلبٌ كسير. كانت الصغيرة إيدا تقف إلى جانبه وتلعب على المثلّث وتنظر كيف كان الناس يفتحون أفواههم ويهتفون جميعاً، كأنّما يخرجون شيئاً منهم يصحبه ألَمٌ عظيم. قلّبت لسانها في فمها وكأنّها تحاول فهم ذلك.

الشّريد

علـمَ جاكـوب العـازف أنّ أكسـل، والـد إيـدا المتوفّـى، ولـد في «هلسنغور»، وكان إبناً غير شرعيٍّ لامرأة يهوديّة تدعى سوزانا ناثانسوهن. إستطاع جاكوب وإيداً أيضاً الحديث معها، كانت تسكن في منزل فخم كبير وسط المدينة. تحدّثت سوزانا عن زوجها وأولادهـا الكبار، لكنّها اعترفت من تلقاء نفسها بخطئها الذي وقعت به قبل أربعين عاماً، وأقرّت بأنّها قد أنجبت أكسـل، الذي أُسـلِمَ إلـى غرباء حال ولادتـه، ومنذ ذاك الحيـن لم تسـمع عنه شـيئاً. أمّا فيمـا إذا كانت إيـدا ابنة له، فهذا شـيء ممكن. حدّقت المرأة العجوز نحو إيدا لكنها لم تستطع تمييز قسماتها، فقد كانت إيدا تشـبه جَدَّها مـن جهة إمّها، مايكل ثوجرسـن. وحين ظلّ جاكـوب وإيدا واقفيـن في حيرةٍ مـن أمرهما قدّمت العجـوز لهما بعض النقود وشيئاً من الطعام، فقد كان وقتها ضيّقاً ذلك اليوم الذي قدما إليها فيه، إذ كان سَبْتاً.

غادر جاكوب وإيدا «هلسنغور» وطافا في «شيلاند» طولاً وعرضاً. دام ذلك سـنتين. حينما اسـتعرت الحـرب وصارت الطرقـات غير آمنة، أبحر جاكوب مع إيدا إلى جزيرة «سامسو» الصغيرة، وهناك تجوّلا لأكثر من عام. إيدا نضجت خلال هذا الوقت. صار الإثنان معروفين جيّداً عند أهالي الجزيرة، ومنذ ذاك الحين قيلت حكايات كثيرة عن العازف الفقير الـذي لا أحد له. بعد نهايـة الحرب واصل جاكوب وإيـدا تجوالهما من جديد في «يولاند». أصابهما الشـوق إلى بقعتهما التي قدما منها. قبل أن يصلا إلى بيتهما سـرعان مـا تناهى إلى علمهما أن جميـع من يعرفونهما

قـد قتلـوا في هـذه الحرب، لذلـك لم يمكثـا في «كفـورن» إطلاقـاً، بل واصـلا تجوالهما مباشـرة عبرالقريـة دون أن يعترض طريقهمـا أحد. لم يعـد لهما بيـت في «كفورن»، بـل كانا وكأن لـم يكن لديهمـا بيت هناك على الإطلاق.

بعـد سـنةٍ وصـل جاكـوب وإيـدا إلـى «سـكاجن». إسـتدارا معطين ظهريهما للبحرين اللذين يتلاطمان معاً خارج الشعاب. رنيا صوب الأرض المنحدرة التي تنبسـط فـي عمقٍ مـدوِّخ باتجاه الجنـوب. ضحك جاكوب وأمسك رفيقته البكماء من يدها، ثم انحدرا على امتداد الشاطئ الشماليّ.

غزلتهمـا عاصفة الخريف حول نفسـيهما. توجّـب عليهما التعجيل بالصعود نحو قمّة الرابية حينما تدحرجت موجة عنيفة وغطّت كلّ ناحية خفيضة من السـاحل الذي كانا يسيران عليه. كان الطقس منعشاً والفضاء مفتوحاً للناظرين. النوارس تدور صامتة في الرياح المعاكسـة. الزبد المرّ يتطاير من الأمواج عالياً فوق اليابسة، حيث يستقرّ بعدها فوق الرمل وهو يرتعـش في الريح مثل طيور مبتردة. الغيوم كانـت خفيضة ومصرّة طوال الوقت على الرحيل من الشمال الغربيّ.

عند المسـاء قدم جاكـوب وإيدا إلى كوخ سـمّاكٍ، الشـيء الوحيد الذي يمكن رؤيته على ذلك الشـاطئ المقفر. وقـف جاكوب عند الباب ومرّر قوسه بنشاط فوق الأوتار صعوداً ونزولاً. إنفتح الباب حالاً منفرجاً عن وجهٍ مهتاجٍ، وجه رجل عجوز. ثلاثة أو أربعة أطفال صغار تشـقلبوا خارجاً، واحدهم فوق الآخر.

أيّ أنغام مدهشـة هذه! عزف جاكـوب، فرنّت أنغامـه مثل الذهب والألماس والأقمشـة الملوّنـة. كان الكمان مثل نجمة كبيرة تشـعّ بلهبٍ أحمـر وأزرق وأصفـر وأبيـض. كان يسـتحضر بقلـبٍ متوثِّـبٍ كرنفـالاً للأزهار.

«تفضّلا بالدخول»، رجاهما السمّاك العجوز بوقارٍ خالص حينما أنهى جاكوب وصلته الموسيقيّة. أُجلسا في الداخل وجُلب لهما الطعام، فسعادة العائلة أضحت لا حدود لها بحلول الموسيقى في بيتهم. وبعد أن عزف جاكوب بضعة أنغام إضافيّة ضرب المُضِيف العجوز فجأةً على الطاولة.

«إبني في البحر الآن»، هتف ونظرة ذات مغزى تطلّ من عينيه. «أنا اليوم من يقرّر هنا. سورينا!».

لكن زوجة الإبن كانت في غاية اللّطف، فتخلّى العجوز عن غضبه. نهض من مكانه في نهاية الطاولة منتشياً، وقف هناك متلفّعاً بشملة منزليّة بيضاء وقبّعة من الصوف، شعر رأسه ولحيته كانا في صُفرة القَشّ، وها هو الآن الرجل الذي كانه في الأيّام الخوالي:

«سورينا، أحضري الزجاجة!».

هو - اي! تسابقت أصابع جاكوب بسرعةٍ فوق الكمان، ثمّ تحوّل بعدها للحنٍ ناعمٍ، متودّدٍ في الوقت الذي جُلبت فيه الزجاجة إلى الطاولة.

كانت الخمر رقراقة. وذلك المساء لم يعد ذلك الكوخ يقع في درب الرمال الراحلة كملاذٍ حقير من عواصف الخريف والظلام. ضوء الحطب المحترق كان يشعّ مثل شمس، وثمّة دفء جنوبيّ يتدلّى من السقف. قريباً ترتفع الصالة كلّها مثل مركبة ناريّة، حيث يجلس فيها جاكوب سائساً بسيمائه المتهوّرة وعزفه السائط على الكمان، فيما السمّاك العجوز يتمايل فوق مقعد المركبة، منتشياً بشبابٍ جديد، بينما وجوه إيدا والأطفال الملائكيّة ترفرف فوق تلك المحارة المرفوعة في عنان السماء. البحر يغلي خارجاً على الساحل والعاصفة تطارد الرمال المتطايرة باتجاه زجاج النوافذ، لكنّ النجوم هي التي كانت تعبُرُ فوقهم عندما كانوا منطلقين في أُبَّهةٍ عبر جميع السماوات المتلألئة السبع.

في صباح اليوم التالي إستيقظ جاكوب مبكّراً وهو في حالة يرثى لها. أيقظَ إيدا وانسلاّ في الطريق بعيداً عن العائلة التي ما زال أفرادها نائمين بوجوه خالية من التعابير. واصلا سيرهما منحدرين على امتداد الساحل.

إستحوذَ الخريف عليهما، بلغا الأيّام القصيرة، القَنوطة، تلك الأيّام التي يشعر فيها المرء أن كلّ الطيور المهاجرة قد غادرت البلاد، والبرد يدبّ في الهواء.

ذات يوم، فيما كانا يجولان بعيداً عن الساحل باتجاه الريف، حيث أمكنهما طوال الوقت أن يلمحا كنيسة «فيسترفيج»، حيثُ هطلت بواكير الثلج الأولى لهذا العام.

في قلعة سوندربورغ

لكن الربيع والصيف حلاّ من جديد.

واصل جاكوب وإيدا تجوالهما في أرجاء الدنمارك. شعرا كأنّ كلّ قطعة من هذه البلاد كانت تتوق إليهما، كان وقتهما مكتظّاً بالحركة دون راحـة، رغم أنهما قد نسـيا تقريباً هدفهما. جالا في البلاد لسـبع سـنين. كلّ الناس كانوا يعرفونهما ويسـتقبلونهما بالترحاب حالما يصلان إليهم. لكنّهما كانـا معروفين أكثـر في المنطقـة المحيطة بالخليـج، حيث قضيا شـطراً كبيراً مـن العام هنـاك. منذ ذاك الحيـن رويت عـدّة حكايات عن العـازف جاكوب، الـذي ظلّت ذكراه طويـلاً في ذاكرة الأهالـي، كما أنّ أغانيه بقيت تتردّد لعدّة سـنين على ألسنة الناس. كان هذا الرجل عظيماً، جاكـوب، كان بارعاً في العزف والغنـاء، ثمّة فنّان يقفز مـن داخله ما أن يأخذ السُّـكْرُ بتلابيبه، وهذا مـا يحدث في غالب الأحيـان. يروي الناس عنـه حكاية تقـول إنّه عزف فـي حفل رقـص ذات ليلة في بسـتان قريب من «بيورنسـهولم» وكان ثملاً من شـراب الشـعير، وحين عثروا عليه في صباح اليوم التالي كان قد فقد قوسـه، لكنّ ذلـك لم يوقفه، تناول عصاه وصمّغها ثمّ عزف بها على الكمان، حتّى أن الناس أخذهم العجب. لقد كان مميَّزاً!

لكن بعد ذلك لم تطـأ أقدام جاكوب العازف وإيـدا منطقة الخليج لسـنةٍ من الزمان. إفتقدهم النـاس أيضاً في المناطق الأخـرى من البلاد، ولـم يعودا لتلك البقاع ثانية منذ ذلك الحين.

كان جاكوب في الحقيقة قد توصّل أخيراً إلى معرفة الموضع الذي كان مايكل ثوجرسن، جَدّ إيدا، يقيم فيه، فشدّا الرحال إلى هناك مسرعين على الطريق المؤدّي نحو جزيرة «ألس». كانت إيدا قد بلغت الآن التاسعة عشرة من العمر، لذا فإن الوقت قد حان لأن تكون في عهدة الشخص المناسب.

في أوّل أيّام شهر أكتوبر أبحر الإثنان عبر مضيق «ألسوند». بدت الغابات مُقنطَرة، غائمة الأطراف من هناك، القلعة الحمراء تضطجع عارية على الشاطئ. وقبيل أن يصلا الساحل حلّق سربُ حمام كالثلج أبيض من فوق البرج وقذف بنفسه فوق المضيق، ظلّ يتلاشى ثمّ يظهر باتجاه السماء الشاحبة الزُّرقة. تابعها جاكوب ببصره وأومأ برأسه إلى إيدا، فقد كانت رؤيتها فألاً حسناً. جلسا مبتهجين في القارب وهما يحتضنان صُرَّتيهما، تطلّع جاكوب إلى قبقابه، حيث كانت الفردة الأولى قد بليت لكثرة التجوال، لقد حان أجلها.

لكن الحظّ لم يحالفهما في الحال، فقد مُنعا من الدخول إلى القلعة في اليوم الأوّل، فتوجّب عليهما البحث عن مأوى في البلدة. في اليوم التالي أنجز جاكوب الكثير إذ استطاع التحدّث مع آمر القلعة، بيرترام اهلفيلد، فوعده أنّه سوف يفكّر في الأمر. هنالك العديد من أصحاب المراتب الحكوميّة التي يتوجّب على الإنسان المرور عبرهم إذا أراد الدخول إلى الملك. أخيراً، في اليوم الثالث إنسلاّ عبر الجسر المتحرّك وسُمحَ لهما بالعزف لحرس القلعة في الفناء الخارجيّ. لكن في النهاية، عند وقت الظهيرة، قابلا آمر القلعة ثانية، مشكلة ثانية برزت، فمايكل ثوجرسن، الذي كان هدف مجيئهما إلى هنا، يهيئ الآن نفسه للرحيل.

إستطاع الإثنان رؤيته. سمح لهما آمر القلعة بالدخول إلى فناء القلعة، وفي اللحظة التي وصلا فيها كان مايكل على وشك امتطاء

جواده. كان الرجل العجوز واقفاً أسفل السلّم، وعلى مسافة درجتين إلى الأعلى كان الملك يقف ويتحدّث إليه. ظلّ جاكوب وإيدا واقفين تحت قنطرة البوّابة غير راغبين بالتقدّم طالما كان الملك موجوداً هناك.

مرَّ بعض الوقت قبل أن يشرع مايكل بالرحيل، كانت ثمّة إستعدادات كثيرة. الحصان يرفس ويقدح على أحجار الجسر، صوت الملك يتردّد صداه في جنبات الفناء الشاهق، ثمّ لا شيء بعد ذلك. كان مايكل في بِزّةٍ جديدة وأنيقة، بنطال أخضر وسترة قهوائيّة. جالَ حول حصانه مرّة بعد أخرى ودسَّ إصبعه تحت حزام السَّرج وتحقّق من اللِّجام، كان جواداً فتيّاً ومضطرباً. ومايكل، الذي أضحى واهن الرُّكبتين الآن، لا يبدو عليه أنّه كان متلهّفاً على امتطائه.

«لعلّكَ انتهيتَ الآن، يا مايكل»، صاحَ الملك وضحكَ ممتعِضاً. «حاول الركوب الآن!».

أحنى مايكل رأسه بأدبٍ واختتم تفحّصاته. حان وقت العمل الآن. المساعد الذي كان يقف عند الشَّكيمة ويمسك بالحصان مدَّ نفسه بقدر المستطاع لكي يعين مايكل بيدهِ على الصعود وألقى في ذات الوقت نظرةً خفيّةً إلى الأعلى باتجاه نافذة مفتوحة في المطبخ كانت تطلّ منها بضعة وجوه لفتيات كنّ يختلسن النظر من هناك متضاحكات. أدخل مايكل قدمه في الرِّكاب ورفع نفسه بطيئاً وثابتاً إلى أعلى.

«إيّاكَ أن تقع من الجانب الآخر!»، هتف الملك بضحكةٍ قلقة. كلاّ، لقد استقرّ مايكل سعيداً على السرج. وحالما أخذ مكانه على السرج ضرب بيده على قبّعته وعدّل من وضعها ثمّ أدار بجلالٍ مُهانٍ وجهَهُ ذا اللحية البيضاء نحو الملك.

«إذن وداعاً يا مايكل»، قال الملك متأثّراً بعض الشيء. «دعنا نرَ الآن عودتك إلينا سالماً من جديد».

«بالتأكيد، يا صاحب السموّ»، أجاب مايكل. قبض على الزِّمام زافراً وفتَل شاربه الأبيض عالياً تحت أنفه. أفلتَ المساعدُ الحصانَ فانطلق يخبّ بملء سرعته. تأرجح مايكل بوهنٍ فوق السَّرج.

«كلاّ، لن تسير الأمور على ما يرام»، صاح الملك ضارباً على الدَّرابزين. «كلاّ، كلاّ، كلاّ!». لكنها سارت بالفعل. صلّب مايكل من نفسه وسيطر على مِقْوَد الحصان. كان الحارس يمسك بمصراع البوّابة مفتوحاً له، فانطلق عبرها بشكل مستقيم مثل مِدَكّ البندقيّة، مجتازاً جاكوب وإيدا. أُغلقت البوّابة مباشرة بعد خروجه منها وسُمع حصانه وهو يخبّ عبر الفناء الخارجيّ ويهدر باتجاه الجسر المتحرّك.

خيّم السكون في الفناء، استدار الملك على السلّم ليدخل. وقف وهمهمَ بشيءٍ لنفسه، حينها وقعت عيناه على جاكوب وإيدا.

«من أنتما؟»، سأل الملك وهبط من السلّم ونظرته المصوّبة تكاد تخترقهما. وقف أمامهما وشرع ينقّل النظر بينهما.

لم يجب جاكوب لأنّه فقد رباطة جأشه. إيدا كانت واقفة بوجهها اللطيف الخالي من التعابير وهي تنظر مباشرة نحو الملك. تنشّقَ من أنفه بنشاط ونظر بتفحّص نحوهما.

«من أنتما؟».

«نحن فنّانان متجوّلان»، تمتمَ جاكوب. سحب أنفاسه واسترجع شجاعته من جديد. «نحن من ذلك النمط الذي غالباً ما يأتي إلى هنا، هذه الفتاة الصغيرة في الواقع حفيدة لذلك الذي انطلق توّاً بجواده عبر البوّابة».

«همم، حسناً. أحد أقرباء مايكل؟ لعلكما جئتما لزيارته؟ إنّه لأمر مؤسف أن يتوجّب عليه الرحيل في نفس الوقت الذي جئتما فيه. لِمَ لم تتحدّثا إليه؟».

«كلاّ يا إلهـي اللطيف، كلاّ!»، إبتسـم جاكوب بـأدبٍ جمٍّ وخفض نظرته إلى الأرض راسماً بعصاه دائرة على الرمل.

«بلى، بلى!»، قال الملك مواسـياً. ظلاّ صامتيـن فيما كان هو ينظر إليهما.

«نعـم، حسـناً»، هتف ثانية بصـوت أقوى. «لم تحصـل كارثةٌ حتى الآن. سـيعود مايكل من جديـد. يمكنكمـا... يمكنكما البقـاء هنا لحين عودتـه، سـنتحدّث مع بيرترام بشـأن ذلك. تعـالا من هذا الطريـق. أنتما عازفان إذن؟».

«بلـى!»، ضرب جاكـوب على حقيبـة كمانه في فـرحٍ خجول فيما كانا يشـرعان بالتحرّك. سـار الملك العجـوز أمامهما وتنحنـح في مزاج رائق. «هوه! سيكون كلّ شيء على ما يرام. هوه، هوه!».

وقابلا آمر القلعة. جاكوب وإيدا كانا يقفان باحتشـام على مسـافةٍ، فيما الملـك يتحدث عـن قضيتهما. أصغى بيرتـرام اهلفيلد في سـماحةٍ وبأقصى قـدر من الهـدوء. كان أطول من الملـك، لكنّه لم يحنِ نفسـه، كان الملك يرفع رأسـه ناظـراً إليه فيما كان يتحدّث في حماسٍ ويمشـي نحو الجانب الآخر منه، وكان له ما أراد فشكره الملك بحرارة، فيما ظلّ بيرترام اهلفيلد محتفظاً بفتور المرؤوس البارد.

شـخصياً كان الملك يسـير بحذائه الـرثّ في الفناء الخارجـيّ مهتمّاً بإيواء جاكوب وإيدا في أحد المباني هناك. في المساء كان عليهما العزف للملك في بهو القلعة، حيث كان يقيم أغلب الأوقات. قدّموا لهما الشراب الفرنسـي، فعزف جاكـوب ألحانه الراقصة بـكلّ فنّه الذي يجيـد. بدا وقع الموسـيقى غريباً جداً بين الجدران هناك. كان الملك مرتاحاً، ثم انقبضت نفسـه فجلس واضعاً يده تحت خدّه. الشموع تشـتعل على الطاولة، حيث كان الكتاب المقدّس المشبوك بإبزيم موضوعاً وهو مفتوح.

بدأ الشراب الفرنسـي يفعل فعله في جاكوب. ثمّة خيط من الوهن بـانَ على وجهـه حينما أُكرِه على رقـص البولكا. كانت إيـدا تقف نحيلة وجميلة إلى جانب الكرسيّ مع مثلّثها.

عند فاصل الإسـتراحة سـأل جاكوب عن موعد رجوع مايكل ثانية بشكل عابرٍ لكي يكون بإمكان الملك تجاهل السؤال إذا لم يكن ملائماً. لكنّ الملك ردّ مباشرة أنّه سيغيب لعشرة أيّام أو أكثر قليلاً.

صمت الملك إثر ذلك، وفضّل جاكوب ألاّ يقول شـيئاً. لعب على كمانه ما يتذكّـر من ألحان. ذات مرّة حينمـا كان مثبّتاً الكمان تحت ذقنه ويفكّـر في لحـنٍ جديـد إختلس النظـر إلى ملامـح الملك المسـترخية، المهيبـة. عنـد تلـك اللحظـة كان الملـك يحـدّق إلـى فـوق ولاحظ أن جاكوب كان رجلاً معذَّباً ومحطَّماً.

«ألـن تعـزف لنا المزيـد؟»، سـأله الملـك بحميميّـة، مسـتغرقاً في أفكاره.

عـزف جاكـوب ثانية وقـرع علـى الأرض موقّعـاً بكعبه. تشـو! إنّه فالس القباقيب.

ظلاّ فـي رعاية الملـك طيلة الليل، كان يشـعر بالوحـدة، فهذه هي المرّة الأولى منذ تسع سنين التي يكون فيها مايكل بعيداً عن القلعة.

نفخ الحارسُ في النفير معلناً إنتصاف الليل من أعلى البرج قبل أن يُؤذَن لجاكوب وإيدا بالإنصراف من بين المسـتمعين، وفي تلك السـاعة كان كلاًّ من الملك وجاكوب غاية في السُّـكْرِ. ألقى الملك بذراعه على كتف إيـدا قبل أن تمضـي، ليختبر شـخصها بجرأةِ عجوز خبير وكياسـةٍ بالغة.

اجتاز جاكوب وإيدا عبـر جميع أبواب القلعة الموصدة التي فتحها لهمـا حرّاس القلعة الذين كانوا متجهّمين ببراعة. حارس البوابة السـفلى

كان أحسن مزاجاً، أضاء بمِشكاته وجه إيدا فرأى كم كانت رقيقة وبيضاء. حينها رفع المِشكاة بمكرٍ في الهواء لكي يجعلهما يقفان في العتمة، وأمسك بإيدا من وِرْكها بقبضته الضخمة. رمت بنفسها جانباً، وهنا إنفجرت منها زمجرة، عميقة وبدائيّة كأنها خرجت من حيوانٍ مجهول، تردّدَ صداها تحت قوس البوّابة وسمُعت في جميع أرجاء القلعة.

«يا للسيد المسيح!»، جثا الجنود على رُكَبهم وانطلقوا متعاقبين نحو البوّابة. فُتحت جميع المصاريع والنوافذ في أعلى وأسفل القلعة الكبيرة، ونادت أصوات مرعوبة أثملها النعاس متسائلة عمّا يحدث. لم يهدأ الإضطراب إلاّ بعد وقت طويل من وصول جاكوب وإيدا إلى حجرتهما سالمين.

سمع الملك تلك الزمجرة أيضاً، كان واقفاً عند النافذة آنذاك مستطلعاً الطقس، فقفز مرتدّاً إلى الوراء داخل حجرة البرج وقد اقشعرّ شعر رأسه. إنسلّ نحو الباب ومدّ يده بسرعة مستجلياً فيما إذا كان مغلقاً، بلى، لقد كان محكم الإغلاق موصداً. آه، تنفّس الصعداء، مضى مرتعداً نحو مقعدٍ وألقى بنفسه عليه منهَكاً حدّ الموت. فتح الكتاب المقدّس أمامه ليقرأ والشمعة قريبة منه. بين آونة وأخرى كان يرفع رأسه عن الكتاب دون صوت ويحدّق عبر لهب الشمعة الموّار بعينين متحجّرتين مرعوبتين.

رويداً رويداً هدأت نفسه، جازف بالنهوض عن الطاولة، أوقد شموعاً إضافيّة وتوجّه ليقرأ في سِفْرِ راعوث، جلس عاقد العزم ورأسه الكبير الأبيض بين الشموع حتى قرأه إلى منتهاه. وحين انتهى من القراءة عاودته الأفكار التي كانت تقلقه كلّما استغرق في الكتاب المقدّس وتسحبه إلى التفكير في العالم الذي هو فيه، كلّ أصحابه موتى أو مبعدين، لقد تساقطوا جميعهم عنه، وكان ذلك منذ زمن طويل.

جلس قليـلاً ودفن يديه في شَـعره. أطفأ الشـموع كلّهـا عدا ثلاث منها. جثا على ركبتيه في مهابةٍ وسـط غرفة البـرج وتلى الصلاة الربّانيّة، همس بصوت شـبه مرتفـع وبطيء إلـى أن قضى دَينه. مضـى بعدها إلى السـرير تاركاً الضوء يشـتعل واضطجـع منفـرج اليدين بعينيـن هادئتين، مستيقظتين.

مضت على إقامته في هذه الغرفة إحدى عشـرة سـنة إلى الآن، هنا كان يسـير في الأشهر الأولى من حائطٍ إلى حائطٍ مثل حيوانٍ كاسر حين أصابـه الحبس بالحمّـى. هنا تعرّقَ، هنا شـرب وأكل مثـل مجنون وغطّ في نومه مثل سـكّيرٍ ومعتوه في المساء ليستيقظ في الصباح تحت لعناتٍ سليطةٍ. هنا سـار رافساً كلّ ما يعترضه بين الكراسـي المتناثرة. هنا قذف بإبريق القصدير فسقط مسطَّحاً عن الجدار. هنا سار يسمع صوت أنفاسه تتردّد من منخريه المشعرين.

تعابير وجه الملك تتغيّر طوال الوقت حينما كان يضطجع هناك في فجوة الجدار ويحدّق باتجاه الشـموع دون أن يسـتطيع النوم. ثمّة ظلال مُرَّة على حاجبه، لكنّه رقد بعدها هادئاً من جديد.

فجـأة ضحـك، وكانـت ضحكـة عميقـة، حنونة، مـن عهـد الأيّام الخوالي. خطرت في ذاكرته فتاة شـابّة، كان ديتلو بروكدروب قد سرّبها إليه هنا قبل أحد عشر عاماً، حينما كان مستلقياً في سريره غير راغبٍ في النهوض. لا ينكر أنّه كان سـعيداً مع تلك الفتـاة التي كانت جميلة فعلاً. لكنّه كان إثماً، كانت خطيئة فظّة. فليحمِها الربّ أينما كانت!

جذب الملك حسـرةً عميقة ونظر بعينين مترقرقتين نحو الشـموع. كان يأمـل بالإسـتغراق في النـوم عمّا قريب، بحمـدِ الربّ الـذي حرّرنا بكَرَمٍ من الضِّيْقِ وأحال قلّةَ صبرِنا إلى هباء.

كارولوس

إجتاز مايكل ثوجرسن الجسر المتحرّك على ظهر حصانه، لكنّه حين ولج إلى الهواء الطلق شعر بالدُّوار وكاد أن يترنّح من على ظهر الحصان، دوّخه مشهد كلّ هذه الجهات، شعرَ وكأنّه سيتمزّق إرْباً إرْباً. قطع المسافة القصيرة المنحدرة نحو العبّارة، نادى على القارب فأُصعد فوق متنه. لكنّه لم يقطع مسافة طويلة ذلك اليوم، كان عليه أن يأوي لخان العبّارة مريضاً وشبه مضطرب، حيث توجّه مباشرة إلى السرير. صباح اليوم التالي إستردّ شجاعته من جديد، صَرَفَ جزءاً من ماله في الخان وبدأ ينظر بمنظار أشدّ إشراقاً إلى الرحلة كلّها التي كان متخوّفاً منها منذ أن اتُّخذ القرار بشأنها. شربَ هو وصاحب النُّزل معاً قليلاً قبيل الظهيرة. لكن بعدها استعجل مايكل الذهاب وأمرَ بتجهيز الحصان للمسير.

«أنا في الطريق إلى لوبيك»، صرّح بذلك بشيء من الأهمّية. «أمامي مسافة طويلة لأقطعها. إنها مهمة من طرف الملك».

أكثر من ذلك لم يفه بكلمة، إنتحلَ هيأة رجل حكوميّ متكتّم، صاحب قرارٍ.

«قدّموا الجواد!».

لم يمكن لصاحب النزل أن يعرف أكثر، لكنّه كان أيضاً غير مكترث على كلّ حال. كان مايكل ثملاً إلى حدّ ما، إمتطى الحصان وعيناه تدوران وقذف بقطعة نقد كبيرة على التراب لغلام الإصطبل.

بعدها، ويا للعجب، إنطلق العجوز الصَّلب على حصانه مستعرضاً مهاراته في الجري، إنساب على حصانه منحدراً على الطريق العام مثل عربيدٍ خبيث.

مضى مايكل في رحلته عاقد العزم، توقّف عند كل نزلٍ صادفه على الطريق. وفي كل مكان حلّ فيه تركهم يعرفون أنّه في إرساليّة مهمّة وملحّة من طرف الملك. دهش الناس من هذا الرجل العجوز المتهالك وتساءلوا فيما إذا كان كاردينالاً مخبولاً منزوع الرتبة أم كولونيلاً مُجازاً أو ربمّا مُشَعْوِذ أسواق. كان يبدو بجبهتهِ النَّزعاء مثل رجلٍ رفيع الشأن، لكنّه كان يكرع مشروبه مثل جنديٍّ مُكلَّف. كان مستحقّاً للإحترام ومع ذلك فقد كان كلّ واحد منهم يضحك منه خفيةً. أيّ مهمّة يتحدّث عنها هذا؟ ينبغي أن تكون القضية ملحّة فعلاً وتتطلّب خبرة واسعة لكي يرسلوا فيها رجلاً بالكاد يستطيع التماسك على ظهر جواد. لكنّهم أقروا جميعاً أنّه كان كتوماً لمهمته ولم يستطع أحد منهم الفوز بتلميحةٍ واحدة عنها.

بعدما قطع مايكل في مسيره بضعة أيّام ضربت الأمطار والعواصف ضربتها، صَفَرَت الأوراق في الغابة الصفراء، لم يقدر على تحمّل الطقس فتوقّف عند خانٍ طرح نفسه فيه على سريره مريضاً. خال الجميع آنذاك أنّه سيلقى حتفه، لكن كلاّ، إستقام على ساقيه مبّكراً صباح اليوم التالي وتسلّق مترنّحاً السرج، إنطلق عبر جنوب «يولاند» كما هو مكتوب في العنوان، ووصل أخيراً ميّتاً أكثر ممّا هو حيّ، إلى «ليبك».

مضى مايكل نحو خان «الجزمة الذهبيّة». بقية اليوم قضاها في الإسترخاء والأكل بشكل حسن ثمّ نام حتى ظهيرة اليوم التالي، بعدها تسكّع في قبو بهو المدينة. لكن تلك كانت خاتمة مُتَعِ الرحلة الشخصيّة بالنسبة إليه، الشيء المهم الآن هو إنجاز مهمته. سأل مضيفه في الخان

عن فيلشنستراس.

فيلشنستراس! حدّق صاحب النزل فيه بحاجبين مقوّسين. همم! حسناً، يمكنه في الواقع أن يدلّه على المنزل. إنّه هناك ثمّ من هناك. وتحرّك مايكل من مكانه. كانت الظهيرة قد مضى عليها وقت طويل. كاد ألاّ يفلح في العثور عليه وتبيّن أنّه كان يسير في زقاق ضيّق، بدأت العتمة بالزحف عليه. عالياً، حيث النوافذ، كانت ثمّة فتيات شابّات ممتلئات يجلسن. أكثر من واحدة منهن نادت عليه بجذلٍ وكأنّها إلتقت ثانية بصديقٍ مُفتقَدٍ حميم. لم يعر مايكل إهتماماً لأيّ واحدة منهن. في آخر المطاف عثر على المنزل الذي كان يبحث عنه. كان عبارة عن غرفةٍ يتيمةٍ فسيحة من دون أيّ نوافذ لها كوّتاه في أعلاها. فوق لوح الباب عُلِّقَ طستٌ من النحاس ملوّح بالصدأ. كان الباب مغلقاً، أمسك بمِقْرَعة الباب وتركها تقع.

مرّت ثوان عدّة، لكنّ مايكل كان صبوراً. أخيراً سمع خطوات في الداخل وخشخشة مفتاح يولج في الباب. في اللحظة ذاتها تذكّر مايكل بشكل غريب ما كان قد فعل في تلك المرّة قبل سنين عديدة، عديدة، حينما همس داخل ثقب مفتاح كنيسة «سانت نيكولاي» في كوبنهاغن. إنفرج الباب قليلاً فأبصر مايكل وجهاً بنظّارةٍ كبيرة سوداء.

ـل أنت الأستاذ زكريّا؟»، سأله مايكل.

«نعم يا سيّدي»، همس بنعومة.

صمت كلاهما قليلاً. ثمّ شرع مايكل في نبرة غامضة بتوضيح موقفه. لكن ما كاد زكريّا يسمع إسم الملك بصعوبة حتى انحنى بجلال وفتح الباب على اتّساعه.

« أدخُلْ، أدخُلْ!»، صاح مستحّثّا إيّاه. «أوه، هكذا يا صديقي العزيز!».

خطا مايكل فوق العتبة فأغلق زكريّا الباب خلفه من جديد. كانا يقفان في العتمة فقدح زكريّا ناراً وأشعل قطعة خشب ثمّ تقدّمه نحو السلالم.

«إتبعني، هناك ضوء أكثر في الأعلى».

صعدا نحو صالة واسعة يتسرّب منها الضوء عبر النافذة نحو الفناء الخارجيّ، لكنها كانت بالرغم من ذلك مُقبِضة. لمح مايكل هيكلاً عظمياً لتمساح وبضعة طيور محنّطة معلّقة تحت السقف، كانت الأرضيّة مغطّاة بالكتب والملابس العتيقة. ثمّة كرة أرضيّة تنتصب على الطاولة بين الأوراق المتراكمة المُغَبَّرة. رفوف الجدران تكتظّ بزجاجات من جميع الأحجام. كانت رائحة طبّية تافهة ومقرفة تفوح في الصالة، شبيهة برائحة الصَّدَأ أو الفُطْر.

«كلاّ، تخيّل!»، صرخ زكريّا متفاجئاً بحماس. «تعال واجلسْ هنا!، إذن الملك كريستيان أرسل بلاغاً إليّ، أنا المعلّم المتواضع! بالتأكيد إنّ ما يحتاجه الملك منّي ليس مهارتي في الجراحة!».

«كلاّ!»، أكّد مايكل بحزم.

ترك زكريّا جمجمته الصفراء تتأرجح إلى الأمام والوراء وشرع يدمدم.

«لقد أصبحنا عجوزين يا مايكل ثوجرسن»، قال له مُفاجِئاً. كان جالساً وقد مدّ رأسه إلى الأمام متفحّصاً مايكل بنظرة ثابتة.

جفلَ مايكل ورفع بصره إلى الأعلى فاغراً فمه:

«كيف. هل تعرف...؟».

ترك زكريّا رأسه يتأرجح من جديد مستمتعاً بانتصاره.

«نعم!»، قال له. «نعم! لكن هذه هي نهاية المزحة»، ثمّ اتخذ مظهراً جادّاً. «إذن!».

صمتـا لبضع دقائق. حـدّق مايكل نحـو الأرضيّة هازّاً برأسـه. هذا الرجـل ينبغي على المـرء أن يحافظ علـى صداقة جيّدة معه. ترك رأسـه مائلاً قليلاً ونظر ببراءة نحو زكريّا.

«عجائز، أوه! إنّ الكِبَرَ لا يبدو عليك كثيراً. أنا تجاوزت السـبعين، ولا أظنك قد بلغت هذه السنّ الآن».

في هذه اللحظة قفـز زكريّا فوق الأرضيّة وأطلـق قهقهةً عنيفةً مثل قوقأة الدجاج، جال بضع خطوات في المكان، فجأة ضحك بفظاعةٍ أشدّ وفرقع أصابعه أمام وجه مايكل.

«أنا ما زلتُ شابّاً!».

وفيما شرع يسـير بخطى أكبر، إقتبس لمايكل شعراً وهو يعوي من البهجة:

Mugit et in teneris...

ثمّ نعق من الضحك:

Formosus...

بعدها جالَ مُلَقْلِقاً وهو يَصفِرُ:

Obambulat herbis.

مرّ وقـت طويل قبـل أن ينهي زكريّـا موجة مرحه مع أبيـات أوفيد الدامية.

جلـس مايكل متضايقاً وهو يغسـل يديه الهرمتين بالبـراءة. فكّر في الرسـالة التي عليـه تبليغها، فيمـا كانت عيناه تختلسـان النظـر إلى الكرة الأرضية المنصوبة على الطاولة.

قنصت نظرات زكريّا الشرهة لمحاته فقوّم من ثرثرته.

"هل يرغـب الملك أن يستعلم عن بروجٍ سـماويّة؟"، سـأله على عجل.

"نعم"، أقرّ مايكل ذلك في تواضعٍ كهلٍ ورباطة جأش. هذا الرجل على علمٍ بكلّ شيء أيضاً.

"تحدّثْ!"، هتف زكريّا.

فتحدّث مايكل بمنتهى الإيجاز عن فحوى مهمته. الملك وهو تخاصما مع بعضهما بشأن مسألة فلكيّة قبل حوالي نصف عام. في أورشليم إلتقى مايكل براهبٍ ألمانيّ تحدّث له عن قناعته الراسخة بأنّ الشمس لا تدور حول الأرض، وإنّما بالعكس. فيما بعد سمع مايكل الشيء ذاته في إيطاليا. وذات يومٍ، فيما كان يتحدّث للملك عن أسفاره، أتى على ذكر هذا الموضوع. ثارت ثائرة الملك فجأة وأصبح عصبيّاً جدّاً. منذ ذلك الوقت صارا يتخاصمان كلّ يوم تقريباً. أقرّ مايكل مرّة أخرى الآن بمعقوليّة الأمر الذي رواه الراهب، وهو يوافقه على ما قال حينما كانا يغذّان السير فوق ظهور الجِمال عبر الأناضول متتبّعين مسارات النجوم خلال الليل. علاوة على ذلك فثمّة تجربة شخصيّة قام بها بنفسه تشبه ذلك إنّما بطريقة أخرى. علّمته حياته الشيء ذاته حقّاً، فبدأ يؤمن بأنّ الوجود كلّه يدور حول شخصه وحدَه، وشيئاً فشيئاً لاحظ أنّ الأشياء تتمظهر على هذا المنوال. لكنّ الملك لا يتقبّل أن يؤمن مايكل بذلك، لذا فقد كان حانقاً.

صمتَ مايكل ونفخ قليلاً بعد أن استولت على تفكيره فكرة الظُّلْمِ الذي عاناه إلى حدّ ما بسبب هذا الموضوع. حدث أكثر من مرّة أن تسلّل الملك أثناء الليل وجَلَدَ مايكل وهو على سريره في الظلام حينما يفشل في تقديم الحُجَّةِ أثناء النقاش في النهار.

لذلك إتفقا أخيراً على إحالة القضية إلى زكريّا للبتّ فيها، لأنّ سعة علمه كانت ذائعة الصِّيت.

ضيّق زكريّا عينيه. أسلوب رواية مايكل الخامد العجيب إستحوذ

عليه تقريباً. مثل هذه الهرطقة المريعة، التي قلبت قبّة السماء رأساً على عقب، سيستمتع هو شخصيّاً بها بشكل مختلف. نهض من مكانه وجال بعجالة في الصالة، وضع نظارته وقلّب طويلاً في أوراق مختلفة. ثمّ رجع أخيراً إلى مايكل من جديد، تمظهرَ بمظهرِ رجلٍ حازم وبارد الدّمِ ثمّ هتف باللاتينيّة:

"طيّب، إذن سنشرع في تجربة. تعال غداً من جديد".

نهض مايكل بصعوبة شاكراً إيّاه. كان على وشك المغادرة إلاّ أنّه تسمّر واقفاً وترك نظرةً طويلةً باحثةً تنزلق في أرجاء الصالة على كلّ الزجاجات الغريبة هناك.

"سأرافقك إلى الخارج".

رمق مايكل الزجاجات وحرّك فمه. بدا وكأنّ زكريّا لم يعد يستطيع قراءة الأفكار أكثر. تحسّر وضحك بخفوت:

"أنا جدّ عطشان يا معلّم، ألا تعتقد أنه من الممكن...؟".

إعتذر زكريّا كثيراً، لم يكن لديه سوى الأدوية في المنزل. كان مجروحاً بشأن الذوق الطبّيّ لمايكل فشرع يعزّيه بالحديث في نبرة خالية من الرنين عن زهد العلماء وبساطة عيشهم. ومع ذلك فقد أخرج إبريقاً وقدحاً نحاسيّاً وملأه إلى المنتصف. تذوّق مايكل الشراب، كان شراباً فرنسياً قويّاً من صنع إسباني، ثمّ أسعده الحظ بعدها بتذكّر شعرٍ لهوراس. هزّ زكريّا رأسه منتشياً وتناول جرعة لنفسه. لكن بعد أن عبّ جرعة من الشراب الفرنسي تلمّظ بشفتيه:

Gigigi!

أفرغا الإبريق. إستعاد مايكل لاتينيّة شبابه وتركها كما هي من دون ضمائر، لكنّ الإقتباسات تدفّقت من زكريّا. قصَّ حكايات بذيئة من سنواته الدراسيّة في "لايبزج"، فرضَ سماعَ طُرَفٍ صغيرةٍ فجّةٍ على

مايكل، صرخ في غمرة الضحك وسـرعان ما أضحى مسعوراً تماماً. من حين إلى آخر كانـا يقرعان الأنخاب على نحو كلاسـيكيّ. حاول مايكل تقليد زكريّا ليعطي صورة خرّيجٍ سـكّير بأحسن ما يستطيع. لكنه كان قد نسـي الكثير وأصبحـت دعاباته متخشّـبة مثل مفاصله. كان جالسـاً هناك مثل أرغنٍ عتيقٍ متآكلٍ ذي منفاخ مثقوب، وحين يدعس زكريّا عليه ربّما يطلـق نغمةً في المكان الصحيح، لكنّه غالبـاً ما كان ينفث الهواء كذلك. خيّـم الظلام وأخذت الطيـور المحنّطة تتضخّم وتصفـق بأجنحتها تحت السقف.

صـار زكريّـا ثمـلاً وقَنوطـاً. وقـف فـوق الكرسـيّ وتـلا جميـع "التحوّلات"[1] الرائعة عن "أوربـا وجوبيتر". لكن فجأة أخذ مايكل ينظر نحوه مرتجفاً في وَرَعِ رجلٍ عجوز بسـيط وأصبـح رَزيناً إلى حدّ ما. هل كان بمقدوره مسايرته هنا أيضاً؟ ما هذا الدَّنَس الذي يخوض فيه؟

"هل تعرف من أنا؟"، زعقَ زكريّا.

كلاّ، لم يكن مايكل يعرف.

"أنـا من حلّق قريباً من الشـمس. لقد كنتُ في موضـعٍ ملتهبٍ. ألا تستطيع رؤية أنني مُحْرَقٌ؟".

وافقـه مايكل علـى ذلك، فلـم تكن ثمّة شـعرة واحـدة على رأس زكريّـا الأصفر الضارب إلـى الحُمرة، أو على يديه. حتـى جفناة لم يكن عليهما أهداب. جلده كان منكمشاً وصقيلاً مثل نَدَبةٍ شفّافة.

"حدثَ ذلك في ماغديبورغ قبل اثنتي عشـرة سـنة"، ضحك زكريّا فجأة بخفوت وبصوت مزعج. "هناك اقتربتُ كثيراً من النار. لكنّا استدرنا بعربتنا راجعين".

---

(1) التحوّلات: عمل شعري عظيم ألفه الشاعر الروماني أوفيد، يتمحور حول المثيولوجيا الإغريقيّة والرومانيّة. (المترجم)

ضحك بصوتٍ مثل ضربةِ كُرْباج. إستجمع نفسه وصمت بجدّية بعينين مُحرِقَتين مُوغِرَتين. كان مايكل يجلس وهو مرتبكٌ تماماً.

"هل يمكننا الصعود إلى فوق ورؤية العرّاف؟" سأله زكريّا. "ماذا تقول؟ يمكنك بالتأكيد أن تكتم السرّ يا مايكلي اللطيف. تعال!".

تمايلا وهما يتسلقان السلالم ودخلا إلى حُجيرةً صغيرة في الطابق الأعلى. كانت معتمة وشعرَ مايكل تقريباً بالألم من الرائحة التي كانت تفوح هناك، كانت رائحة ثقيلة، مُقبِضة كأنّها كانت تنبعث من أطفالٍ صغار أو من لحمٍ فاسد.

"نعم، أنا شخصيّاً لا معرفة عندي فيما يخصّ النجوم والفلسفة"، صاح زكريّا هادراً. "طوال حياتي كنتُ جرّاحاً ولم أشغل نفسي بالعلاقة بين الأعضاء أو الروح. لكن لأن لديَّ ممارسة كحكيمٍ عاديّ فقد كنتُ أُعيلُ نفسي لأجل *Alter ego*[1]. ولم تكن هنالك من مسألة ميتافيزيقيّة لا يجد المرء لها جواباً عندي. سأقدّم الآن زميلين محترمين إلى بعضهما".

عند ذاك فتح زكريّا البُوَيب على مصراعيه، سقط ضوء النهار في داخله، فرأى مايكل أنهم كانوا رفاقاً ثلاثة في الحجرة. هناك عند الجدار، فوق سرير منخفض، يضطجع مخلوقٌ ويحدّق فيهما بعينين عميقتين عليلتين، لكن الرأس منه كان بحجمٍ وتكوين غير طبيعيّ، بدا وكأنّه كان غاطساً بشكل مسطّحٍ على التخت. كان أبيض مثل الشَّحمة ومضطجعاً في دثارٍ غليظ.

"نعم، أُنظرْ إليه!"، صاح زكريّا. "إنّه مروَّض. هذا هو رفيقي الكُلِّي المعرفة. إسمه كارولوس، لكنّه في اللحظة هذه لا يستطيع أن يقول الكثير. يحتاج لساعتين من الزمان لإحمائه وذلك يقتضي مشكلةً

(1) Alter ego لاتينيّة تعني (الأنا الأخرى)، مفهوم يشير إلى الشخصيّة الثانية الموجودة في نفس الإنسان. (المترجم)

عويصة. إنهضْ يا كارولوس وقدّم تحيّاتك لنا".

مـدّ كارولوس ذراعين شـبحيّتين خارج دثار الفـرو الذي كان يرقد تحتـه، ثبّتهما على التخت وأنهض نفسـه بمشـقّة في وضـع جلوسٍ. بدا لأوّل وهلـة أن الرأس الضخم، الناعم غير عازم على الإلتحاق بجسـده، لكنّـه اسـتطاع أخيـراً حمله من علـى التخـت. وحين جلس ظـلّ الرأس يتهدّل ككتلة العجين من فوق العينين إلى حدّ الكتفين.

"إنّه فـي غاية الوهن اليـوم"، أوضح زكريّا. "لأنّه كان أيضاً شـديد التفكّـر في قضيّـةٍ ليلةَ أمـس، لذلك عليـه الآن أن يضطجع فـي العتمة. إستلقِ ثانيةً، يا كارولوس، ودع الهدوء يحلّ عليك".

ترك كارولوس جسـده يهـوي بطيئاً إلى الخلف وسـوّى من وضعه وموضع رأسـه فوق التخت بشـكل تكون فيه عيناه حُرّتيـن. ذلك الوجه الصغيـر، الهَرِم بشـكلٍ لا يوصف، يفـرض إنطباعاً لا يمّحـي. فقط فمه، المقلوب كالسَّمَك المُفَلطَح، كان يرتعش في تعابيرٍ مقاساة فريدة.

"حينمـا يكون مسـتلقياً كما هـو الآن يمكن إسـتخدامه في مهمّات يسيرة، الحساب، تمارين الذاكرة - قدِّمْ له رقماً وسيقوم هو بتربيعه[1]".

"3719"، قال مايكل.

أطبق كارولوس عينيه وسرعان ما فتحهما من جديد.

"13830961"، أجاب بصوت واهنٍ، أبحٍّ، بدا مثل نقيق ضفدع.

"هذا حسـن! - نعم، لقد جئنا بمهمةٍ إليك، يـا كارولوس، يمكنك الشـروع بها فـي الحال. ملك الدنمـارك يريد أن يعرف بالضبـط فيما إذا كانـت الشـمس تـدور حـول الأرض، أم أنّ الأرض هـي التـي... إلـخ. تفضّلْ".

(1) التربيع: حاصل ضرب العدد في نفسه. (المترجم)

إستدار زكريّا، فيما كان لا يزال يتحدّث بصخب، نحو مايكل وركّز انتباهه على ناقوسٍ كبير جدّاً من الزجاج الأخضر كالعشب، كان ينتصب في زاوية الحجرة.

"داخل هـذا ترعـرع كارولـوس. أوه، لقد كلّفنـي نقـوداً كثيرة هذا الناقوس الزجاجيّ! مضت تسع سنين الآن منذ حصولي على كارولوس، إبتعته من متشرّدة جوّالة. كان عمره سنتين آنذاك، لذلك فإنّه الآن لم يعد صغيـراً جـداً. لقد كنت محظوظاً معه، فقبل سـبعة عشـر سـنة بدأتُ مع طفل مـن "ماغديبورغ"، وكان ذلك في ناقوس أصغر، لكنه مات بسـبب إلتهابٍ لأنّه لم يكن سـوى بنصـف النموّ الذي كان فيـه كارولوس، كما أنـه لم يكن من أعرق الأنسـاب، فقد كان ثمرة عشـق جامـح بين راهبٍ عاديّ تماماً وسـيّدةٍ حـرّة المولد من الطبقـة الراقية فعـلاً. أمّا كارلوس، فخلاف ذلك، قد ولد أميراً! في أوردته تجري الدماء الملكيّة مباشرةً من مصادرها الأصليّة. هل تعرف من هو هذا؟".

كان زكريّا نشوان تماماً، حدّق في مايكل بازدراءٍ قاتلٍ، رفع إحدى ساقيه وسرّب من تحتها ريحاً.

"إذا أخبرتـك من يكـون كارولوس فعليـك أن تكتم ذلـك. إنّه ابن ملك الدنمارك! نعم، لقد ولد في قلعة سوندربوغ! أنجبه الملك وهو في سـجنه! أمّه كانت فتاة من العامّة، أُخِذَ الطفلُ منها من قبل السيّد المبجّل كنود بيدرسن غولدنستيرن وأعطي إلى المرأة الغجريّة التي اشتريته منها. لـديّ أوراق بذلك. بلـى، إنّ كارولوس هـو أنبل بُرْعُم يُطَعَّم في شـجرة المعرفـة على الإطـلاق، كارولـوس، إبن الملـك، أمير الدنمـارك! أثبتَ رأسُـه قدرته على الإتّسـاع على نحو فريد. لقد أزلـتُ الجزء الأعلى من الجمجمة، تفهم ذلك بالتأكيد، وتركت الغشـاء الـذي فوق الدماغ يتطوّر إلـى جلد، ثمّ غذّيته بشـدّة، فيمـا كنت أوفّر حـرارة عالية حـول الرأس.

لذلـك كان الناقـوس الزجاجـيّ ضروريّـاً. مـا زال كارولوس فـي الواقع يستمتع بالزحف إلى داخـل الناقوس، حيث أقام سـنينَ عديدة، رغم أنّ الناقوس صغيرٌ عليه الآن. إنّه لأحسـن رأس في أوربا، ليس لأنّه شموليّ فقط، وإنّما لسرعته! ما من آلةٍ تضاهيه. جسده وأعضاؤه متّسقة، من دون إنمسـاخ، كما أنّـه يتمتع بصحّـة طيبة، هنالك دمـاء جيّدة فيه ليسـتعملها الرأس. حاسّـة اللمس عنده نادرة ولا يملكها سـوى القليل. أحتاج فقط لأن أريه قطعةً من الحديد حتى يبدأ لعابه يسيل في الحال، يمكنه التمييز بين صنـوف المعادن من خـلال اللمس فقـط، الرصاص وبقيـة المعادن الخسيسـة تجعـل من أناملـه تتعرّق بسـرعة، لكـن الذهـب والفضّة لهما تأثيـرات مريحة عليه. ثـمّ عليّ أن أقول بأنّـه ليس عالِمـاً متخصّصاً، هو يمتلـك معرفة بنظام الأعـداد، كما أنني قـد لقّنته اللغة اللاّتينيّـة. أمّا بقية الأشـياء الأخرى فقد أبعدتُها جميعاً عنه، لأنّه ينبغـي أن يكون تماماً كما يسـمّيه إفلاطـون: الأُنموذج. كلّ شـيء موجـود فيه، إنّه حقيقـيّ، الكون مطبوع فوق أغشيته... أنظرْ فقط إليه!".

خَطَـوا نحو السـرير فرأى مايـكل أنّ رأس كارولوس أضحى أشـدّ عتمة، جميع أعضائه الناعمة كانـت ورديّة اللون وقد ارتفعت قليلاً. كان مضطجعـاً بعينين مغلقتيـن. أزاح زكريّا الدثار جانباً وكشـف لمايكل عن جسـد المسـكين الهزيل الـذي ينكمش علـى بعضه في وضعيـة الجنين. كانت أطرافه على وشك أن تكون ميّتة وباردة.

"ها هو قـد بدأ الآن"، همـس زكريّا. "لاحِظْ تعابير المُقاسـاة على وجهه. تلمَّسْ هنا، جُسَّ النَّبَض!".

تلمّس مايكل مُجبَراً الرأسَ الناعم الذي لم يزل ساخناً جدّاً ويخفق في اضطراب.

"نعم، نسـتطيع الذهاب الآن"، قال زكريّا. "إنّـه يتعمّق في المهمّة،

لكن سيستغرق الأمر أكثر من ساعة قبل أن يمتلىء الرأس ويتضّخم. سيبدو مظهره لطيفاً فعلاً حين ينتفخ تماماً ويمتدّ مثل ساقٍ على رأسه اليانع الخاصّ. لا أعرف إنْ كان الزميل يودّ البقاء حتى يتلقّى الجواب بعد ساعتين أم يودّ القدوم غداً من جديد؟".

"لماذا يضطجع هناك بمثل هذه التعاسة الشديدة التي تلوح على وجهه؟"، سأله مايكل بصوت يتخلّله الخوف والإشفاق. كان مايكل قد فقد زمام السيطرة على نفسه، من الشراب الفرنسي، من الرعب والإشفاق.

"هذا طبيعيّ لا غير"، ردّ زكريّا. "إنّه أمرٌ مُلحَقٌ بعمليّة التفكير".

"لقد كنتُ أعتقد أنّ المرء يسعد بالذكاء"، لَجْلَجَ مايكل، وأصبح في وهنٍ شديد.

"ألا نذهب؟"، إقترح زكريّا عليه. "يا سيّد مايكل! الحكمة تضاعف الألغاز. قال لي كارولوس ذلك كعُصَارةٍ تفكيره. رأسه يزن ثمانية كيلوات وخُمْس الكيلوغرام، وَزْنُهُ بارداً، وفي كلّ مرّة يحلُّ مسألةً فيها يزداد الوزن بمقدار خُمْس الكيلو. أخبرني كارولوس أيضاً إنّ الإنسان، في حالة التفكير المجرّد ضمن زمن معين يعود إلى نفس نقطة البداية. بمعنى أنّ المرء في نفس اللحظة التي يقترب فيها من الحلّ الحقيقيّ لمعضلةٍ معيّنة فإنّ المعضلة تتلاشى عن الوجود وكأنها لم تكن. لكن عمليّة التفكير، التي بالإضافة لكونها تعلن عن نفسها على صورة مقاساة، وحيث يكون مداها لا أهمية له، لها مصلحتها وقيمتها الخاصّة. لا أعرف إن كان الزميل يفهم ذلك. هل يمكننا النزول إلى تحت؟ ما زال لديّ إبريق هناك".

لكن مايكل لم يكن راغباً في المكوث، ودَّ الذهاب إلى النزل فقد شعر بنفسه مريضاً ومخدَّراً. تبعه زكريّا إلى أسفل السلالم، لم يكن

صاحياً تماماً، ثرثر ردحاً من الوقت بحماسته التي لا ترحم، لكن مايكل لم يعد يستمع أكثر. عند الباب إتّفقا على أن يأتي مايكل بعد يوم ليتلقّى الجواب.

النار

كان الوقـت مسـاءاً حينما كان مايـكل يتهادى في الشـارع خارجاً. قاطنات البيت كنّ منغمسـات وقتها في حياةٍ خَطِـرة، يغنّين ويلوّحن من النوافـذ بأباريـق كبيرةٍ. الجنـود والبحّـارة يمضون صاخبين عبـر الزقاق. عجّـل مايكل سـيره، ترنّـح مبتعـداً فحيّـاه الجنود بسـيلٍ مـن القهقهات الصاخبة، لكنّه انسـلّ عبرهم واسـتطاع الوصول شـبه أعمى إلى مسـكنه في خان «الجزمة الذهبيّة». هناك طلب شراباً فرنسياً وشرب مثل مصاب بالحمّى، وغُصَّة في حنجرته، حتى استطاع أن يفقد وعيه سريعاً.

تركه صاحب الخـان يُحمل إلى السـرير في حجـرة الضيوف. بعد بضع دقائق سمعوه مضطجعاً يبكي بلا حول ولا قوّة في الداخل، وحين ولجـوا إلى غرفته ليتفقّدوا الرجل العجوز أبصروه مسـتلقياً على قفاه في الفـراش ومرفقاه عند جانبيه وهو يحدّق باتجاه السـقف مثل رجل حلّت عليـه اللعنة. لم يكن هناك ما يمكن عمله معه غير تركه يتحسّـر ويشـهق إلـى أن يتوقّـف من جديد. بعـد بضع سـاعات، حينما عادوا لاسـتطلاع أمـره، كان يعاني من حمّى شـديد ويسـتيقظ خلال الليل فـي نوبات من الهذيـان حتّى اضطرّوا إلى السـهر عليـه. لكن في إحـدى النوبات أفلت لسـانه بالحديث عمّا رآه، وعند الصباح توجّه صاحب النزل إلى الشرطة وأبلغ عن كلّ شـيء. بعد سـاعة من الزمـان كان زكريّا مصفَّـداً بالحديد وأُنَيْسِـيانه[1] تحت حجز القضاء. من المحتمل أنّ مواطني «لوبيك» الآن

(1) Homunculus: الإنسان الصغير، أو الأُنَيْسِيان باللاتينيّة. (المترجم)

لديهـم من الأسـباب مـا يجعلهم يشـرعون برسـم علامـة الصليب فوق صدورهم.

رقد مايكل في سـريره مريضاً بصـورة مقلقة ليوميـن، تعافى بعدها واسـتطاع الوقوف على قدميه من جديد، لكنّه كان في غاية الوهن ويسير على عكّازتين. في نفس اليوم الذي سـافر فيه بعـد الظهيرة، أُحرِقَ زكريّا وكارولوس قبل الظهر، كان مايكل هناك في الميدان وشـهد ذلك. خرج كلّ سـكّان «لوبيك» على قدمٍ وسـاق وعبروا زَرافـاتٍ وَوُحداناً متّجهين نحـو الميـدان منـذ الصبـاح الباكر، لكـن مايكل حظـيَ بمـكان جيّد في المقدّمـة لأنّه كان واهنـاً. المَحرَقة جُهِّزَتْ وبدت جديـرة بالثقة وواعدة، كان هنالـك حوالي خمسـة أصناف مـن أجـود صُنُوف الأحطـاب فيها، والجلاّد قـام بتكويمها بذائقـة فنّان بارع بحيـث تتخلّلها ممـرّات للهواء تسـاهم في ديمومتهـا. يتوجّب أنّ يُحـرَق زكريّـا حيّاً، بكلمـةٍ أخرى ألاّ يمـوت خنقاً بالدُّخان، بـل بالتهام النار المجرّدة لجسـده. كان الناس في انتظـار شـيء إسـتثنائيّ بهـذا الشـأن لأنّ زكريّا كانـت له تجربـةٌ في هذا المضمار، فقد سـبق وأنْ نُصِبَ على المحرقة من قبـل وحَمَّمَ قدميه في النار الجافّة. كان ذلك في «ماغديبورغ»، وبسبب ذات الجُرْم الآثم الذي اقترفه الآن، إلاّ أنّ ذلك تمّ كشـفه أثناء جلسـة تحقيق قضائيّ. لكن تلك المـرّة مُنحَ زكريّـا العفو فـي اللحظة الأخيرة لأنّـه أنقذ حياة ولـيّ العهد ذات مرّة.

عند السـاعة الحادية عشر قدم الموكب، أفسـح الحرسُ العسكريّ طريقاً عبر الحشود بمطارِدهم. سـار زكريّا خلف الجلاّد يرافقه إثنان من معاوني الجلاّد على جانبيه، كان حافياً لا يدّثّر جسده سوى كساءٍ جلديّ طُليَ بصِباغٍ أحمر كلون القرميد كان من المفترض أن يمُثّل اللَّهَب. على الـرأس منه كانت ثمّة قبّعـة ورقٍ مخروطيّة، مدَبّبة ومرتفعة، رُسِـمَ عليها

أفـاعٍ وعلاجيم وعقارب. إحدودب زكريّا شـابكاً يديه مـع بعضهما على صدره، كان يقاسـي بمرارة من برد هواء أكتوبر الفظّ وبدا وكأنّه لا يشعر بشيءٍ آخر.

هتف الناس غاضبين باتجاهه وسـرعان ما مدّوا قبضاتهم المتوعّدة من فوق وتحت أسـوار الرمـاح التي شـكّلها الجنود لكبح الحشـود. لم ينظر زكريّاً يميناً ولا شـمالاً. من خلفه جاء أحد مساعدي الجلاّد حاملاً كارولـوس الـذي كان موضوعـاً في كيس، لـم يكن بإمكان أحـد رؤيته. حضرَ بعد ذلك مستشارو المدينة والقُضاة والأكليروس في موكبهم.

فيمـا كان الحُكم يتلـى بصوتٍ عـالٍ كان زكريّا يقف غيـر مكترثٍ ودون أن تبدو على وجهه تعابير متحدّية. بين الفينة والفينة يرتعد جسـده بأجمعه ويكون على وشـك الإنهيـار إلى الأرض تقريبـاً، لكنّ ذلك كان بسـبب البرد، كان وجهه متصلّباً، كما أنّ البرد في ذلك اليوم كان لاسعاً. لاحظ أقـرب الواقفيـن أنّ ذراعـيّ المُـدان وسـاقيه كانت ورديّةً بسـبب الدماء الجافّة التي كانت تغطّيها. لقد أخضعوه لاستجواب أليمٍ ثمّ بعدها غسلوه. كِلا إبهاميه كانا أزرقين ويتدلّيان مكسورين من راحةِ يده.

إنتهـى القاضي من تلاوته الحكم فقاد الجلاّدُ زكريّا نحو السـلالم، فصعد طوعاً إلـى فوق. بعد ذلك حمل مسـاعد الجـلاّد كارولوس فوق كومة الحطب ثم أخرجه من الكيس. هَبَّ إعصارٌ على الحشود، صرخوا وتوعّدوا حينما أبصروا المِسْـخَ المُروِّعَ، أقسـمَ بعضهـم اليمين والبعض الآخر أنشـد مزامير. وضعَ كارولوس قريباً من العمود الذي كان ينتصب في وسط المحرقة، وأحيطت خاصرة زكريّا بسلسلة.

بعدها نزل الجلاّد وأوقد المَشْعَلة. ساد صمت مميت حينذاك على امتداد الميدان.

تصاعـد في البـدء دخـانٌ كثيـف مـن المحرقة فسـرى خـوف بين

المشاهدين من أن يموت الضحايا إختناقاً، لكنّ الحطب كان جافّاً تماماً، وحالما أنشبت النار براثنها فيه وبدأت تلعلع في ممرّات الهواء حتى تلاشى الدُّخان. خشخشت الأخشاب وتطافرت بفرقعةٍ صاخبة، أجساد اللَّهَب الصافية الأولى وثبت بشهوةٍ من بين قطع الأحطاب والتهمت بألسنتها الآثِمَين.

حينها تقدّم زكريّا مبتعداً عن الوتد المقيّد عليه بقدر ما تسمح له الأصفاد، وصاح في هدوء:

«هل مايكل ثوجرسن موجود هنا؟».

شعر مايكل برُعبٍ مُريع وتيبّس في مكانه الذي يقف فيه. حوّلَ بصره جانباً وأفلح في المثول بهيئة من لا يخصّه من الأمر شيئاً. أحنى كتفيه وأدار قمّة قبّعته باتجاه النار لكي لا يلحظه زكريّا. لم يخالج أحدٌ هناك الشكّ في أنه كان هو المقصود بالإسم الذي نوديَ به لحسن الحظ، فتنفّس الصعداء.

تصاعد عنف ألسنة اللهيب في سرعةٍ مَهُولة، ضرب عالياً حتّى أنّ المرء كان بإمكانه الإحساس بضغط الهواء والحرارة من مسافة بعيدة. تحرّك زكريّا جيئة وذهاباً ليتفادى النار. حين لم يردّ عليه أحد وقف هادئاً وبدا كأنّه يعدّ نفسه لقول شيء ما.

لكن في اللحظة ذاتها ضربه لسانُ لهبٍ طويل، ضارٍ وأذاب كَفَنه بلعقةٍ واحدة مطيحاً بقبعته من على رأسه. إنتصبَ عارياً، قهقه الحشد في الأسفل بصخب، إنطوى على نفسه وزحف لائذاً بالعمود، لكنّ اللهب الآن صار يضرب بألسنته عالياً من جميع الجهات فلم يمكن لزكريّا القعود طويلاً عند الوتد. أنهض نفسه وقد دبّت فيه حرارة الحياة، تقافز حول النار، رقص فوق الألواح المُحرِقة. إنطلقت منه فجأة بضعة عواءات حيوانيّة.

Mugit et in teneris formosus obambulat herbis.

تذكـر مايكل الشِّـعر. عصفت به، بشـكل لا يمكن كبحـه، نوبةٌ من الضحك ممزوجة بألمٍ قاتل.

إنهـار زكريّا في مكانـه، صامتاً ومنكمشـاً حول نفسـه. إحدى يديه كانـت متدلّية من حافة المحرقـة، ومايكل كان ينظر كيـف كانت، إصبعاً بعـد إصبعٍ، تضطـرب في النيـران إلى أن تقفـز وهي تقطر وقـد تحوّلت سوداء.

"أنظروا، أنظـروا، أنظروا!"، عصفت صيحـات هائلة أطلقتها مئات الأفـواه من بيـن جمـوع النظّـارة، وحيـن تطلّع مايـكل لاحـظ أنّ رأس كارولوس قد ارتفع من فوق المحرقة. كان يرقد وسـط النيران، ولا يزال حيّا كما يبدو، لكنّ رأسـه لم يكن متهدّلاً، بل منتفخاً من جهة الحاجبين في قسـمين منفصلين في وضوح، كلّ قسم منهما مقسومٌ بدوره إلى كُتَلٍ لولبيّة.

"أنظـروا!"، هتفـت الجموع فـي رعبٍ. كان مشـهداً مروّعـاً، خفق الدم فـي الرأس الضخـم المهتـاج، الأوردة اندفعت غليظـة ومتلوّية إلى خـارج الجلد. الرأس بكاملـه صار يرتـجّ وكأنّه يتهيّأ للقفـز، فثمّة صراع عنيف يمورُ في داخله.

"أنظـروا الآن!"، تصاعـد الصـراخ فـي أقصـى درجـات الهيـاج. "أنظورا الآن، أنظروا، أنظروا!"، تفجّرت الأوردة وانفجر منها دمٌ أسـود صار يدبّ مثل ديدان تتلوّى داخل النار. إنشـقّت الرأسُ في مواضعَ عدّةٍ وأخـذت بالتفحّم تحيط بها ألسـنةُ لَهَبٍ صغيرة. لكـن عند أعلاها بهتت النيران وتحوّل لونها إلى أخضر مثل السُّـمِّ، سـرعان مـا توهّج أحمر من جديد وانساب في دُوّامة قِرمزيّة.

وصلت المحرقـة إلى ذروتها الآن واتّحد لهبهـا في عاصفة واحدةٍ

مـن نارٍ مـوّارة. لـم يتبقّ مـن زكريّـا سـوى كتلة صغيـرة سـوداء. بعدها إنهـارت المحرقة مرّة واحدة على بعضها وتحوّلـت رماداً. هبّت الحرارة بقوّة شـديدة من هنـاك حتى أنّ أقـرب المتفرّجين إليها أصابـه النفطُ في وجهه فعمّ الإضطراب والهلع، لكن بعد ذلك إنتهى كلّ شيء.

زعـم العديـد، فيمـا بعـد، أنهـم أبصـروا الشـيطان يرقـص وسـط ألسـنة اللهيـب، أزرق مثل الفولاذ، ثـمّ ارتفع مع الدخـان حينما انهارت المحرقة.

صوت الشتاء

كان الملك قد أمر حارس البرج بنفخ إشارة الترحيب في النفير حينما يرى مايكل يعود إلى القلعة. وبعد مرور أكثر من أربعة عشر يوماً بقليل على الرحلة شرع الحارس بالنفخ قبيل الظهيرة، لكنّه توقّف في منتصف النفير لأنّه لم يكن واثقاً من الأمر. بعد لحظةٍ تردّدٍ أمسك بالبوق ثانية ونفخ الإشارة فيه بكلّ قواه. لم يعد مايكل ممتطياً صهوة جواده، بل محمولٌ في عربة. كان حصانه يتجرجر خلف المركبة خاليَ السَّرج. كانت السماء تمطر.

فُتحت البوّابات واحدة إثر أخرى للعربة وأوصِدت بعدها ثانية حتّى وصلت أخيراً إلى داخل فناء القلعة.

على الدرج كان الملك كريستيان يقف بمعطفه القرمزيّ الباهت ويعتمر قبعةً، وعلى جانبيه من الدرج نصّب جاكوب العازف وإيدا الصغيرة. كانا يقفان جميلين وفخورين تحت السقف المُقطِّر. كان على جاكوب عزف لحنٍ للترحيب. وقف مع كمانه على أُهبة الإستعداد، حامياً إيّاه من البلل تحت طيّات معطفه.

لوّح الملك لمايكل وضحك بكلّ وجهه. «آآ، ها ها! مرحباً بعودتك إلى البيت!».

لكن مايكل ظلّ راقداً في الجزء الخلفيّ من العربة دون أن يردّ التحيّة.

«بحقّ الله!»، صاح الملك مضطرباً ومضى نحو العربة. «هل تعاني

من شيء يا مايكل؟».

نعـم، فـي الواقع هـو كذلـك. كان يضطجع هنـاك شـاحباً ونصف مغمـض العينيـن، كان يبـدو كما لـو كان ميتـاً. وضع الملك بسـرعة قفا أصابعة على وجه مايكل فشعر بأنّه ما يزال محموماً.

«دعونا نحمله من هنا»، أمرهم الملك بشفتين شاحبتين. «جاكوب، نادِ على حارس البوابة! أين هم الآن جميعاً؟ هيّا! أمسِكْ به الآن!».

دبّت الحيـاة في مايـكل عندما كانـوا يحملونه، لكنّـه كان في غاية الوهن. إسـتطاعوا وضعه في سريره فوق في صالة البرج، وجلس الملك إلى جواره. بعد مضيّ سـاعة من الزمن بدأت تلـوح على مايكل أَمَارات التحسّن، عاد إليه لونه قليلاً من جديد، فهو الآن يرقد هانئاً في أمان.

«كيف كانت الأمور، يا مايكل؟»، سأله الملك قَلِقاً.

«لا بـأس»، طمأنـه مايـكل. لكـن فجـأة شـحب وجهه مـن جديد وخـارت قواه. كان خائفاً جدّاً أن يبدأ الملـك بالحديث عن المهمّة التي أرسله فيها.

«ما الذي يؤلمك؟»، سأله الملك.

«أنا مشـلول عند شِـقّي الأيسـر»، تلعثـمَ مايكل، كان هنالك شـيء يعاني منه في لسانه.

«همـم!»، تحسّـر الملـك فـي قلـق عميـق. صمتـا لوهلـةٍ. إشـتدّ اضطراب مايكل فجـأة، تلمّس ما حوله بيده اليمنـى وفتح فمه، نظر إلى الملك ثـمّ ردّ نظره عنـه من جديد. كان عـبء المهمّة يجثـم ثقيلاً على قلبه وهـو يرغب في التخلّص من هذا النِّيْـر الآن. في نهاية المطاف فهمَ الملك مُراده فأذِنَ له بذلـك: «يمكننا الحديث عن القضيّة فيما بعد»، إلاّ أنّ مايـكل في طريق عودته من البيت فكّر بِحَبْك قصّة عن حصيلة مهمّته يرويها له، فلا ينبغي للملك أن يعرف الحقيقة.

حيـن رأى الملك أنّ مايـكل قد عقد العزم علـى إبلاغه بما حدث سعى لمدّ العون له:

«إذن أنجزتَ مهمّتك هناك؟».

«نعم»، تمتم مايكل مقطوع النَّفَس، نظر بعيداً ليخفي مقدار تعاسته. «نعـم، لكنّني لـم أنل جواباً شـافياً. مرضتُ فـي اليوم التالـي وكان عليّ الرحيـل قبل ذلـك». أدار مايكل وجهه، تحت سـيل دموع سـاخنة، نحو الحائط.

«حسـناً، لا بأس لا بـأس»، هـدّأه الملك بنبـرة لطيفـة. «لكن هذه ليست مشـكلة، يا مايكل. كان ينبغي ألاّ تُرسل أبداً. لقد ندمنا على ذلك منذ أن غادرتَنا. والآن ينبغي عليك أن تتعافى من جديد».

وجّـه الملك كلمـات مُواسـاةٍ عديـدة لرفيـق زنزانته القديـم، فيما كان مايـكل يضطجع هادئـاً تماماً في سـريره المريح، شـكوراً ومحطّماً. بعد قليل أمكن للملك أن يلاحظ أنّه على وشـك النـوم، فالملامح التي أضناها الهمّ شـرعت بالإسترخاء. جفل مرّتين شـبهَ نائمٍ ومغلق العينين، فيمـا كانـت التعاسـة والألـم تلقيـان بظلالهمـا علـى وجهه، ثـمّ أخذت ملامحـه بالإسـترخاء بطيئاً مـن جديد حتى غرق في سـباته أخيـراً بوجهٍ خال من التعابير. إنسلّ الملك بعيداً عن السرير وجلس يقرأ.

في اليوم التالي تحسّـن مايكل واسـتردّ صحّته قليـلاً، لكنه لم يعد معافى كما كان على الإطلاق، ظلّ ملازماً للسـرير طوال الشـتاء والربيع إلى أن قضى نحبه في شهر مارس.

كان شـتاءً هادئاً. شـاخَ الملك كثيراً طوال تلك المـدّة التي قضاها مع مايكل مراقباً مراحل إنهياره.

لكن الوقت إستطال مع مايكل، فلم يكن قادراً على أن يموت فعلاً علـى كلّ حال، فقد تشـبّثت الحياة به أخيراً بعدما صـار راغباً بالخلاص

منها. إنّها تثأر لنفسـها الآن. لم يسبق لمايكل أن سمح للحياة أن تتحكّم به على الإطلاق، لأنّه طوال حياته لم يكن راغباً بالموت. كان يرقد وهو يعتـرف بذلك لنفسـه في خِضَـمّ الليالي الطويلـة التي يكـون فيها الملك نائماً في سـريره بينما مايـكل يرتعش وحيداً مع زمهرير أفكاره الشـتائيّة. الريح تتحسّـر بعمـقٍ وحميميّة خارج البـرج مثل حكيمٍ يصغـي لأفكاره المهجـورة. إنّ من لا يموت كلّ يوم سـيظلّ حيّاً إلـى الأبد. لكن مايكل لم يكن راغباً بالموت على الإطلاق.

ذات يـوم سـمح الملـك لإيـدا الصغيـرة أن تصعـد إليهمـا ليريهـا لمايـكل، فكّـر بأنه سـيكون الآن سـعيداً حقّاً حينمـا يرى حفيدتـه. لكنّ مايـكل أدار وجهـه نحو الجـدار. لم يكن يعـرف أنّ لديه حفيـدة ما، لم يكن لديه أيّ أطفال، لـم يكن متزوّجاً في حياته. لقد كان وحيداً، وها هو الآن يرقد أشـدّ وحدةً مـن أيّ رجلٍ عقيم، كانت وحدتـه مضاعفة. رغم أنّ آنا ميتا كانت هي المرأة التي أحبَّ الاّ أنّه لم يكن يشـعر بشـوقٍ إليها على الإطلاق. لقد كان قدره هكذا، أن يفقد الإمرأة التي نالها.

عندها ترك الملكُ الصغيرةَ إيدا تخرج ثانية.

وها هي العاصفتان معاً الآن! الملك كريستيان الذي وثبَ على منصّة التاريخ مثل شعلةٍ نافذة الصبر، بمشـاريعه العملاقة، فأصبح صانعاً لتاريخ ناقصٍ للدنمـارك. ومايكل ثوجرسـن، الـذي بكبريائه الـذي لا يُقهر وكلّ التوق الذي يطوّقه صار سَـلَفاً لسُـلالةٍ وهميّة ممتدّة. كانـا محتجزان هناك في زنزانة معاً، كلّ واحد منهما كان مؤسساً لسلالةٍ من أوهام زرقاء.

تلـك الليلة مـات مايكل، إسـتعاد عمـق شـبابه ومشـاعره العنيفة، إسـتعاد دفـء كينونته وربيع قلبه الطاهر في ذات اللحظة التي توقّف فيها قلبه عن الخفقان.

لكن قبـل ذلك مـرّ زمن أبـديّ على مايـكل قبل أن يسـتطيع بلوغ

هدفـه. خاب أمله المرّة تلـو الأخرى. حتى في منتصف شـتائه كان يبدو عليه أنّه سـيظلّ على قيد الحيـاة. كان يضطجع متوهّجاً في السـرير وقد عاد إلى أنفه لونه الأحمر من جديد.

شـرع الملك بصفق غطـاء الإبريق بانتظام كما كان يفعل قبل سـفر مايكل، مستأنفين أسلوب حياتهما القديم في صالة البرج مع فارق واحدٍ فقط، هو أن مايكل كان مضطجعاً. صار يتوق كما في السابق إلى الترفيه الذي كان يقوم به وقت كان مايكل يجلس في سـريره مسـتعيداً القصص التي عاشـها في ميادين القتال. لقد أعـاد روايتها له مـرّات ومرّات رغم أنّه كان يعـرف الكثير غيرها. شـارك مايـكل في جميع المعـارك الكبيرة والشهيرة التي خيضت في أوروبا، خدمَ كلّ ملوك أوروبا تقريباً وكان في إمكانه وصف قسـماتهم ومظاهرهم الخارجيّة. ما كان يثير فضول الملك بشـكل خاصّ هو تقنيـة المعارك، المدفعيـة وما إلى ذلـك ممّا قد يكون لفـت انتباه مايـكل لكـن دون تعمّق حقيقيّ فيـه. كان بإمـكان الملك أن يسـأله إلى ما لا نهاية، وكان مايكل ينقّب في ذاكرته ليأتي بجواب يشفي غليل الملك.

كان لمايكل أسـلوبٌ مُقتَضَب ومباشـر في الروايـة. القصص، التي كان قد رواها من قبل، يسـتعيدها دائماً بذات التفاصيل الدقيقة بالضبط، حتـى وإن كان تقريبـاً قـد حبكها ذاتها فـي المـرّة الأولى. غالبـاً ما كان الملـك يطلب منه روايـة هذه القصة أو تلك، التي سـمعها كثيـراً ويتوق لسماعها من جديد.

حينما يسـتيقظ الملك في الليل يسـتيقظ كذلك مايـكل حالاً لعادةٍ قديمة. كان بإمكانهما الإستلقاء لساعات يتبادلان فيها الأحاديث بسلام. كلّ واحد منهما يرقد على سريره في فجوة الجدار ودثار الفرو مسحوب إلى حدّ ذقنه وهما يتنفّسـان الهـواء البارد الذي كان يتسـرّب من الموقد

إلى غرفة البـرج بعد أن تخمد النار. شـعاع القمر يسـطع خلال محراب النافذة العميق عبر لوح الزجاج الأخضر، المتجمّد. قلبَ الملكُ السـاعةَ الرمليّة الموضوعة عند رأس سـريره. مرّ الوقت بطيئـاً وكان على مايكل أن يفكّر بحكاية جيّدة جديدة يصاحبها الملك بهمهمةٍ أو صيحة تعجّب، بتصفيقٍ منه أو هزّة من رأسه.

وقـت الصبـاح يكـون الملك عـادةً مشـحوناً وخطـراً، ممـا يضطر مايكل إلى الصمت والهجـوع بهدأة الفأر، فيما يكون الملك يسـير وهو يرتدي ملابسـه ومطيحـاً بالكراسـي. يُفتح البـاب ليدخل بيرينـت مبكّراً في الصبـاح ويشـعل الموقد، وبعـد أن يدبَّ الـدفء ينهـض الملك من سـريره، بعدها يسـارع بالجُثُوِّ على ركبتيه فوق أحجـار الأرضيّة ويصلّي صلاة الصباح التي كانت تهدر في واقـع الحال مرّات عديدة مثل لعناتٍ مفترسة. حينما ينتهي من ذلك يمضي نحو كرة حجر ثقيلة ويقوم برفعها كلّ صباح مائة مرّة إلى أعلى رأسـه، خمسـين مرّة في كلّ ذراع. كان في إمكان مايكل سـماع عدّ الملك ونخيره الذي يصير تدريجيّاً أكثر مسالمةً مع تصاعـد الإرهاق الذي يحـلّ به. وحينمـا يكون في الحمّـام يتحدّث بصوت مهموس وحارّ مع نفسـه. بيـن أونةٍ وأخرى يرشـرش الماء على الأرضيّـة حينما يحاول الإمسـاك من غير هـدى بأواني المـاء. كان ينفخ مهدِّداً، وحين يختلس مايكل نظرة إليه يمكنه أن يلمحه واقفاً مع المنشفة ويجفّف نفسـه، أحمر الجلـد من برودة الماء، متشـنّجاً حـول الحاجبين والفم ويرمق، بنظرةٍ وحشيّة، جميعَ الجهات.

بعد أن يكـون الملك قد أغتسـل ينصـرف كالعادة إلـى القراءة في الكتـاب المقدّس بتركيـزٍ مسـتعصٍ إلى أن تُرفـع المزاليج عـن الأبواب ويظهر بيرينت مع شراب الصباح، جِعَة ساخنة مُطيَّبة بالقرنفل والزنجبيل. مايكل ينال حصّته فيشربان معاً دون أن يتحدّثا مع بعض. إذا كانت الجعة

ساخنة جدّاً يرمي الملك القدحَ بما فيه على الأرض.

بعدها يجلس الملك ساعة من الزمان أو ساعتين في الفناء. خَدَمُه الأربعة الذي يتولّون مرافقته حينما يتحرّك خارج البرج يسيرون خلفه. كان الملك يستمتع بالدوس على فقاعات الجليد البيض في المِيزاب وتهشيمها، أو يدعهم يجلبون له النُّشّاب ليصوّب به على الغربان الجاثمة فوق الأشجار المتجلّدة خارج السور. لكن حينما يحدث أن تصل رسالة إلى الملك يخرج دائماً نحو البستان مبعداً الخدم وماشياً جيئة وذهاباً وحيداً بين الأشجار. فها هنا إعتاد أن يلوذ حينما تستيقظ الذكريات.

حينما يصعد الملك إلى صالة البرج ثانية يكون ليّن العريكة وينادي على مايكل بابتهاج. بعدها تبدأ وجبات اليوم وفصول الصلوات. الآن، بعد أن صار مايكل طريح الفراش، لم يعد هنالك من حديث عن لعب البولنغ. رغم ذلك، فلم يكن الملك يعاني من شحّة الأمور التي ينشغل بها طوال اليوم، بل هو في الحقيقة منشغل بألْف شيءٍ من الأشياء التي لا معنى لها وعليه التعجيل بقضائها، فكان مستعجلاً بلا هوادة. عند المساء يكون الإرهاق قد أخذ منه مأخذاً فيذعن لمشيئة الربّ بالراحة.

عندما يحلّ عيد الميلاد تقام إحتفالات فاخرة في القلعة. يهتمّ الملك حينها أشدّ الاهتمام بأن يحظى مايكل، الذي يستلقي وحده طوال الوقت تقريباً، بالطعام والشراب. تمضي أيّام لا يكون الملك خلالها في البرج على الإطلاق، بل جالساً في قاعة الحرس الكبيرة عند الفناء الخارجيّ يستمتع بالشراب مع جاكوب العازف والجنود. فقد جلب جاكوب معه الحياةَ إلى القلعة.

عند المساء، حين تحين ساعة إيصاد البوّابات، يتوجّه الملك نحو البيت، تسيّره الرياح عبر فناء القلعة الخارجيّ فيما يحتفظ بمساره صوب البوّابة، وحين يكون قد قطعها يبحر مهمهماً وهو يَفُوقُ عبر الفناء

الداخليّ محيّياً القمر المتجمّد ويمضي صاعداً الدرج تتبعه ظلاله التي كانت تتجرجر خلفه على الثلج الأبيض.

لم يكن جاكوب العازف ثملاً أبداً أثناء فترة أعياد الميلاد، رغم أنّ الإحتفالات تواصلت حتى عيد الفصح.

عند رأس السنة صار برد الطقس قارساً. مياه المضيق كانت مغطّاة، وأرضيّات الجليد الممتدة لأميال كانت تتحسّر وتغنّي طوال الليل. كانت هناك قوى مجنونة في دويّ الصقيع، بروق الصقيع تتخاطف من ساحل لساحل مذكّرةً بالقوى المرعبة، الحبيسة.

كان مايكل يسمع ذلك حينما يكون مضطجعاً. أيقظ الملك من نومه تلك الليلة، فقد كان يعتقد أنّه سيموت.

«إنّها تقرع بعنف في أذني اليسرى»، قال في نبرة باردة كالجليد. مضى الملك وأوقد شمعة، كان مهتزّاً وشعره يتناثر أشعث حول رأسه، لمّا ينم ملء جفونه عقب سَكرة أمس. حين لمح تعابير الخوف تلوح على وجه مايكل فكّر بأنّ هذه ليست بسَكْرة الموت. «إنه ليس سوى الجليد يا مايكل»، طمأنه قائلاً، بعدها أطفأ الشمعة واندسَّ في سريره من جديد.

فوق، في غرفةٍ عند جناح القلعة الأيسر، كان ثمّة من سمع الدويّ العميق، المرعب، جنديّ شاب من حامية القلعة، ألصق جسده على جسد حبيبته البكماء، الصغيرة إيدا. لم تسمع إيدا شيئاً، لكنها ضحكت بنشوةٍ مأخوذة بصديقها حينما لاذ، في غمرة خوفه المبهَم، بين أحضانها. رأته، كان كبيراً وقويّاً، وقد استحال فجأة إلى رعديد وكأنّه أصيب برعب داخليّ، مضطجعاً بشفتين مرتجفتين مخلوع الفؤاد والحيرة ملء عينيه، فقبّلته. حلّ الهدوء والجذل في نظراته من جديد، فأخذ إيدا بين أحضانه. إضطجعا في غمرة ضوء الشمعة التي كانت تحترق غامرة الحجرة بالذَّهَبِ فقبّل القماش الأبيض اللطيف فوق نهديّ إيدا العذراوين.

غروتـــا

كلّ ليلة يقترب الصوت المُجَلْجِل، المدمِّرُ، من أذنِ مايكل اليسرى أكثر.

كان مثـل صوت رَحىً حجريّـة تطحن ليس بعيداً عن رأسـه. غالباً مـا كان يفكّر وهـو مضطجع في أنّه ميّـت الآن. مضت عليـه قرون وهو يضطجع مُقْعَداً تحت رحمة أغنية الظلام الفولاذيّة، الماضية الحدِّ، هذه.

ومع ذلك فقد كان يستيقظ بين آونة وأخـرى ويتمكّن من تحريك يـدٍ أو تمييز شـيء مـا في الصالة مـن حوله. لكن فـي كلّ مـرّة يبدأ فيها هذا الصوت المخيف بالطنين في أذنـه من جديد فإنّه يقترب أكثر فأكثر، مخترقاً إيّاه بصورة أشدّ وحشيّة من قبل.

كان ذات الصـوت الذي تتبّعه في شـبابه، لكنّه كان ضعيفـاً ونائياً، يبعـد آلاف الأميال. مُذ ذاك أخـذ بالتنامي في كلّ مرّة يعـود لتذكيره به. والآن صـارت الضوضاء بالغـة الصخب حتى أن مايكل لم يكن ليسـمع غيرها، فيضيع في صخبها، كأنّها تنبعث من مجرشةٍ عملاقة.

كان الصـوت قريبـاً لصـوت الطاحونـة «غروتـا» التي تديرهـا فانيا ومانيا[1] في ليل القطب الشماليّ.

أغنية الطاحونة التي تنشداها ستستولي عليك، ستنبعث من صميم

(1) Fenja og Menja: هما، في المثيولوجيا الاسكندنافية، أُختان ماردتان جعلهما «فرودا»، ملك الدنمارك، تطحنان له الغنى والسعادة في طاحونته السحرية «Grotte»، حيث كان بإمكانهما طحن أيّ شيء وفق رغباته، وبعد أن استغلّ كدحهما في الطاحونة بصورة فظّة بدأتا بطحن الموت والدمار على «فرودا». (المترجم)

قلبك مثل صوت حجرٍ يطحن. ينبغي أن يظلّ دماغك مركزاً لدوّامة غبار العالم الـذي ينبعث مـن «غروتا» لأجل أغنيـة الطاحونة التي ستنشـداها فانيا ومانيا.

«نحن نَطحَنُ»، تغنّي فانيا. «نديرُ الحجر، ثقيلاً مثل الأرض، نطحن لكَ الشُّروق والماشـية والمزارع الخُضر، نطحن لكَ السماوات المشرقة والخصب، البِرْسِيم، الزهور الصُّفر والبيض».

«ونطحن لكَ السُّـقْمَ والقَحْطَ»، تصاحبها مانيا في الغناء. «الحقول الظمأى، الجفـاف، نطحن لك البَـرَد بحجم البُرْجُمة، نـدوّر لك عاصفةَ رعدٍ من الغرب، ظلاماً، بَرقاً وخَواءً خانقاً».

«نطحن لك الربيـع والأمواج الـزُّرق»، تتأوّه فايـا. «نجعل الصيف يحلُّ فـي ميعـاده، نطحن لـكَ الغابـات الخضر المليئـة بأغانـي الطيور، نطحن لك الحُبَّ، السُّلوان والليالي المنيرة».

«ونطحن لـك ظلاماً كثيفـاً»، غنّت مانيـا في صوتٍ مزعـجٍ. «مطر رمـادٍ، ذبـول، نطحن لـكَ الشـتاء في قلـب الصيـف، نغنّي لـكَ عاصفةَ خريـفٍ، نموّج لـكَ صقيعاً وجليداً فـوق كلّ ما هو حـيّ، نطحن الدفء بعيداً عن روح الإنسان».

«وكـذاك نطحـن ربيعاً جديـداً وغَلَّـةً يانعة»، تغنّـي فانيا فـي حَنَقٍ. «نطحـن لـك انقلاب الشـمس وسـكوناً مميتـاً فـوق البحـر، نطحن لك أمهاراً وجِراءً مرتعدةً وريـاح الجنوب، نطحن لك الأوراق المتطايرة عن الأشجار والإخلاص».

«نعم، نحن ندير الطاحونة حتى تَصِرَّ وتتـأوّه»، زعقت مانيا. «نحن نطحن في الولادة، نطحن فـي التابوت. نطحن الثلج والقُنوط. تلك آخر أغنيتي».

والآن أحنـت الماردتـان الغاضبتان كتفيهما وغرسـتا سيقانهما في

عمق العتمة وأدراتا حجر الطاحونة الهدّار. غنّتا معاً، فانيا ومانيا:

«نطحنُ لك الشّمسَ، القمرَ والنجوم جارياتٍ حول الأرض. النهار والليل يتناوبان بلمحة عين، أبيض وأسود، والسماء ستدور مثل عجلة. نطحن لك الصيف والشتاء مثل حمّى، حرارتها تحلّق فوقك ثمّ تسلمك ثانية للبرودة.

لكن في الختام نطحن لك فترةَ شتاءٍ. لقد استُعبِدنا عبر ألوف السنين، لكننا في النهاية سنطحن لكَ عصرَ جليدٍ.

ضوء الشمال يتلألأ فوق رؤوسنا! نطحن لك جليداً يمتدّ فراسخ وسَنةً مليئة بعواصف الشمال وثلجاً تذروه الرياح. نطحن الأمل واهياً لأجلك، نغنّي زخّات مطرٍ، حيث درجات البرد في صعود. نطحن لك لياليَ أبديّةً، ندوّر الشمس بعيداً عن المدار. نطحن جبالَ ثلجٍ ساعلاتٍ بحَوَافٍّ مهشَّمةٍ منحدرة من الشمال ومن جميع سهول الأقاصي الغنيّة. ندمّر المدن تحت أنهار الجليد، نهشّم كلَّ خصبٍ.

ونحن نحجّر رأسك، ندوّر الخراب، نغنّي بقلوب باردة كالصقيع، إلى أن تتفجّر الطاحون».

وداع العازف

في أحد صباحات شهر مايس كان مايكل ثوجرسن يرقد ميتاً في سريره حينما أتى الملك لمعاينته. كان الملك قد انتظر ذلك منذ زمن طويل لكنّه، بالرغم من ذلك، فقد أصيب بالجزع.

كان أمراً بالغ الحزن بالنسبة إليه أن يرى وجه مايكل وقد تصلّب، فقد أصابه ذلك بالاضطراب بذات القدر الذي آلمه فيه. لم يكن معتاداً على رؤية وجه مايكل لا يتحرّك بأدنى حركة على الإطلاق. مضى الملك جيئة وذهاباً في البرج وهو ينتحب، وفي كلّ مرة يعود فيها إلى مايكل يراه منطرحاً هناك في سكون الصخر، ليس شاحباً كما كان، بل أبيض. إستحوذ على قلب الملك هَلَعٌ غريب، شهقَ طلباً للهواءِ فلم يكن في إمكانه إستيعاب ما حدث.

لم يحدث أن رأى الملك ملامحَ بهذه الخيبة مثل تلك التي كانت تلوح على وجه مايكل. الآن، بعد أن استسلمت ملامحه للموت تجلّت الخيبة بوضوح عليها. جبهته العالية، المقفرة كانت مثل قُبّةٍ فوق صَمتٍ سرمديّ لا ينقطع. عيناه تهجعان بعمق تحت الحاجبين الحادّين، الفاغرين. كانتا مغلقتين لكنهما تبدوان وكأنّهما تحدّقان في نظرة ناعسة، شاسعة. أصبح أنفُ مايكل الطويلُ، المتقلّبُ، أبيضَ الآن تماماً. كان يرقد هادئاً، الغضون الأربعة التي تزيّن جبهته، والتي كانت تضفي عليه مسحةً من الذكاء حينما كان حيّاً، بدت وكأنّها خَتْمٌ أو صليبٌ غُضروفيّ صغير. شاربا مايكل الأبيضان تهدّلا على جانبي شفتيه. فمه مُطبَقٌ بمرارة. كان

الفـم الميّت عالَمـاً من الآلام المكتومـة، كان فماً قد كـوِّنَ لكي يصمت عن الأسى، وكأنّه شيفرة غامضة تخبّي مفتاح سرّ الحزن.

هنالـك كان مايـكل يرقـد صامتـاً عمّـا كان يعـرف، لكـنّ ملامحه الخرسـاء كانت تتّهِم. هذا مـا فكّرتُ به! يمكن مطالعـة ذلك في وجهه، لكن ما جـدوى ذلك الآن؟ لقـد انتهى مع ضياعه الذي لا يُستعاد، وها هو يرقد مُذعِناً هناك. وجنتاه غائرتان بيـن فكّيه القويّين. كان قناعاً صلباً وتعيسـاً لرجل، إعترافاً صامتاً لرجلٍ ميّتٍ، رجل كافح سدىً طوال حياته وقاتل عن نفسه بلا هوادة لكن دون جدوى وسط سوء الفهم الفاغر فاه. هناك يرقـد مايكل وتواضعُ الموتِ النبيلُ على الشـفتين، والتحدّي الذي أُطفيء إلى الأبد.

كان رأسُ مايكل البائسُ أشبه بسـبيكةٍ طُرِقت سبعين عاماً في النار قبل أن يُبرَّد ويستوي على الصورة التي هي عليها الآن. لسبعين سنة كان وجهه مصهوراً وعاكسـاً لألف وجهٍ مـن وجوه الحياة، كانـت عيناه مثل معـدنٍ حيٍّ يقنـص الضوء إلى أن ينسـدل الغشـاء فوقه فيتصلّـب ويبرد، يتحجّـر كمـا كان فـي نيّتـه أن يكون. إنتهـى مايـكل الآن وبلغ المشـهد ختامه.

سُجّي جسده فوق القشّ في مستودع السلاح في القلعة. وفي تلك الأيّام التي مضـت، قبل أن يوارى التراب، كان ثمّة مأتم كبير شـارك فيه جميـع مـن كان في القلعة. لـم يجرؤ الخـدم الخائفون مـن الظلمة على النـزول إلـى الفنـاء عند المسـاء خوفـاً مـن أن تقع أعينهـم علـى البوّابة الموصـدة التي تُسـجَّى وراءها الجثّة. أدنى صوت فـي الظلام كان كفيلاً بجعل عقولهم تهرع من الخوف.

لكن مايـكل كان يرقد بوداعة في مسـتودع السـلاح البائس، حيث الأسـلحة والرايات تغطّي الجدران، والدروع الكئيبة الخاوية تنتصب في

طابور على امتداد الحيطان المحيطة بالتابوت.

كان الملك ينزل كلّ يوم لينظر إلى مايكل وهو يبكي بمرارة. لم يغيّر مايكل من وضعه. شرعت جبهته بالتعفّن. وقف الملك وهو يهزّ برأسه فوقه وينتحب. لقد أضحى الملك شائخاً الآن، يمكن للمرء ملاحظة ذلك عليه حينما يكون تعيساً. كان مترهّل الملامح حول محيط فمه، وجسده منحنٍ نحو الأمام، فقد أضحت الأرض تطالب به أيضاً.

دُفِنَ مايكل في مقبرة «سوندربورغ». لم يكن في إمكان الملك تشييعه أبعد من الجسر المتحرّك، ثمّ أنّ هناك كانت مأدبة شرف كبيرة ستقام بعد مأتمه في القلعة. جعل الملك برميلين من الجعة الألمانية يوضعان في المقبرة ليكونا تحت تصرّف الجميع بحرّيةٍ. عند المساء كان جميع الرجال سكارى. جاكوب العازف، الذي كان كسير القلب على موت مايكل، حمِلَ مُخدَّراً تماماً إلى سريره.

ومضت الأيّام وحلّ الربيع. الجنود الشباب كانوا يتدربون داخل الجدارن المحيطة بالقلعة. كانت الأبواق تصدح. ترا را را!

في مطلع شهر مايس لوحظ أنّ جاكوب العازف أضحى يتصرّف بغرابة. بدأ ذلك حينما شرع، وسط دهشة الجميع، برفس شيء ما حينما كان يعزف، ثمّ أخذ بعدها يحدّق باتجاه الزوايا ويلوي وجهه من الإشمئزاز. حينما سُئِل عن سبب ذلك إشتكى من الأعداد الغفيرة للجُرذان الموجودة في كلّ مكان. لم يكن في إمكان الأخرين رؤية أيّ جُرذٍ هناك.

بدأ جاكوب يشرب ليستعيد نفسه، لم يطل الوقت حتى بدأ يرى أرانب. شرع بالعدو هنا وهناك مطارداً الأرانب التي لا يراها أحد غيره، فيما كان الناس في القلعة يتندّرون عليه. ذات يوم صادف جاكوب،

مرعوباً، أرنباً عملاقاً عنـد البوّابة، كان بحجم البقرة، فخاض معه صراعاً عنيفاً ونادى على الحارس طلباً للمساعدة، صرخ، قاتل وتصارع، حتّى أنّ جميع جنود القلعة كانوا يتحلّقون حوله وهم يتلوّون من الضحك. لثلاثة أيّام متتالية ظلّ القتال الوحشـيّ بين جاكوب والحيـوان اللامرئيّ مصدرَ مـرحٍ كبير. كان يطارد لسـاعات في فنـاء القلعة، حيث كان مسـموحاً له بالبقاء إذ لا يمكنه هناك أن يسـبّب أضراراً، فيما كانوا يتطلّعون إليه وهو يملأ الزوايا بأكوام الجـرذان الميّتة والأرانب، فقد قتـل الكثير منها حتى اضطرّ إلى الإنتصاب على أصابع قدميه ليمكنه الوصول إلى ذروة ركامه الموهوم. في ذات اللحظة التي سـحقَ فيها جرذاً على الجدار في إحدى نهايـات الفناء تقافـزت الأرانب عند النهاية الأخرى منـه فهرول جاكوب نحوهـا. كان عليه بين الفينة والفينة الإندفاع، غير هيّابٍ، إلى وسـط فناء القلعة ليشتبك في جولة مصارعة مع حيوانٍ ينبغي أن يكون، وفقاً لطبيعة عراكه معه وأسلوب القبض عليه، متوحّشاً وفي غاية الضخامة.

حين يهبط الظـلام لا يعود هنالك من أحد في تلك الظلمة العميقة التي تلفّ فناء القلعة، حيث ربمّا كان شـبح مايكل ثوجرسـن يجول. لم يكـن جاكوب ليكترث بمثل هذه الأمور، بـل كان يظلّ هناك طوال الليل إذا لم يأت أحد ليطرده من هناك.

ذات مسـاء أبصر جاكوب وقت الشـفق حيواناً يلجُ إلـى فناء القلعة عبر البوّابة، كان ضخماً مثل حمولة قشّ بحيث استطاع بالكاد حشر نفسه والمرور عبرها. أحسّ بنفسه ضئيلاً مقارنة به. سمع الحارس أنّ جاكوب كان في خطرٍ مميتٍ عظيم، لكنه قبل أن يخفّ إليه سارع باستدعاء بعض من رفاقه لمرافقته لأنه لم يكن يجرؤ على النزول وحده إلى الفناء. عثروا علـى جاكوب فـوق البَلاط وسـط الفنـاء، حيـث كان ملقى وهـو يصرخ والزَّبد ملء شدقيه. لقد أُصيب بالتشنّج وتمّ أخذه إلى السرير.

بعد بضعة أيّام من الحمّى ونوبات الهيستريا تحسّن جاكوب وبدأ مُجدّداً بالعزف قليلاً. كان هادئاً ورصيناً لبضعة أسابيع ويجول ماشياً بقَبْقَابه الخشبيّ، ولون أخضر باهت يحيط بأنفه وهو في حالة يُرثى لها. بعدها في إحدى أماسي شهر مايس عاد لمعاقرة الخمر بإفراطٍ كلّ يوم.

كان مساء القديس يوحنّا، يوم انقلاب الشّمس الصيفيّ. عبر كلّ أراضي الدنمارك كانت النيران تضطرم في الهواء الطلق لعودة الإله «بالدر»[1]. كان «توك» يجلس وحيداً، ناضب الدموع بعيداً في أطراف الحقل.

إبتاع جاكوب العازف لمساء القديس يوحنّا برميلاً من الجعة بكلّ ما يملكه من نقود ودعا الجنود لمشاطرته الشراب. في ذلك المساء كان غاية في اللطف، عزف بكلّ جوارحه حتى غمرتهم النشوة والإبتهاج. وحين أضحى الوقت متأخّراً غنّى جاكوب أغنية حديثة النظم كان قد نظمها وأنشأها بنفسه، وكانت هكذا:

طبتم مساءاً أيّها الأخوانْ
عن اذنكم، فإنّني تعبانْ
دع عنك تهديدي أو التِماسي
لأنّني في غاية النعاسِ.

في القبر لابدّ سأرتاحْ
أسفل نور الشمس والرياحْ

(1) Balder: إله الضوء والجمال في المثيولوجيا الإسكندنافيّة، يُقتل بسهم يطلقه شقيقه الأعمى «توك» عَرَضاً أثناء لهو الآلهة الذين سيحاولون استعادته من مملكة الموتى بعد موته، لكنهم يفشلون لأنّ «توك» امتنع عن البكاء عليه، وهو صنو «تمّوز» في مثيولوجيا بلاد الرافدين.

أرقد في نومي بلا عناءْ
حتى ألاقي الربّ في السماءْ.

على سرير التربِ أرتاحْ
خال من الهمّ ومرتاحْ
في وحدتي أنام كالجنينْ
بين ذراعي أُمِّنا الحنونْ.

إلى اللقاءِ، يا أعزّائي
يا قدحي، يا كوزَ صهباءِ
شكراً أيا قوسي ويا كماني
غمرتما قلبيَ بالأغاني.

أغادرُ الدنيا بلا ديون
فقد دفعتُ كلّ ما يبغونْ
للأخ والعدوِّ والصديقِ
لأنّني راحلُ في طريقي.

شكراً لكم من دونما استثناء
شكراً إلى السّادة والغوغاء
أهلا بكم تقاسموني الآن
بهجتكم، وغداً الأحزان.

إلى اللّقا يا خير أصدقاء
أعطيتُ ما قدرتُ من عطاء
لو أنّ موسيقايَ دون ما اشتهيتْ
لا تحزنوا، فها أنا انتهيتْ.

في صباح اليوم التالي عثروا على جاكوب مشنوقاً على أعلى شجرة الحَوْر الكبيرة الفضّية في حديقة الورد. كان هناك غراب جاثم فوق رأسه فيما كانت مخالبه متشبّثة بشعره الرماديّ.


محمد خطاب

Johannes V. Jensen
Kongens Fald

رواية «سقوط الملك» سيرة تاريخية متخيّلة للملك كريستيان الثاني، أحد ملوك الدانمارك في القرن السادس عشر، والذي كان آخر حاكم للدول الاسكندنافية الثلاث. تستند أحداثها إلى العديد من المفاصل التاريخيّة الحقيقية لهذا الملك ذي المسحة الشكسبيريّة. تَعرض الرواية، التي هي مزيج من الواقعية النقديّة والشاعريّة، مصير هذا الملك من خلال تأثير الأحداث على بطل يراه بطريق الصدفة ثمّ يرتبط به إلى الأبد. كما تستعرض أحوال الدانمارك بعد تمرّد الشعب السويديّ على الاحتلال الدانماركي. وقد كُتبت الرواية بلهجات محلّية كانت متداولة منذ أكثر من مائة سنة، أي قبل بلورة اللغة الدانماركية الفصحى، ممّا يجعل الكثير من مفرداتها الآن في عداد المندثر من الكلام ويجعل من الصعب حتى على الدانماركيين مطالعتها من دون الاستعانة بالقواميس اللغوية التاريخية.

يوهانس فيلهلم ينسن روائي وشاعر دنماركي، نال جائزة نوبل للآداب عام 1944. يجنح في أعماله الى تصوير التطوّر الانسانيّ كجزء من الاتجاه التطوّري العام للبشريّة. يُعدّ عمله الروائي هذا أهمّ علامة بارزة في تاريخ الأدب الدانماركي على الإطلاق، فرغم مضي مائة عام على نشره فقد فاز بلقب «رواية القرن» في استفتاء نظمته الصحافة الدانماركية عام 1999. ولد يوهانس ينسن عام 1873 في قرية صغيرة تقع في منطقة «هيمرلاند» الواقعة شمال «يولاند» وتوفي في كوبنهاغن عام 1950. كان الإبن الثاني لطبيب بيطري، التحق بكلية الطب في جامعة كوبنهاغن عام 1893، فتركت دروسه في الطبّ والعلوم الأخرى أثراً عميقاً على مجمل أعماله الأدبيّة.



علي مولا




الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

تصميم الغلاف: سامح خلف